عرب .. فى قاع الزمن

عرب .. فى قاع الزمن

دكتور
سعيد إسماعيل على
أستاذ أصول التربية
كلية التربية - جامعة عين شمس

القاهرة

١٩٩٨

عالم الكتب
٣٨ شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة

مقدمـــــة

فى عام ١٩٩١ صدر لى كتاب بعنوان «هوامش فى السياسة المصرية» جمعت فيه عددا من المقالات التى نشرتها فى عدد من الصحف مثل الأهالى والشعب وصوت العرب والأهرام فى الفترة من ١٩٨٤ - ١٩٩٠ على وجه التقريب، ودارت مقدمتى للكتاب وكأنها «تبرير» وليست «تفسيرا» لأن يقرأ القارئ مثل هذا الكم الكبير من مقالات « سياسية» لواحد من أساتذة التربية !

كان المنطق الذى قام عليه حديث هو أننى أنطلق من باب الاهتمام بالسياسة ومتابعة (أحداثها) وليس من باب التخصص فى العلوم السياسية، أو الممارسة السياسية .

ومنذ الغزو العراقى للكويت فى ١٩٩٠/٨/٢ قلت كتاباتى فى السياسية على وجه العموم لأسباب عديدة يصعب شرحها هنا، لأنها تحتاج إلى دراسة مستقلة، لكن أبسط ما يمكن قوله هو أن ذلك العام أصيبت فيه الأمة العربية بشرخ حاد فى جسمها الكلى ، وكذلك فى جسم كثيرين من المهمومين بهمومها، ومنهم كانت هذه السطور وسيطرة قدر من «الاكتئاب» يعتقل العقل ويغل القلم عن التفكير والممارسة .

كذلك تغير المواقع المصلحية ولا أقول الفكرية لكثير من الناس والصحف، بحيث أصبح صعبا على مثلى عندما يقوم بالتغلب على ماعاناه القلم من انكسار أن يجد القناة التى يعبر من خلالها عما يفكر فيه ..

وعندما يجد القارئ أننى قد عاودت - أحيانا - الكتابة، فلا يعنى هذا أن الغمة قد انكشفت، فهى مازالت، وربما أشد مما كانت، لكن حكمة الله التى تجعل الإنسان متحديا معاندا وإلا فسوف يموت ببطء كمدا وغما مما نحن فيه، هى التى حركت القلم، وحركت الهمة أن أقوم بجمع بعض ما لم يجمع فى الكتاب السابق، مما كتب خلال النصف الثانى من الثمانينات، بالإضافة إلى ما استحدث من كتابات، أرجو الله ألا أضيف بها هماً آخر إلى المواطن العربى، وإنما لأستثيره بحيث يقتنع أن استمرار ماهو قائم مستحيل، وأنه لابد من التغيير!

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة
جماهير مصرية تبحث عن أحزاب	١
وأحزاب تبحث عن جماهير	٥
أحزاب محاصرة	٨
أفأ من واحدة أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ؟	١٢
مرثية عرب فى قاع الزمن	١٥
من التحرير الأصغر إلى التحرير الأكبر	١٩
حتى لايقع اليسار فى المصيدة	٢٥
اليسار الذى فى المصيدة	٣٠
ستؤكلون يوم يؤكل الثور الأبيض	٣٨
منحة أم محنة ؟	٤٦
عندما يدير العقل العسكرى مجتمعا	٤٩
ما أريكم إلا ماأرى	٥٢
ضحك على ضحك	٥٦
رغم أنف هراقليطس، فى مصر، تستطيع أن تنزل النهر مرتين	٥٩
إنى خائف	٦٣
خصخصة الجيوب .. وتأميم العقول	٦٦
اللهم إنا لا نسألك رد الخصخصة وإنما نسألك اللطف فيها	٦٨
هم والأنبياء	٧٠
.. وإذا المؤودة سئلت	٧٣
مفيش فايدة	٧٩
عصر التكفير	٨٢
تحيا القوة	٨٥

وهم السلام بين «المواجع» و«الفواجع»	٨٨
الامبريالية من بعد	٩٢
شيطان العصر	٩٥
من مصرى إلى حكام العرب	٩٨
مصر الإسلامية ليست بحاجة إلى عودة ، ولا هى بحاجة إلى دعوة	١٠٢
حقيقة سياسة عبد الحميد الإسلامية، وموقف المتخاذلين من الثورة العرابية	١٠٩
ماهكذا ينقد التاريخ العثمانى	١١٩
ماهكذا يكتب التاريخ العثمانى	١٣٠
هل خططت الصهيونية للاحتلال الإنجليزى لمصرية وادى الدموع	١٣٩
وادى الدموع	١٤٧
وصاية الرأسمالية العالمية على الحكم فى مصر	١٥٣
خمسة وخمسون شهراً فى المخبأ	١٦٤
لماذا العالم الثالث ؟	١٧٦
هجوم عربى مبكر على الإشتراكية	٢١٥
٨٩ شهرا فى المنفى	٢٢١
القول الفصل فى سعادة الأمة	٢٢٧
شئون الشرق الأوسط فى مؤتمر أمريكى	٢٣٣

جماهير مصرية تبحث عن احزاب* !!

عندما تُحكم أبادى أخطبوط قوى القهر والاستغلال الخارجى قبضتها على عنق أمة ..

عندما تفتقد الجمهرة الكبرى من أفراد الأمة المقومات الأساسية للحياة المعاصرة ..

عندما تجد عقول الأمة نفسها إما محاصرة فى بقعة محدودة لا ينبغى لها أن تتعداها، أو محجور عليها التعبير عما تنفعل به ..

عندما يحدث هذا وغيره مما سار على نهجه من حيث الإفقار والقهر والتعويق، فماذا يمكن أن يحدث ؟

فى حالات، نجد أن (نوعية الحياة) التى هذا شأنها تكون مدعاة لانفجار ثورى، مما يفتح آفاق تغيير ويبشر بإشراق مستقبل ناهض ..

وفى حالات أخرى، نجد استكانة واستسلاما، مما يفتح الطريق لمزيد من التخلف وربما الاندثار . وفى حالات ثالثة، تتفتق أذهان أولى الأمر عن حل شيطانى يتبدى فى (حياة أخرى) يوهَم الناس أنهم يعيشونها فتبرز تنظيمات وتقام مؤسسات هى بحكم فلسفتها من شأنها أن تحقق أحلام الشعوب، لكنها، من ناحية أخرى، تُسلَب طاقة التحريك لتظل شكلا بغير مضمون وبروازا بغير صورة .

وتنطلق آلة الإعلام الجهنمية لتغرق الجماهير فى أمواج متلاطمة تمتلئ بالورود والرياحين، بكل مايداعب خيالات الجماهير : الحق، الواجب، التنمية، العدل، تكافؤ الفرص، الديموقراطية، الوطنية .. الخ

هنا تحيا الأمة حياتين : حياة (واقعة)، تموج بصور القهر والاستغلال .. وحياة أخرى (ورقية) و(كلامية)، ولا بأس من تخصيص رموز وهياكل ملموسة تراها العين، لا تثمر ولا تغنى من جوع، وبذلك تقوم بدور (تنفيسى) تفرغ فيه طاقات التغيير، ليستقر ماهو قائم على ما هو عليه ...

افتح صفحات أية صحيفة رسمية، من صحفنا اليومية، سوف تجد موضوعاتها تدور حول :

- فتح كذا .. وكذا من المشروعات الهامة الحيوية ..

---

* الشعب فى ١٩٩١/٥/١

- زيادة كبيرة فى ..
- تخصيص مبلغ .. لإنشاء ..
- كميات كبيرة من ... تغمر الأسواق ..

ثم اقفل صفحات الجريدة وانزل إلى الشارع، وصافح بعينيك هذا الموقع أو ذاك، سوف تجد أنك قد انتقلت الى مجتمع آخر غير هذا الذى قرأت عنه فى صحيفة مصرية !!

وقس على ذلك أمورا كثيرة ومجالات متعددة، حتى وَقَر فى الأذهان أننا نعيش عالمين : عالم رسمى لايعبر عن الحقيقة، وعالم شعبى هو المطابق للحقيقة، مع ادعاء أصحاب العالم الأول أنهم يعبرون عن العالم الثانى، فكأن المجتمع المصرى يتعايش مع أكذوبة اجتماعية ووهم تاريخى !! حتى فى دنيا الأحزاب، اذهب إلى مختلف المواقع الرسمية، فسوف تجد الجميع، فى الغالب، أصحاب انتماء حزبى، فإذا سألت عن الحزب الذى ينتمى إليه هذا المسؤل أو ذاك، فسوف تجد أنه - دائما - الحزب الوطنى الديموقراطى !!

ثم انزل بعد ذلك إلى أى موقع شعبى : قرية، كفر، حارة، سوق .. الخ واسأل أفراد الناس : شبابا وشابات، كبارا وصغارا، موظفين وتجار .. الخ عن انتمائهم الحزبى، فلن تجد غالبا - أحدا له انتماء حزبى، فكأن هناك حزبا رسميا حكوميا، يعيش فى أجهزة السلطة، لكن لا أثر له ولا ظل فى أى وجدان شعبى .

لكنك لو جلست لتتبادل أطراف الحديث مع جماهير الناس فى مسائل سياسية، فمن المرجح أنك سوف تجد لمتحدثك (موقفا) أو (اتجاها) ما ، تستطيع بكل سهولة ويسر أن تصنفه سياسيا، دون أن تجد فى الأوعية الحزبية القائمة ما يستوعبه .

ومن المرجح أنك ستجد من تتحدث إليه، واحدا من ثلاثة : فهو إما ناصرى، أو من الجماعات الاسلامية، أو ماركسى . إنها التيارات الثلاثة المتواجدة فعلا فى الشارع السياسى المصرى، ومن عجب، فهى التيارات التى لاتنظيم رسمى خاص بكل منها .

والغريب الذى يلفت الأنظار حقا، هو شبابية التيارين الأول والثانى :

فها قد مرت على وفاة عبد الناصر مايقرب من واحد وعشرين عاما، أى أن الجمهرة الكبرى من شباب اليوم، لم تكن قد التحقت بالمدرسة بعد فى حياته، ومن ثم لم يعايشوا التجربة وخاصة فى سنوات مجدها وازدهارها. وإذا كان بعضهم قد أدرك بعض سنواتها الأخيرة، فإن هذه السنوات، كانت سنوات تآمر عليها بالخصار والضرب، بلغ ذروته عام ١٩٦٧.

كيف تأتى إذن أن تجد الآلاف من الشباب يهتفون اليوم لعبد الناصر وللمبادئ التى

نادى بها؟ إنهم يقارنون بين أمس واليوم، فيجدون أن مصر فى الحقبة الناصرية، كانت تملك (مشروعا حضاريا) متكاملا تتجه إليه بكل طاقاتها وأجهزتها، فإذا ماتساءلوا اليوم : من نحن؟ وماذا نريد؟ لايجدون إجابة تمثل توجها عاما، بل سوف يجدون (كما) من الإجابات المتباينة المتناقضة .

إنهم يجدون أن القيادة المصرية، كانت تقف بالمرصاد لقوى البغى والإمبريالية العالمية تتحداها، بل وتدخل معها فى معارك طاحنة لا تنتهى، ثم ينظرون اليوم، فإذا بهم يجدون بلدهم (مصر) تتحالف مع الولايات المتحدة الامريكية وانجلترا وفرنسا، ويتم تنسيق، وتعاون وترتيب!! إنهم يجدون معارك مستمرة كانت تخوضها مصر ضد عدوها الرئيسى، بل عدو الأمة العربية، والشعوب الاسلامية، ألا وهو الصهيونية، ثم إذا بهم اليوم يجدون أن إسرائيل قد باتت قاب قوسين أو أدنى من أن تكون حقيقة مقبولة، لابد من حسن التعامل معها، وتكون مصر هى الرائدة والممهدة الطريق إلى ذلك !!

إنهم يجدون مصر، تثير وتساند - فى الحقبة الناصرية - بلدانا عربية فى حربها ضد قوى الاستعمار، ثم يرون، منذ وقت قريب، البلدان العربية الاسلامية يحارب بعضها بعضا، ومصر بلا قوة ضغط، فلا تجد أمامها إلا الفرجة و(مناشدة الأطراف أن يتعقلوا) ، فلما أرادت أن تتخذ موقفا، إذا بنا نصل الى مأساة العمر، فيحارب مصريون عربا تحت قيادة أمريكية !!

وأمثلة اخرى كثيرة، كلها تفسر لماذا هذا الحماس السارى بين الشباب الذين يشكلون إضافة ضخمة للتيار الناصرى تعبر عن وجود حقيقى فى الشارع السياسى ..

ومنذ عام ١٩٤٨، وجماعة الإخوان المسلمين تدخل فى مجابهة مع السلطة بين حين وآخر، وتتلقى ضربات، لا أقول (موجعة)، وإنما (قاتلة)، وكثيرا ما جمعت كتبهم من السوق وصودرت، وكم اندفعت أجهزة إعلام كثيرة تهاجمهم وتحاول تشويه صورتهم، مما كان من شأنه أن يحول هذه الجماعة إلى (ذكرى تاريخية)، ومع ذلك فهى تخرج من كل محنة على حال تكون فيها أقوى مما كانت عليه .

وإذا كانت قيادات الإخوان الأولى قد انتقل بعضها إلى رحمة الله، وهاجر بعضها الآخر واستقر فى بلد المهجر، وبلغ بعض ثالث من العمر عتيا مما لايتيح له المشاركة فى العمل السياسى بفاعلية ، إلا أن الجماعة (أفرخت) عددا آخر من الجماعات التى أصبحت تنظر إلى الجماعة الأم كقوة اعتدال غير مطلوب، وذهبت إلى آماد بعيدة فى العنف والغلو، وانتشر هذا بين الشباب وخاصة فى الجامعات بدرجة لا تخطئها عين .

وإذا كانت (الشدة) التى واجهتها جماعة الإخوان لها دور فى ذلك، فإن شباب اليوم يشير بإصبع الاتهام إلى مظاهر كثيرة يصعب حصرها من الفساد الخلقى والخلل العام فى النظام القيمى والتحلل فى الروابط الاجتماعية، وشدة غزو العناصر المدمرة من الحضارة الغربية فى قطاعات كبيرة من حياتنا . كما أنهم يشيرون كذلك إلى أن الواقع الحالى بكل مافيه، إن هو الا نتاج تجربة نماذج متعددة، ومن ثم يتساءلون، فلماذا لا نتيح الفرصة للنموذج الإسلامى للتطبيق ؟

صحيح أن حزب العمل قد تحول إلى هذا الاتجاه، لكن الشواهد تؤكد أن الإسلاميين الإخوان، لا يميلون إلى الاندماج فى حزب آخر ويفضلون الاحتفاظ بكيانهم.

وقد يذهب البعض إلى أن الماركسيين لهم حزب رسمى هو (التجمع)، وفى هذا بعض الحق، لا الحق كله، فمن المفروض أن التجمع ليس حزبا ماركسيا، والماركسيون فيه، هم مجرد (فصيل) ضمن فصائل أخرى، لكن الملاحظ أن الماركسيين الذين قبلوا صيغة التجمع نسبتهم قليلة بحيث يصعب القول بأنهم يمثلون الوزن الحقيقى لهذا التيار فى المجتمع المصرى، خاصة إذا لاحظنا كذلك ظاهرة تبنى فئات غير قليلة للمنهج الماركسى فى التعامل مع الظاهرة الاجتماعية، دون أن تلمس لديهم حرصا على الانخراط فى (تنظيم) علنى أو سرى مفرقين بذلك بين الماركسية كمنهج فكرى وبين (الشيوعية) التى يرون أنها تعنى الانغماس فى العمل السياسى من المنظور الماركسى للوصول الى الحكم .

وقد يرى البعض أن عدم انخراط لماركسيين فى التجمع إنما هو مظهر من مظاهر السلبية الشائعة فى مصر نتيجة فقد الثقة فى النظام الحاكم . وإذا كان من العسير إنكار هذه السلبية، إلا أنها بالنسبة لهذا الفريق بالذات غير محتملة، فهو فريق مشهور بالجرأة والتضحية والنضال، ومَنْ شأنُه هذا، لايركن إلى السلبية، ومن ثم فلا يكون أمامنا تفسير إلا أنه يريد وعاء صريحا تتوفر له ضمانات الحركة والتعبير عن كل ما يؤمن به دون ماحاجة إلى أساليب اخرى غير مباشرة .

وهكذا تفتقد الحياة المصرية إلى أحزاب ثلاثة : حزب ناصرى، وثانى إسلامى، و ثالث شيوعى.

إنها الحياة الثنائية التى نحياها فى مصر، تلك التى تجعل المواطن أمام صورة رسمية لاتعبر عن نبض الواقع الاجتماعى، وصورة شعبية تحفل بالحيوية والصدق، لكن لايعترف بها، وإن كانت هى المستوعبة لعقول المصريين وقلوبهم .

... وأحزاب تبحث عن جماهير* !!

فى الوقت الذى يموج فيه **الشارع المصرى** بمئات الألوف من الجماهير التى ينتمى بعضها إلى التيار الاسلامى وبعضها الآخر إلى التيار الناصرى، وبعضها الآخير الى التيار الماركسى، باحثة عن تنظيم حزبى خاص بكل منها، فلا تجد، تمتلئ **الجدران المصرية** بلافتات أحزاب بلا جماهير !!

إنها إحدى فوازير السياسة المصرية ونحن على أبواب القرن الحادى والعشرين، وإحدى العجائب المصرية فى القرن العشرين ..

لقد ترك حكامنا الفراعنة لنا أعجوبة الأهرام وأبا الهول، أفلا يقدم حكام اليوم لنا أعجوبة (عصرية) تستحق التأمل والتفكير؟!

إن الحزب السياسى (تنظيم) . والتنظيم، تنظيم لشئ .. لموضوع، هو غالبا (نشاط إنسانى)، قوامه : قوة بشرية + أهداف تسعى اليها + عمل . وفكرة التنظيم لا تظهر عادة إلا عند تزايد القوة البشرية وتزايد ما تقوم به من أعمال، وعند اشتداد صراع المصالح .. وهكذا، مثلا، عندما وجد (عمال) بريطانيا أن لهم مصالح لابد من السعى لتحقيقها والحفاظ على مايتحقق منها والوقوف ضد (غول) الرأسمالية العاتية، وأن التنظيم النقابى وحده لايكفى حيث الحاجة إلى امتلاك سلطة سياسية تملك قوة القانون وقوة التشريع وقوة السلاح وقوة المال، وأن أعدادهم قد تضخمت بدرجة كاسحة، كان لابد أن يستحدثوا تنظيما سياسيا يسعى، بالطرق الديموقراطية، إلى أن يحقق أهدافهم .

ومن مفردات الأعجوبة السياسية المصرية، أننا نجد فى الربع الاول من القرن العشرين مثل هذا «المنطق» فى ظهور الأحزاب، ثم نفتقده بعد ذلك ونحن نودع هذا القرن، وعلى سبيل المثال، فقد أنشأ مصطفى كامل جريدة (اللواء) سنة ١٩٠٠ لتكون ساحة لبث الفكر الوطنى الساعى إلى التخلص من الاحتلال البريطانى، وإذا بالجريدة تكتسب أعدادا غفيرة من المصريين يتزايدون عاما بعد عام، وبعد ذلك بسبع سنوات أى سنة ١٩٠٧، أعلن مصطفى كامل عن تأسيس الحزب الوطنى ليكون وعاء تنظيميا سياسا لآلاف من الجماهير التى تتبنى اتجاها بعينه له تواجده الفعلى فى الساحة المصرية .

---

* الشعب فى ١٩٩١/٥/١٥

وعلى الجانب الآخر، فإن الرأسمالية المصرية الوليدة، والتى ظهرت على مسرح الحياة المصرية فى قطاعها الزراعى بصفة خاصة وأصبحت تشكل قوة اجتماعية ملموسة نتيجة سلسلة إجراءات متعددة منذ عهد إسماعيل، أنشأت أولا صحيفة (الجريدة) في ٩ مارس عام ١٩٠٧ لتعبر عن اتجاه مغاير كثيرا لذلك الذى يمثله الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل. قامت الجريدة أولا تعلن فكرة هذه الفئة الرأسمالية وتتحسس جماهيرها عن طريق صفوة فكرية تملك مهارات المناقشة والإقناع وحسن العرض بزعامة أحمد لطفى السيد ، وبعدها بشهور قليلة، فى ١٩٠٧/٩/٢١ يعلنون عن قيام حزب (الأمة) معبرا عن مصالحهم.

ولعل أشد الصور وضوحا فى هذا الشأن، نشأة حزب الوفد نفسه، فلقد بدأت المسألة بحركة ضخمة بين مختلف الجماهير عام ١٩١٨ للتوقيع على صيغة (توكيل) شعبى لمجموعة من الزعماء ليشكلوا (وفدا) للمطالبة بحقوق مصر أمام المؤتمر الدولى بباريس الذى انعقد لترتيب الأوضاع عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى، ثم إذا بهذه الحركة تتبلور فيما بعد فى حزب سياسى باسم (الوفد) بزعامة سعد زغلول، بعد تساقط عدد من الزعماء الذين عجزوا عن السير على طريق نضال شعبى وطنى حقيقى .

ومنذ منتصف السبعينات، كانت الخطوات واضحة فى اتجاه (الخصخصة) الاقتصادية بما عرف بسياسة الانفتاح، ولم يكن يتسق مع ذلك أن تظل الحياة السياسية فى قبضة تنظيم سياسى واحد، واقتضى المنطق أن يواكب التعددية الاقتصادية، تعددية أخرى سياسية، فكان لابد من الإعلان عن إمكان قيام أحزاب سياسية .

لكن المسيرة الاقتصادية لم تكن فى الحقيقة تطورا طبيعيا فى التاريخ المصرى مفرزا رأسمالية وطنية مصرية مثلما حدث فى أوربا، بقدر ما كانت توجيها رأسماليا استعماريا لزرع (توكيلات) لها فى مصر تحركها كى تصب عائد ما تجنى فى جيوبها هى . إن الرأسمالية الأوربية نتيجة ظهورها كمرحلة تطور طبيعى فى صراعها ضد الإقطاع، كانت لها آثارها الإيجابية فى مجتمعاتها بحكم (وطنيتها) ، لا ينبغى إنكارها مهما كان الموقف الفكرى من هذه الرأسمالية . وكان ظهور التعدد السياسى المتمثل فى الأحزاب، متسقا تمام الاتساق مع هذا التعدد الاقتصادى .

لقد كان من الضرورى المحافظة على ربط السوق المصرى والسياسة المصرية بعجلة الاحتكار العالمى ومن هنا كان من الطبيعى أن يظل منطق الاحتكار السياسى قائما حتى لا يفلت الزمام وتسير الأمور فى اتجاه يضر بالمصالح الرأسمالية العالمية . ومع ذلك فلم يكن

هناك مانع من الالتزام (بالشكل) بأن توجد (تنظيمات) سياسية شكلية لافاعلية لها من باب (لزوم مالا يلزم) .

وإذا كانت أحزاب التجمع والعمل والوفد والأحرار لها ظروفها مما نرجو أن نناقشها فى مقال قادم، فان الأمور سارت وفق هذا المنطق الذى نقول، اذ فُصل قانون خاصّ، لايسمح إلا بظهور الأحزاب التى لا خطورة منها على احتكار النظام القائم، فالجهة التى تقرر السماح بإنشاء الحزب أو عدمه، هى جهة يملكها النظام نفسه، ومن هنا ، فاذا قدم إليه طلب يعبر عن حاجة جماهير غفيرة بالفعل لتشكيل حزب سياسى، فإن عشرات العراقيل توضع ويرفض، والفلاسفة المبررون جاهزون بمذكراتهم التفسيرية ومقالاتهم التبريرية، وكرابيج الكتاب الموظفين مرفوعة لتهوى على الظهور حال صدور الأوامر لها بذلك .

لكن، إذا تقدم هذا أو ذاك بطلب تكوين حزب موفرا شرط هذا العدد الذى لا يجاوز أصابع الانسان، دون جذور تمتد فى أرض الشارع المصرى، فأهلا به وسهلا، والفلاسفة جاهزون بمذكراتهم التفسيرية ومقالاتهم التبريرية، وأحضان الكتاب الموظفين مفتوحة للترحيب والتهنئة !!

ومن هنا فلا بأس من قيام حزب مثل (الأمة) و (الاتحاد الديموقراطى) و (مصر الفتاة) يمكن أن تفيد فى (التغطية)، فيدعون إلى اجتماعات واحتفالات، وغير ذلك، لتصح الدعوى بأن هناك (مشاورة) مع الرأى الآخر، وانفتاحا على المعارضة.

إنها صورة أخرى من صور الثنائية التى فرضت على الحياة المصرية، حيث يتسع الأخدود بين الفكر والواقع، فيبطل مفعول الفكر فى تحريك الواقع وتغييره، ذلك أن الفكر إذا كان إفرازا لواقع بعينه، فإنه من ناحية أخرى يمكن عن طريق الطلائع الواعية المستنيرة، أن تجعله يقوم بدور آخر لايكتفى فيه بأن يكون مجرد مرآة عاكسة، وإنما قوة قائدة، إن مثل هذه المفارقة المتزايدة بين الفكر والواقع تفقد الواقع قابلية التغير، كما تفقد الفكر فاعلية التغيير، والقدرة عليه، ليستمر التخلف ويدوم الهوان .

احزاب محاصرة* !!

إذا كانت الظروف يمكن أن تتيح الفرصة لرأى أن يكون حاكما، فإن وجود رأى آخر مخالف، هو أمر تقتضيه الفطرة البشرية. والإجماع الفكرى مستحيل، إلا فى بعض المواقف نادرة الحدوث، ووقتية الوقوع. لكن العقل الفرعونى لايستسيغ هذا المنطق، ويأبى إلا أن يخالف الطبيعة فيزعم فى فكره هو الصواب الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه هو وحده الذى يدرك الحقيقة من جميع أطرافها . فإذا ما ظهر من يقول بغير ذلك، يصبح خائنا ويتهم - عادة - بالعمالة .

فلما أن اقتضى منطق النهج الليبرالى فى العمل الاقتصادى الاعتراف بحتمية وجود الرأى الآخر فى مجال العمل السياسى فى مصر السبعينات، كان لابد أن يجئ هذا الاعتراف بطريقة فرعونية !! .. أن يجئ بقرار من فرعون مصر الحاكم .

لقد (قرر) الحاكم أنه (رأى) أن يكون بمصر ثلاثة أوعية حزبية تمثل التقسيم الشهير إلى يمين ووسط ويسار، فظهر حزب الأحرار ممثلا لليمين، والتجمع لليسار، ومصر (الوطنى) للوسط .

ويأبى العقل الفرعونى إلا أن يمارس هوايته، فيقرر أن يضع هو (النهج) الذى يسير فيه الرأى الآخر فيما عرف بقانون الأحزاب، حتى لايفلت واحد من أصحاب الرأى الآخر المنتظمين فى تنظيم حزبى ويفكر ويعبر ويتحرك بما قد يؤدى إلى تهديد احتكار الحكم .

إن من المعروف أن فلسفة تكوين الأحزاب تقوم على سعى الحزب، من خلال أنشطته المتعددة إلى الوصول إلى السلطة لتنفيذ برامجه، ولايتأتى هذا إلا بمزيد من الالتحام بالجماهير بوسائله وأساليبه الديموقراطية المعروفة، ومع ذلك فقد اقتضى العقل الفرعونى أن (يحجم) حركة الأحزاب تحجيما خطيرا يشل قدراتها ويبطل فاعلياتها لتظل أشبه بديكور للنظام السياسى ! ولم يكن حزب الأحرار يمثل خطورة واضحة على النظام الذى استطاع منذ البداية أن (يسيس) الحزب حتى لقد شاع مصطلح (المعارضة المستأنسة) فى ذلك الوقت، هذا فضلا عن أن ماعبر عنه هذا الحزب إن هو فى حقيقة الأمر إلا نفس مايسعى النظام إليه دون أن يصرح وقتها بذلك، ولعل التوجهات الحالية نحو (الخصخصة) تؤكد ذلك .

---

* الأهالى فى ١٩٩١/٦/٥

ثم سرعان ما وجدت الجماهير ذات التوجه اليمينى الوعاء الأنسب عندما شهدت الساحة ظهور حزب جديد جاء لا بقرار من الحاكم ولكن من القضاء، فتدب الحياة فى حزب الوفد صاحب التاريخ المشهور والمعروف على المستوى الشعبى قبل عام ١٩٥٢، وترتعد فرائص النظام الحاكم . وهنا تبدأ حملة ضارية من الهجوم على الوفد من حيث التباين الشديد بين الوفد وثورة ٢٣ يوليو، وارتباط الحزب بما شهدته مصر قبل الثورة، مع أن التحليل السياسى لوقائع السبعينات يكشف عن توجّه النظام الحاكم للسير عكس فلسفة الثورة وتوجهاتها مما يجعل حزبه هو الأحق باللوم والتقريع لأنه بتوجهه، إنما يخون الأمانة ويضيع الرسالة، أما حزب الوفد، فقد كان أمينا لنهجه منذ البداية. ثم أن فساد فترة ماقبل ٥٢ لا يعنى بالضرورة الحكم بالاعدام على كل من مارس العمل السياسى فى ظلها . وإذا كان الانسان سيئا فى فترة من الفترات، فإن هذا لا يعنى أن يظل طوال العمر كذلك، فما المانع منطقيا أن يصحح مسيرته ويصوب نهجه إذا ثبت أن ثمة خطأ فى هذه المسيرة أو هذا النهج؟

وعندما تم تحالف بين الوفد والإخوان المسلمين فى انتخابات ٨٤، استعرت حمى الهجوم على الوفد، إذ كيف لحزب (علمانى) أن يتحالف مع أصحاب النهج الدينى؟! ويسرع البعض إلى أوراق قديمة ليعيد نشر صور الخصومة القديمة بين الوفد والإخوان، وكانت شدة الهجوم تعبر عن خوف وفزع النظام الحاكم، فالوفد والإخوان بالفعل كانا قبل الثورة هما المستحوذان على الكم الأكبر من الجماهير. وفضلا عن ذلك، فلم يكن هذا الهجوم منطقيا من الناحية السياسية، فإذا كانت جماعتان قد تعاديتا منذ أكثر من أربعين سنة، فما الذى يمنع أن تنتهى هذه الخصومة بعد ذلك خاصة وأن صورة التعاون الجديدة لم تقرر إذابة الفواصل والحدود المذهبية بين الجماعتين ، وحصر التعاون فى الموقف الانتخابى وحده ؟ إنه لمنطق مشروع فى كثير من المعارك الانتخابية فى كثير من المجتمعات أن تتم تحالفات بين متعارضى المبادئ دون أن يعني ذلك (خيانة) و(ردة) . والحق أن حزب الحكومة قد أضر بنفسه من حيث لايدرى لأن هذا الهجوم الضارى قد كشف إحساسا واضحا بأن العواطف الجماهيرية قد تتجه إليهما لولا تلك الأساليب المعروفة التى تجعل الانتخابات تنتهى دائما بفوز الجماعة الحاكمة فى بلادنا .

ولأن حزب التجمع كان هو الأقرب فى النهج والممارسة والفلسفة إلى ثورة يوليو، فقد شكل هو الآخر تهديدا خطيرا على النظام الحاكم الذى - بالسلطة وحدها - ورث نظام يوليو، نظرا لما أشرنا إليه من تحول الحكم عن فلسفة يوليو، ومن هنا بدأت حملة شرسة (لتلويث) التجمع اتسمت بكثير مما هو شائن ومخجل فى نهج الصراع السياسى .

لم تطرح أفكار التجمع للمناقشة والمعارضة والتفنيد لبيان ما قد يكون بها من أخطاء وأضرار على حاضر البلاد ومستقبلها، وإنما فقط التكثيف والتركيز على أن التجمع (شيوعى) وأنه (ملحد)، والشيوعية نظام به العديد من الأفكار، والفكرة الدينية إنما هى واحدة من كثير، ومع ذلك، فخبث الحملة يستغل ماهو شائع بين الجماهير المصرية من تعلق بالدين ليرمى التجمع بالإلحاد، مع أن تكوينه من البداية يعلن أنه تجمع لتيارات منها ما هو ماركسى وما هو قومى وما هو ناصرى، وهو بحكم قانون الأحزاب لابد أن يلتزم (بالسلام الاجتماعى)، ولايضاد عقائد الأمة . ومازلت أذكر تلك القوائم المستمرة التى كانت إحدى الصحف اليومية الكبرى تنشرها لأناس تزعم أنهم انسحبوا من الحزب بسبب (شيوعيته) ليصبح هذا المسلك نموذجا وإرهابا لكل من تسوله نفسه الانضمام أو الاستمرار فى الحزب، ولابد من الاعتراف بأن هذه الحملة كانت لها آثارها فى صرف الكثيرين عنه .

ولأن الصحيفة الحزبية هى المتنفس الأساسى لفكر الحزب، فقد تعرضت هى الأخرى إلى حملة مصادرة مستمرة كان لابد أن تسبب إنهاكا وفقدا وهدرا للطاقة وصرفا لجماهر أخرى كان يحتمل أن تقتنع بما تكتب وتقول .

وإذا كان ظهور الوفد قد أشاع الفزع فى الحزب الحاكم، فقد كان لابد أن يعيد الحاكم حساباته، فإذا به (يقرر) إنهاء حزب معارض آخر (!!) هو حزب العمل ليكون معارضة مستأنسة بعد أن ضعف الأحرار وأصبح شبحا، وحرص النظام على أن يجئ الحزب الجديد بزعامة إبراهيم شكرى، امتدادا لمصر الفتاة، صاحب الرصيد الوطنى فى النضال ، ثم إذا بالحسابات تجئ على غير هوى الحاكم فيتمرد الحزب على النظام ويعارضه معارضة حقيقية، بل وتتحول جريدة الشعب فى الفترة السابقة على هجمة سبتمبر ٨١ بصفة خاصة إلى ساحة تجمع العديد من الأقلام المناضلة العنيفة التى عرّت الكثير من مساوئ النظام .

وعلى الرغم من معارضة العمل للنظام الحاكم إلا أنه لم يشكل خطورة كبيرة مما جعل الهجوم عليه قليلا، حتى إذا بدأ الجناح الإسلامى فيه يتسيد ويتم تنسيق وتحالف بينه وبين الإخوان المسلمين، يصبح العمل ذا خطورة كبيرة فتشتد ضراوة الهجوم هذه المرة يصبح أشد حدة مما حدث عندما تحالف الوفد والإخوان، فالتحالف السابق عام ٨٤ كان (وقتيا) ومرهونا بالانتخابات، أما الآخر فلم يقف عند حد انتخابات ٨٧، وإنما امتد ليغير من هوية العمل نفسه، فاذا بانشقاق يشق صفوف الحزب، تظهر فيه أصابع النظام . ثم تجئ حرب الخليج ليقدم العمل بنفسه فرصة ذهبية للنظام الحاكم فى هجومه على الحزب عندما ساند مساندة واضحة

نظام صدام الفاشى . ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه القضية، ولكن أيا كانت أسانيد العمل، وأيا كانت الشوائب التى شابت تصرف النظام المصرى فى المسألة، إلا أن جماهير عدة لم تستغ أبدا أن يلتهم صدام دولة عربية أخرى مهما كانت تصرفاتها الداخلية، ولم تستغ جماهير عدة مساندة نظام دموى مهما ادعى من شعارات هى فى الحقيقة (قولة حق يراد بها باطل) .

ويستطيع القارى أن يتأمل فى مظهر واحد من مظاهر الحصار الحكومى لأنشطة الأحزاب المعبرة عن الرأى الآخر، وهو أجهزة الإعلام، وخاصة أنها ذات كم فى ساعات البث التلفزيونى والاذاعى، يتجاوز المئات ويجعل منها ذات انتشار واسع بحيث لايكاد مواطن أن يستطيع الإفلات من التأثر بها، فهذه الأحزاب ممنوعة منعا باتا منها، ونفس الشئ مع الصحف الكبرى حيث تفسر (قوميتها) بألا تكون ساحة للأحزاب، والأحزاب المعنية هنا هى أحزاب المعارضة، أما حزب الحكومة، فهو وحده صاحب الحق فى ذلك .

ثم يجئ قانون الطوارئ لمنع هذه الأحزاب من عقد اللقاءات الشعبية، التى هى قناة أساسية للإلتقاء بالجماهير ونشر فكرها بينها .

كذلك، فلنتأمل فى كافة المناصب القيادية العليا، فرؤساء جامعات .. محافظون .. مديرو المؤسسات الكبرى، وماشابه، هل يمكن أن يكون واحدا من هؤلاء من حزب العمل أو الوفد أو التجمع ؟ إنها أحزاب، وإن حملت الرأى الاخر، إلا أنها محاصرة ليظل رأى واحد هو الحاكم وليظل تنظيم واحد له السيطرة هو (الوطنى) (الديموقراطى) !!

«أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون»* ؟

ها قد أوشك الشهر الخامس أن يمر على ما اصطلح على تسميته بأزمة الخليج، ولم تبد بعد فى الأفق أية مؤشرات قرب انتهائها ..

وطوال هذه الأشهر، سالت أودية الصحف والمجلات، فضلا عن الإذاعات والتلفزيون، بكم من الكتابات والأحاديث والتعليقات التى لم تحظ بمثلها قضية معاصرة، بما كان لها من قوة استقطاب الاهتمام ، حتى أصبح كل ما يمكن أن يقال قد قيل، وبدأ الملل يتسرب إلى النفوس من سماع أو رؤية أو قراءة ما يتعلق بها .

وطوال هذه الفترة، حاولت المرة تلو الأخرى أن أمسك بالقلم كاتبا، فاذا بالكتابة عصية على القلم .

وإذا بالقلم لايتجاوز النقطة التى بدأ بها حتى كدت أتصور أن معين الفكر قد نضب . وزاد من أزمتى الشخصية يقينى بمقولة أنه إذا لم يكن هناك جديد يمكن أن يقال، فلا قيمة لما أكتب ولا ضرورة لما أقول .

لكن الحق الذى تغلب فى النهايـة، أنه إذا لم يكن هناك الجديد الذى يقـــال، إلا أن هناك - والحمدلله - وعيا بأن الكلمة مسئولية، ومن مظاهر هذه المسئولية، الأمانة فى تسجيل المواقف .

وإذا كان تسجيل المواقف يتضمن تحديد : مع من تقف وضد من ؟ برزت المعضلة أمامى دون ادعاء أو تمويه : الخيوط متشابكة ، والأوراق مختلطة، والحابل قد اختلط بالنابل، حتى أصبح عسيرا على مثلى ممن يقفون على رصيف الشارع السياسى أن يتبينوا الخيط الأبيض من الخيط الأسود !!

الكويت، دولة صغيرة مسالمة ... سوق كبير فاض بحركة عمل ونشاط تجارى أفاء على كثيرين بكم ضخم من المال ... ساحة واسعة تلألأت بأنوار فكر وثقافة تباينت فيها التيارات والاتجاهات والآراء لتضيف إلى رصيد الثقافة العربية الكثير فتنمو وتزدهر وتتطور، يغدر بها جار غرته قوته ليلتهمها ليلا بحجج تافهة، فإذا بكل هذه الأنوار تطفأ ليحيط ظلام دمس، وإذا بهذا الخير العميم الذى كان يملأ البيوت عمارا يملؤها خرابا .

ويأتيك القول بأن الكم الاكبر من الثروة الصادرة من هذه المنطقة إنما ينفق بسفه وتبذير،

---

* الشعب فى ١٩٩١/١/١

ومعظم ثروات مشايخ الخليج هى فى بنوك تضخ كل يوم فى دماء الجسم الغربى لتمده بأسباب القوة، وهناك مئات الألوف من العرب الصوماليين والسودانيين يموتون جوعا .

وهى مقولة حقيقية بكل الأسف وبكل الأسى، ولكن، على الفور، تبرز حكمة السيد المسيح: من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بحجر !!

فتش فى كل بلد عربى، مهما كانت ثروته، هى أيضا مأسورة فى أيدى قلة تتحكم وتستغل، وكثرة، إن لم تتضور جوعا، فهى تقع فى أسر فقر يفتح عليها أبواب جهنم من تخلل القيم وتدهور الأخلاقيات وخلل المعايير، حتى البلدان الفقيرة العربية، سيقت مقدراتها إلى أن أصبحت مكبلة بديون فلكية نتيجتها أن عائد الانتاج، دائما يصب فى الخارج !!

ثم إن ما يقال عن ثروات الخليج وكيفية توزيعها حاليا وكيفية إنفاقها، تستطيع، إذا أثبتنا إحصاء نرتب بناء عليه دول المنطقة، أن نجد أن العراق نفسه يحتل المقدمة : سوء توزيع وسفه إنفاق واحتكار ثروة !! ووفق أى منطق تتخذ دولة من نفسها قيما على الآخرين إن لم يسلكوا وفق ماترى، تكون النتيجة الغزو والضم والقهر ؟

وتبرز النتيجة : لابد من ردع الغاصب المعتدى . إن الردع الآن ليس محدود المكان والآثار .. لن يختص نظاما حاكما باغيا فى العراق، ولكنه سيدمر العراق نفسه، والعراق ليس صدام حسين، وإنما هو ملايين من المواطنين العرب، وطاقات عربية، أى سحق لها إنما هو خصم من الرصيد العربى يصعب تعويضه على المدى القريب .

ومن الذى جاء ليقوم بواجب الردع والتصدى ؟ أمريكا وحلفاؤها؟؟ عدونا الأول، ومصدر كل مصائبنا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية وحتى الآن ! ولو سبح العقل فى المستقبل متصورا ماذا ستكون عليه حال العلاقة بين أمريكا ودول المنطقة إذا تمكنت من ردع الغاصب المعتدى، لبرز ماتقشعر له الأبدان .. ستبدأ فترة هيمنة لا مثيل لها فى سطوة أمريكا وفى خنوع العرب وخاصة دول الخليج نفسها التى ستشعر أنها مدينة باستمرار وجودها إلى أمريكا، وبالتالى نكون قد أنقذنا دولة من براثن جار عربى لنقع، جميعا، فى براثن من هو أشد سطوة واستغلالا، أما كان الاجدى بالعرب أنفسهم أن يبادروا بواجب الحماية والردع ؟

إنهم متفرقون .. ممزقون .. بطيئوا الاستجابة .. اجتمعوا بعد وقوع الغزو بأسبوع، وكان يجب أن يجتمعوا بعده بيوم أو بيومين .. اجتمعوا بعد أن استدعيت القوات الأمريكية حتى أصبح ذهاب قواتنا بعد ذلك يشكل لنا حرجا تاريخيا وقوميا : وقفنا فى خندق واحد مع الأمريكان كى يجاور الجندى المصرى جنديا أمريكيا ويواجهان معا جنديا عربيا يسعيان إلى تدميره !!

وانظر إلى إعلام كل بلد عربى، سوف تجد الاتجاه الغالب هو مجموعة أقلام ترقص على نغمات الدف الذى يضرب به النظام الحاكم، لا كمظهر وحدة فى الرأى العام، وإنما هو نتيجة مأساوية لما يقوم به كل نظام عربى حاكم من غسيل مخ للمواطنين، وإدارة آلة الإعلام الجهنمية الضخمة لتذيع ليل نهار وتردد وجهة نظر النظام بصور وأساليب أكثر من أن تعد أو تحصى، حتى يجد المواطن نفسه وقد تشكل فكره وزيف عقله، فإذا به يفكر كما يراد له أن يفكر، وإذا به يرى مايراد له أن يرى . فإذا أنقذ الله عقل هذا أو ذاك من المواطنين من الذوبان فى هذا الطوفان، كان من السهل اتهامه بالخروج على الإجماع الشعبى، وكان من اليسير دمغه بالمروق والعصيان، فضلا عن سلسلة أخرى من الاتهام بالعمالة والخيانة .

احتكار الثروة، ليس إذن هو الصورة الوحيدة للاحتكار فى مجتمعاتنا العربية، وإنما هناك أيضا احتكار الرأى والسلطة .. ساقان يقف عليهما الواقع العربى المعاصر المخزى، ولن يخرج العرب من القرن العشرين ليستقبلوا القرن الحادى والعشرين أمة تستحق ولو بعض الاحترام، إلا إذا انتهى عصر الاحتكار هذا ... احتكار الثروة واحتكار السلطة، ولن يتأتى هذا أبدا على يد (صدام)، فهو من أبشع النماذج التاريخية على هذا الاحتكار والدموية، حتى ولو ملأ الدنيا تصريحات وأقاويل بغير ذلك .

ولن يتأتى هذا أبدا على يد الولايات المتحدة الامريكية، فمصلحتها إنما هىّ تكثيف هذا الاحتكار وتعميق الاستغلال، وهى إن بدت على السطح تواجه سطوة الغزو والتدمير والسلب، فلأن (خروجا عن النص) قد تمّ ... إنها الجماهير العربية وحدها ... إنها تملك القوة، لكنها لا تريد أن تستخدمها .

إن أشار المثبطون للهمم إلى أبواب السجون والمشانق والسيوف فى يد الجلادين، فإننا نشير لهم إلى حكام رومانيا وألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا، كانوا أشد سطوة، لكن شعوبها عندما أرادت، كان لها ما تريد :

«أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون» ؟ الأعراف / ٩٨

مرثية عرب .. فى قاع الزمن* !!

يمثل هذا العام المنقضى ١٩٩١، بالنسبة للأمة العربية، جزءا من مرحلة يمكن أن نسميها، دون ما مبالغة فى التشبيه، (قاع الزمن)، والقاع هو أكثر المواضع انخفاضا كما هو معلوم ومعروف، عليه أن يتلقى، دون أن يتلقى هو أو يرد، وفيه قد تترسب الشوائب والعوالق ..

ليست هذه (مرثية) نودع بها عاما، ولكنها «نفثة مصدور»، أحاول بها أن أخفف عن صدرى ما تكاكأ عليه من أحجار ثقال : الله وحده يعلم، هل يعد الصبر على احتمالها بطولة مثل بطولة المعذبين فى الأرض ؟ أم أن هذا الاحتمال إنما هو دليل تعود على المذلة والهوان ؟ فى مستهل هذا العام النكد، انطلقت قوى البغى لتدمر أكبر قوة عربية، فى العراق الجريح ، بمباركة منا وتهليل. كان ما فعله العراق بالكويت - فى رأيى الشخصى - خطأ، لكننا، فى سبيل معالجة هذا الخطأ ارتكبنا خطأ أكبر وأفدح . صحيح أن ضرب العراق لم يتم على أيدينا كعرب، ولكن الدول العربية المتحالفة مع الولايات المتحدة، (غطّت) هذا العدوان ، وهيأت له السبل، وباركته، بحيث كان يصعب على قوى البغى أن تفعل مافعلت، لولا هذا الذى فعلناه .

لا أريد أن أعاود ماقد سبق أن قرأناه، سواء لهذا الطرف أو ذاك من طرفى الاختلاف فى تقييم ماحدث، ولكن المهم الذى أود لفت النظر إليه، هو المحصلة النهائية ، التى قد لا يختلف عليها اثنان .. أن خَصما ضخما وكبيرا من القوة العربية قد تم ، وأن الأمة العربية فى نهاية عام ١٩٩١ أصبحت أضعف كثيرا مما كانت عليه فى أغسطس عام ١٩٩٠ !

ولا تقف المسألة عند حد (الطرح) و(الخصم) من القوة العربية، عسكريا واقتصاديا، ولكن عمليتا الطرح والخصم ، قد نالتا أيضا، وبدرجة أشد قوة وأعظم بأسا، مما يمكن تسميته بعاطفة اعتبار الذات القومية، المماثلة لعاطفة اعتبار الذات بالنسبة للإنسان الفرد، والتى يحرك مفهومها عنده، سلوكه مع نفسه ومع الآخرين، إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا. ومما لا شك فيه، أننا كأمة عربية، لا نشعر فى الوقت الحالى، بعد كل ماحدث، بشئ من التقدير والاعتزاز بعروبتنا، بل إن صور (الكفر) بها - والعياذ بالله - قد بدأت تعرف طريقها إلى قلوب أعداد لايستهان بها .

وإذا كان هذا مما يتصل بمجموع الأمة، فإن شيئا مماثلا قد حدث بالنسبة لتلك القضية المركزية التى تجمعت حولها هموم الأمة العربية منذ مايقرب من الخمسين عاما، ألا وهى

---

* الشعب فى ١٩٩١/١٢/٢٤

القضية الفلسطينية، فبغض النظر عن تلك الأحكام التى تصوّب أو تخطّئ موقف القيادة الفلسطينية من أزمة الخليج، فإن مما لا شك فيه أيضا أن تلك الأزمة قد عادت بالسلب على قضيتنا المركزية . وهناك محللون، لكتاباتهم وجاهة منطقية، يؤكدون أن القيادة الفلسطينية، حتى ولو كانت قد اتخذت موقفا مغايرا، فقد كان ذلك أيضا سيعود بنتائج أخرى سلبية ، من نوع آخر !!

وهنا نصل إلى النتيجة المحزنة، والتى رغم ماتدعو إليه من حزن وألم، فهى، بمعايير الزمن الردئ، موضع ترحيب وتهليل من قطاعات ذات شأن فى النظم العربية القائمة !

إنها مفاوضات (السلام) ..

وهى (فرية) شيطانية، لو انفتح عقل أى إنسان وأعمل فيها تفكيره بعمليات منطقية بسيطة، لاكتشف أبعاد المؤامرة. فليس هناك مخلوق فى الدنيا يجروء على القول بأنه لا يسعى إلى السلام، فهو أنشودة الفؤاد الإنسانى، ومصب الأمل البشرى .. ولكن بأى معنى وفى أى وقت ومع من ؟ ووفق أى شروط ؟

هذه هى القضية ..

لقد أسرعت الولايات المتحدة الأمريكية - شيطان العصر - عقب انتهاء حرب الخليج، لتعلن أن الوقت قد أصبح الآن مناسبا للغاية لبدء المفاوضات بين العرب وإسرائيل من أجل السلام ..

ومناسبة الوقت التى يعنيها شيطان العصر، أن العرب، عقب هذه الحرب، قد صاروا أكثر تمزقا من أى وقت مضى .. والقوة العسكرية الكبرى التى كانت لديهم، قد هشمت .. والثقة بينهم قد أصبحت تحيط بها الريبة والشكوك، وكلمة الشيطان قد أصبحت هى الآمرة وهى النافذة، والقوة المناوئة للشيطان - الاتحاد السوفيتى - قد حُيدت أولا، ثم باركت .. ثم تفككت وفى المقابل، فان إسرائيل، انهمرت عليها المليارات والأسلحة والمهاجرون والاعترافات، فزادت عام ١٩٩١ من القوة أضعاف ماكانت تزيده عبر سنوات طوال .

هذا اذن هو الوقت المناسب ..

والسؤال : مناسب لمن ؟ لنا نحن العرب؟ واضح أنه أبعد الأوقات مناسبة، فهل اختياره يعد سعيا فعليا وأمينا إلى السلام حقا، أم سعيا إلى مزيد مذلة ومزيد هوان ؟!ليس هذا مجرد استنتاج وتخمين، فمسار ما تم يشهد بذلك، حتى لقد أصبح أكثر مايتمناه العرب المفاوضون،

أن يرضى الاسرائيليون - فقط مجرد رضى - بأن يجلسوا معنا بصفة عامة، ومع الفلسطينيين بصفة خاصة !!

ترى : ماذا ننتظر حقا أن تكون النتيجة ؟ هل ستعود قطعة أرض لنا كانت قد سلبت ؟ ولماذا يعيدونها ؟ ما الورقة التى نضغط بها ؟ يسوقون مثالا باستعادة مصر لأراضيها المحتلة، فهل نسوا أن ذلك كان نتيجة انتصار فى حرب أكتوبر وهل نسوا أنهم يقبلون على المفاوضات الآن وهم يعيشون زمن هزيمة عربية ؟

أليس معلوما لدى علماء السياسة والاستراتيجية العسكرية أن مائدة المفاوضات، إنما هى بمثابة خريطة لمواقع القوة، وأن اتجاه المفاوضات إنما تحكمه موازين القوة لكل طرف ؟ فأى موقع قوة نحن فيه وأى موقع قوة فيه الاسرائيلون ؟

ولأن عام ١٩٩١ هو قاع الزمن العربى ، فإنه يأبى أن يمر دون أن يجرعنا كأسا آخر من المرارة .. مرارة الهزيمة والانكسار، فلقد اكتشف العالم أخيرا - بعد طول خطأ فى التفكير والموقف - أن الصهيونية ليست دعوى عنصرية .. ! وعندما يجرى التصويت على هذا فى الأمم المتحدة، تمتنع دول «عربية » .. أى والله .. عن ذلك !!

هل تكفى صفحات الشعب كلها لبيان دعاوى وأحداث العنصرية الصهيونية؟ لا أظن .. بل يكفى الاطلاع على قرارات الأمم المتحدة نفسها منذ قيام اسرائيل حتى وقت قريب، حيث لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية قد تبوأت بعد مقعدها كشيطان للعصر، تتحول فيه الأمم المتحدة نفسها، وكأنها مؤسسة من مؤسسات الإدارة الأمريكية، تستصدر منها القرارات التى تريد .. يحدث هذا فى الوقت الذى يتماحك فيه الاسرائيليون الصهاينة ولايريدون أن يجلسوا ويفاوضوا المنظمة التى هى الممثل الشرعى والوحيد للشعب الفلسطينى ..

أى خزى هذا وأى عار هذا الذى أصبحنا فيه !

يا لهذا الزمان من ردئ حال وياله من هوان مآل ..!

ويأتى (زعماء) الأمة (الإسلامية) ليضيفوا بأيديهم هم فصلا آخر لتكتمل الملهاة أو المأساة .. فمع كل هذا الذل والهوان، يتفقون على أنه لم يعد (للجهاد) مكان فى قاموس السياسة فى هذه المنطقة .

لقد تعجب كثيرون، وأنا واحد منهم، وكدنا نلطم على خدودنا، ثم تنبهت أخيرا، إلى أن (الزعماء) كانوا صادقين مع أنفسهم حقا، ومتسقين مع مواقفهم الأخيرة .. أفلم يرفعوا (الراية البيضاء) ؟ ففيم الجهاد إذن ؟

فى القرآن الكريم، ذكر سبحانه عز وجل، عن اليهود أنهم «ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله»، وتحدث عن أمتنا العربية الاسلامية بأنها «خير أمة أخرجت للناس ...» ... فسبحانك ربى وتعاليت عما يفعلون : لقد ضُربت علينا نحن، الذلة والمسكنة وبؤنا بغضب منك، وأصبح الاسرائليون، طفل العالم المدلل، الذى يملى مايريد، ويحصل على مايريد .. منا نحن، الذين (كنا) خير أمة أخرجت للناس !!

من التحرير الأصغر الى التحرير الاكبر*

كاتب هذه السطور واحد من الذين أفزعهم الغزو العراقى للكويت فى الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ ووقفوا بكل ما يملكون من فكر ومشاعر إلى جانب الكويت، خاصة وقد خَبر ما كانت تمثله من إشعاع فى المنطقة فى البث الثقافى بصفة خاصة، لما كانت توفره من دعامتين هامتين للازدهار الثقافى : حرية الفكر، والامكانات المادية، فضلا عن إدانة مبدأ الغزو فى حد ذاته .

وكنت واحدا من كثيرين أتيحت لهم الفرصة للوعى بما كان يمثله صدام حسين كظاهرة من ظواهر القهر والطغيان النادرة فى التاريخ بحيث لم تؤثر علينا تلك الشعارات التى رفعها مدغدغا بها آمال ملايين العرب والمسلمين، فلست أثق بأى حال من الأحوال بحاكم، مهما كانت لغة خطابه متفقة مع مانحلم ونتمنى، إذا كان يسحق الآلاف من شعبه بلا أدنى تحقيق أو محاكمة لمجرد المخالفة فى الرأى .

تمنيت، عند الغزو، مثل كثيرين، أن تهب الدول العربية مجتمعة لترد ع العراق، ولكن خابت أمنياتنا، ووقع المحظور، فجاءت ألوف القوات الأمريكية ومعها أخرى من عدة دول، وتعلقنا بذيول أمل أن يخيف هذا، حاكم العراق فيرجع عما فعل، ولكنه كابر وعاند، فبدأت الطائرات تحطم وتدمر فى العراق . كان كل خبر عن هذه الغارات يذيعه الإعلام الرسمى بروح تنم عن شماتة مخجلة، بينما يقع فى سمع مثلى كالخنجر المسموم، فلم يكن عسيرا على فهم وطنى بسيط أن يدرك أن كل غارة كانت تعنى تحطيما لقدرة من قدرات الأمة العربية، وزحزحة إلى وراء .

وانتشرت الآراء والتحليلات إزاء الحادث الجلل، وبدأت علامات الاستفهام : كيف تصور حاكم العراق أنه يمكن أن يبتلع دولة عربية أخرى، مهما صغرت، لقمة سائغة ويفلت بالغنيمة دون مطاردة وعقاب ؟ كيف تأتى له أن يقف متحديا هذا الحشد من الإمكانات والقوى على هذا المستوى الدولى الذى لا مثيل له ؟ وبدأت بعض التكهنات التى زادت الأيام من درجة صدقها ويقينها :

لقد كان قيام الثورة الإسلامية فى إيران أكبر تحد من هذه المنطقة للإمبريالية العالمية

---

* مصر الفتاة ، ١٩٩٢/٢/٣

عامة والأمريكية بصفة خاصة . وكان واضحا ذلك الذعر الذى أصاب كثيرين من أن تمتد نيران هذه الثورة لتأكل عددا من الدمى الحاكمة فى المنطقة .

هنا برز حاكم العراق أمام الإمبريالية الامريكية والرجعية العربية ليكون مرشحا للقيام بالدور المطلوب، فهو طموح .. مغامر .. قوى، فضلا عن توافر عدد من المتغيرات الموضوعية فى العراق التى (تبرر) القيام بالمطلوب .

وصوروا لحاكم العراق أن المهمة لن تستغرق إلا أياما معدودات، يعود بعدها سالما غانما، يرفع لواء العروبة وأنه حامى البوابة الشرقية للأمة العربية . وبدأ إحياء نعرات إقليمية ودعوات عصبية راح زمانها .. الخطر الفارسى . وتكاتف الشرق والغرب معا لتغذية الحرب. وما كان لهذه الحرب أن تستمر لولا هذا النهر المتدفق من المعونات المالية العربية !!

وطالت الحرب، ولم يتم الانتصار المطلوب ، فقد كان واضحا أن قوى الإمبريالية حريصة على هذه الإطالة حتى تستنزف كلا الدولتين، فهما طاقاتان كبيرتان للأمة العربية والإسلامية . وساعدت الغفلة المؤسفة للأنظمة العربية، على أن تحقق الإمبريالية أهدافها .

وعندما توقفت الحرب، بدا أن إيران قد أُنهكت بالفعل، لأنها لم تكن تعتمد إلا على مواردها الذاتية، أما العراق، فقد انهالت عليه الموارد ، إن بالمنح وإن بالإقراض .. العرب بالأموال الضخمة، والغرب والشرق بالأسلحة والتكنولوچيا .

وتنبه الغرب إلى أن العراق خرج من الحرب الايرانية العراقية وهو يملك من أسباب القوة ما يجعله فارس المنطقة، فهل يمكن السكوت عليه ؟

كلا ..

فى الثالث من يوليو عام ١٩٩٠، قال مستشار الأمن القومى الأمريكى برنت سكوكروفت فى اجتماع سرى، كما نقل (محمود بكرى) : «.. قلنا أن الحرب (الإيرانية العراقية) يمكن أن تقضى على خطر إيران الخمينى أو تحد من هذا الخطر، إلا أنه وبعد أن انتهت الحرب وجدنا أن حساباتنا خاطئة، لقد خرج العراق من هذه الحرب كأكبر قوة عسكرية فى المنطقة، وكانت لدينا تأكيدات ومعلومات بأن العراقيين سوف يستخدمون قوتهم ضد إسرائيل، وكان معنى أن يستخدم العراق قوته ضد اسرائيل أن ندخل نحن فى دوامة جديدة فى المنطقة، فنحن على علم بأن العراقيين لن يخوضوا الحرب وحدهم ضد إسرائيل وستعاونهم الدول العربية الأخرى ومن بينها الدول الخليجية، ولذا فإن وقوفنا الى جانب إسرائيل وإمدادها بجسور جوية أو غيرها كان سيهدد علاقاتنا مع دول الخليج والدول المحيطة بها، ومن ثم فإننا سنخسر كثيرا من

المعطيات الأساسية لأمننا فى المنطقة، ولذلك اتفقنا على هدف محدد منذ انتهاء الحرب الإيرانية العراقية، وهو كيف نمنع العراقيين من أن يخوضوا حربا ضد اسرائيل ؟

ومرة أخرى، يتم استغلال السمات الشخصية المعروفة عن حاكم العراق .. مزيد من (النفخ) ليزداد ثقة فى نفسه تنقلب الى غرور يتجاوز الإمكانات الحقيقية، وتهويل وتخويف للعالم من خطر العراق، أكدته تصريحات غبية من حاكم العراق بأنه سيحطم نصف اسرائيل، إذ لو كان حصيفا وصادقا، لفعل ذلك من غير إعلان، أما أن يهدد بذلك ثم لايفعل، فهو يفيد العدو ويضر الصديق، وهو ماحدث بالفعل، وتم حشد ضخم من الإعلام الغربى عن أسلحة التدمير الشامل لدى العراق متناسين أن لدى اسرائيل أكثر منها .

وبدأ التخطيط الشيطانى لجر العراق إلى الحرب وغزو الكويت حتى يمكن تجميع الرأى العام العالمى وتجميع القوى الدولية لضرب القوة العراقية وتركيع الأمة العربية بمساعدة الأيدى العربية !!!، يقول سكوكروفت «إننا أبلغنا أصدقاءنا فى الكويت بعدم الاستجابة للمطالب العراقية وأبلغنا العراقيين أيضا من خلال صور التقطتها أقمارنا الصناعية عن سرقة الكويت للنفط العراقى» .

ومقابلة السفيرة الأمريكية (ايبريل جلاسبى) لصدام، شهيرة، حيث أوهمته بأن أمريكا لن تتدخل إذا حدث نزاع بين العراق والكويت. ويؤكد سكوكروفت، فى الاجتماع المشار إليه سابقا، فيما نقل عنه محمود بكرى، «العراق فى حاجة إلى تأديب .. لقد تضخمت قوته العسكرية وأصبح كالسرطان الذى يهدد كل أجزاء الجسم» . أما الجسم ، فهو جسم المصالح الأمريكية الذى حدده المستشار بدول الخليج والعراق وايران واليمن واسرائيل . أما المناطق الأخرى المحيطة بها (مصر، سوريا، السودان، ومنطقة القرن الإفريقى) فكان لابد من إخضاعها للنفوذ الأمريكى .. «.. أن حمايتنا لمصالحنا فى المنطقة الأولى تتوقف على حمايتنا لنفوذنا فى المنطقة الثانية » .

واستكمالا لهذه الخطوات، فلابد من تخويف السعوية بأن التهديد العراقى والغزو لا يستهدف الكويت وحدها وإنما، السعودية ودول خليجية أخرى . ولا بأس من تسريب تحليلات إلى مصر بأنها هى الدولة الكبرى فى المنطقة ولا ينبغى أن تتطاول العراق لتحتل هى مقعد الزعامة العربية !!

وهكذا خططت السياسة الامريكية لجر العراق للقيام بغزو الكويت، على أساس أن مثل هذا العمل يحقق لهذه السياسة أهدافا هامة :

أولا - استغلال هذا العمل كى نقوم نحن (فيما يقول المستشار الأمريكى) والقوى الدولية الأخرى بوضع ضوابط حقيقية على القوة العسكرية العراقية أو القضاء على هذه القوة .

ثانيا - فإن إظهار رغبتنا فى حماية أمن أصدقائنا فى الخليج يمكن أن يقضى على بعض الخلافات التى ظهرت بيننا وبين الدول الخليجية .

ثالثا - إقناع الدول الخليجية بعدم الارتباط بسياسات الدولة العربية التى لا ترغب فى تطوير علاقتها معنا .

رابعا - التأكيد على قوتنا العسكرية فى تلك المنطقة ، ومن ثم التأكيد على إمكانية تدخلنا كلما حاولت بعض الدول أن تزعزع الاستقرار القائم فى المنطقة .

خامساً - التدخل فى تسعير النفط، خاصة وأن الفترة القادمة هى فترة وحدة أوربية، وهذه الوحدة تؤثر كثيرا على وضعنا الاقتصادى، وأنتم تعلمون أهمية المنطقة العربية لهذه الدول .

سادسا - أن أى حرب عربية - عربية، ستزعزع من وحدة الموقف العربى ضد اسرائيل !! وتحقق للولايات المتحدة الامريكية ماتريد على نحو ما هو معروف ..

ويخطئ من يظن أن الهزيمة كانت من نصيب العراق وحده . لقد كانت هزيمة للأمة العربية جميعا، وسوف يسجل التاريخ فيما بعد أن هذه الهزيمة تفوق فى حجمها وأثارها جملة الهزائم السابقة منذ عام ١٩٤٨ . لا أقول ذلك دفاعا عن حاكم العراق، ولكن دفاعا عن الأمة العربية . لقد وقفت جيوش عربية مع جيوش أمريكية وانجليزية لضرب دولة عربية كبرى !!

صحيح أن المبرر بالنسبة لنا هو تحرير الكويت، لكن، ماذا كان ثمن هذا التحرير ؟ هل نكون كمن ينقذ شبرا ليفقد عشرات الأشبار ؟ لا أقول ذلك تقليلا من أهمية تحرير الكويت، وإنما تركيزا للانتباه على أن المحصلة، هى دخولنا جميعا تحت مظلة الهيمنة الأمريكية المباشرة .

كتبت (كويتية) فى مجلة اليسار المصرية مصورة موقف عودتها الى (الكويت المحررة) : «سمعت التكبيرات والتسبيحات لبوش الأعظم سيد المنقذين . رأيت صورهم (المحررين الغزاة)تحملها النساء والشباب والأطفال وأيات تمجيدهم منقوشة على الصدور .

رأيت أبناء بلدى العربى المسلم وقد انحنت ظهورهم بثقل كراهيتهم لشعب العراق وتشوهت ملامحهم تقززا من كل ما هو عربى مصريا كان أم أردنيا أو سودانيا .

رأيت شعارات دين بوش الجديد تنتشر وترفرف بزهو النصر وتنطلق بالقوة والسيادة والسمو وأحقيتهم فى تملكنا .. لا، بل فى إبادتنا وإحيائنا ان أرادوا ..»

.. حررت الكويت .. هكذا قيل .

حرقت العراق جيشا وشعبا وكيانا .. ومازالت محاصرة إمعانا فى إذلال النفايات المتبقية من عروبتنا .

أصبحت أرضنا وثرواتنا وبترولنا أرضهم وثرواتهم وبترولهم .. وحكوماتنا توابعهم والأفراد عبيدهم، لكن كل ذلك تم بإرادتنا . فبإرادتنا نصبنا اسرائيل دولة عظمى بين دويلات سبايا، وبتمويل منا ودعوة وإلحاح. أتينا بهم لتخليصنا من هوية ذليلة، من عروبتنا، ولإضفاء شرف التبعية لهم علينا وعلى أولادنا وأحفادنا .. وأى شرف لنا أن نكون مما ملكت أيمانهم ؟!

وقد أعلن الجنرال (نورمان شوارتسكوف) فى حديث لمراسل إذاعة الجيش الإسرائيلى، أن «إسرائيل قدمت مساعدات قيمة وهامة جدا فى حربنا ضد صدام حسين، ولا أريد الكشف عن تفاصيل مثيرة، ولكنى أقول إن إسرائيل قدمت لنا أكثر بكثير مما طلبنا منها . وأنا شخصيا مرتاح جدا للتعاون المشترك القائم بين واشنطن وتل أبيب، كما وأنى أنوى زيارة إسرائيل قريبا ....

ان الحرب التى خاضها رجالنا فى منطقة الخيج ضد صدام حسين كانت من أجلكم .. من أجل اسرائيل .. وقد عمل الرجال على تحطيم عدوكم .. العدو الرئيسى لكم فى المنطقة» .

وإذا كان العرب، وفى مقدمتهم مصر، قد هبوا لنجدة الكويت، فهل يتسقون مع أنفسهم ومع المنطق المرفوع من قبلهم فيهبوا الآن لنجدة العراق الذى تمارس عليه أقصى صور الاذلال؟ لقد قيل أن هذه الحرب لا تستهدف الشعب العراقى ولكنها تستهدف نظام صدام، والغريب، ولعله ليس غريبا، أن الذى حدث، هو إذلال وتخريب وتجويع للشعب العراقى، أما نظام صدام، فما زال مستمرا !!

هل تعجز الولايات المتحدة عن إزاحة نظام صدام ؟ أبدا، فهذا هو بالفعل هدفها .. إذلال الشعب العربى .. تدمير قوة عربية ضخمة، أما النظام، فمن المصلحة استمراره، فهو استبدادى، مغرور، يفيد فى مزيد من القهر للشعب، وهو مفيد أيضا للوقوف فى وجه الخطر الإيرانى، وضرورى لمزيد من الابتزاز للعرب المجاورين .

هذه الحمى الغريبة ضد أسلحة الدمار الشامل عند العراق، أفلا ترتفع أصوات عربية من

هؤلاء الحكام الذين ثاروا ضد صدام، بأن يثوروا أيضا ضد هذه التفرقة التى تتبدى فى سكوت، بل وتغذية وتقوية لأسلحة الدمار الشامل فى إسرائيل، وتخويف وفزع من قليل منها لدى العراق ؟

يقول ادوارد مورتيمور فى بحثه عن (الاسلام والمسيحية) الذى لخصه فهمى هويدى:

«بصفة عامة، يبدى الإعلام الغربى على العموم موقفا لايتسم بالموضوعية والحياد فى التعامل مع العالم الاسلامى، فالعنف الذى يمارسه المسلمون يبالغون فيه، وتلقى عليه الأضواء القوية، أما العنف ضد المسلمين، فيتم تجاهله والتهوين من شأنه. والسلاح غير التقليدى عند العرب والمسلمين هوخطر ينبغى تدميره، ولكنه ليس كذلك إذا كان لدى إسرائيل، وماجرى فى ليتوانيا يلقى اهتماما بالغا وأذنا صاغية فى الغرب، لكن ما حدث فى أذربيجان – وهو أسوأ وأفظع – لايكترث له كثيرا .. وهكذا» .

وبعد ..

لقد كان تحرير الكويت، هو التحرير الأصغر ويبقى التحرير الأكبر .. رفع هذا الحصار المذل من على شعب العراق، وهو الجهد الذى يحتاج إلى حركة شعبية تضغط على الحكومات .. يبقى التحرير الأكبر فى التخلص من هذه الهيمنة الأمريكية التى لم تعد تكتفى بشكلها غير المباشر فى المعونات والقروض وإنما أصبحت سافرة فى جيوش وقوات وأسلحة .. يبقى التحرير الأكبر فى انتزاع حرية المواطن فى التفكير والحركة .. يبقى التحرير الأكبر فى العدل الاجتماعى بكل أشكاله وكافة مظاهره .. فعل نحن قادرون ؟ واذا كنا قادرين، فهل نحن عازمون ؟

حتى لايقع اليسار فى المصيدة* !!

لابد لى فى البداية أن أسجل ملاحظتين :

الملاحظة الأولى، أنه على الرغم من أننى لا أشرف بالانتساب إلى (التجمع) ، إلا أن بينى وبينه من علاقات التقدير والود مايسمح لى بأن أصارحه بكلماتى التالية مع أمل ألا أغضب أحدا منه إذا حَمَّل كلماتى غير الذى قصدت، فضلا عن أن تجد طريقها للنشر على صفحات الأهالى الغراء .

الملاحظة الثانية، أن لى تحفظاتى على بعض استخداماتنا للتصنيف الشهير إلى يمين وإلى يسار ليس الآن وقت مناقشتها، ويكفينى الإشارة الى أن ما أعنيه بكلمة اليسار هنا هو تلك الفصائل المنضوية تحت مظلة تنظيم حزبى شرعى علنى هو (التجمع)، بالإضافة إلى القريبين من فكره ونهجه، قوميين كانوا أو شيوعيين أو ناصريين .

إن لفصائل اليسار هذه أن تبدى مشاعر الفرح والسرور، التى نشاركها فيها، لنجاحها فى انتخابات مجلس الشعب الاخيرة ١٩٩٠ .

لكنها فى غمرة هذه المشاعر ينبغى أن تصيغ السمع لعدد من همسات بدأت تتردد على ألسن كثيرة، بأن النظام الحاكم قد (سمح) لليسار أن ينجح !!

إن هذا القول - فى يقينى - لايعنى أن هناك (تواطؤا لاسمح الله ..)

كما أنه لايعنى - فى يقينى أيضا - أن اليسار قد حصل على نجاح غير أهل له، فلم يكن هذا النجاح من قبل، حسب تعبير فيلسوفنا أبى حامد الغزالى «مضنونا به على غير أهله»، وإنما كان «مضنونا به على أهله» .

إن هذا القول يعنى أن النظام الحاكم شعر بحاجة إلى تواجد لليسار ، فتوقف عن استخدام أساليبه ووسائله المعروفة من التزوير والارهاب والترهيب والترغيب .

والسؤال هنا هو :

هل استشعار النظام بالحاجة إلى تواجد اليسار يعكس تقاربا إيديولوجيا واقتناعا، على الأقل من النظام ببعض مقولات سياسة اليسار وبرامجه للاصلاح؟

أرجو ألا أكون مبالغا إذا جازفت فورا بالإجابة بالنفى !

---

* الأهالي ١٩٩٠/١٢/٢٦

فالتراجع عن سياسات دولة الرعاية تبرز مظاهره وعلاماته يوما بعد يوم، لإفساح المجال لتخصيص أو (خصخصة) النسبة الأكبر من قطاعات الإنتاج والخدمات فى مصر، والمستقرئ لقطاع التعليم، على سبيل المثال، يستطيع أن يجد عشرات الأمثلة والنماذج لانحسار مدارس الدولة واندخار القطاع العام فى التعليم أمام زحف القطاع الخاص وقهر رأس المال .

وسياسة مصر الخارجية أصبحت الآن تتم - غالبا- بالتنسيق مع الولايات المتحدة الأمريكية، إلى الدرجة التى أصبحنا نقوم عندها بدور واضح وملموس يخدم السياسة الأمريكية، وليس غريبا أن نسمع إشارات الأمريكيين إلى الدول (الصديقة) فى منطقة الشرق الأوسط، وأن نكون نحن فى مقدمة هذه الدول .

ودراسة النتائج المؤسفة لأخطبوط الديون الخارجية تفيض بها دراسات وكتابات خبراء وأساتذة اليسار وكتابه أنفسهم، وكيف أن المحصلة النهائية تشير إلى احتلالنا لموقع مرموق فى (دول الهامش) المشدودة إلى (دولة المركز)، وبشكل تبعية عصرية تنتفى فيها صور الأمس من احتلال عسكرى ومندوب سامى، لتحل محلها صور ضعف المناعة الذاتية ومحاصرة الإرادة الوطنية لتسير فى خطوط رسمت لها من خارج متوهمة أنها حرة فيما تختار .

ولا أريد أن أستطرد فى ذكر مثل هذه الأمثلة، بل يكفى أن يراجع القارئ بنفسه مجموعة متفرقة من جريدة (الأهالى) نفسها ليرى ماهو أبشع مما نقول .

ويظل السؤال ...

هل هذا اتساق وتناغم مع توجهات النظام العالمى وخاصة بين الدولتين العظميين فيما نراه من علامات تبشر بأفول عصر (المواجهة) ليبدأ عصر (المشاركة)، وانتهاء عصر الحرب الباردة ليبدأ عصر التآلف والتآزر والتعاون فينتفى الاختلاف الإيديولوجى كأساس للصراع ؟

إن خبرتنا بالسياسة المصرية الحالية لا تجعلنا نثق فى أنها على درجة من الرشد تجعلها تستشعر، وبسرعة، نبض العصر والتوجهات المستقبلية للنظام العالمى لتفكر بمقتضاها وترسم اسراتيجيتها وفقا لتوقعاتها بحسابات علمية دقيقة، وإلا فأين مثل هذا فى العلاقات العربية / العربية الآن ؟ وأين مثل هذا فى التعامل مع التيارات المخالفة فى الساحة الوطنية نفسها ؟

ويظل السؤال ...

هل هذا الذى شهدته انتخاباتنا تعبير عن (توجه) شعبى نحو اليسار ؟

إن (حجم) الفوز ليس مبشرا بذلك، فهو يظل ضئيلا بكافة المقاييس .

هذا فضلا عن أن الملاحظة السريعة، بالاضافة إلى ما يمكن أن تنبئ به أجهزة الرصد

الاجتماعى وقرون الاستشعار السياسى تشير إلى تنام عكسى فى الإتجاهات الدينية إلى الدرجة التى أوصلت البعض منها الى مستوى من الغرور تصور فيها أنه يمكن أن يفرض نفسه بقوة السلاح لا بمنطق الحوار .

كذلك فإننا لا نستطيع أن نغض الطرف عن أن مساندة الجماهير لبعض رموز اليسار كانت له دوافعه الشخصية أكثر منها دوافع إيديولوجية، وأبرز الأمثلة على ذلك، خالد محيى الدين نفسه، فهو منذ أن ظهر على مسرح السياسة المصرية مشاركا فى تفجير ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وهو يحظى بقدر كبير من الاحترام والتقدير والحب من قطاعات كثيرة حتى ممن لايشاركونه الفكر والفلسفة والنهج . وكذلك الأمر، إلى حد ما، بالنسبة لبعض الرموز القومية والناصرية الفائزة .

ولسنا فى حاجة إلى تذكر تلك الأزمة الطاحنة التى حاصرت المنظمة الاشتراكية، فكرا ونظاما، فشهدنا انحسارا كبيرا، فكيف يستقيم أن يحدث هذا على مستوى العالم، ويحدث عكسه فى مصر ؟ أم هو أمر شبيه بما نشهده فى عالم المال عندما نرى الدولار ينخفض فى أنحاء كثيرة فى العالم بينما فى مصر يواصل - دائما - ارتفاعه ؟!

ويظل السؤال ...

فى ظنى، أن النظام الحاكم، رغم (يمينيته) السياسية والاقتصادية -إذا سلمنا بهذا التصنيف - إلا أنه يستشعر الخطورة الشديدة عليه من جانب اليمين الدينى، وهو - من ثم - يلعب نفس اللعبة التى سبق أن لعبها مَنْ قبله، فى أن يستخدم هذا لمواجهة ذاك، أو ذاك فى مواجهة هذا، حيث أنه هو نفسه، لا هذا ولاذاك، بلا هوية، إن مايهمه هو نفسه، والمحافظة على وجوده أيا كانت الوسيلة .

فى عام ١٩٧١، بدأت الخلافات مع موسكو، وبدأ الغزل مع واشنطن، وبدأ تحسن فى العلاقات مع الدول العربية (المعتدلة!!) ، وبدأ الصراع على السلطة فى الداخل مع رموز العهد الناصرى .

كان الخطر يهب على النظام الحاكم من اليسار، بينما برزت من اليمين بشائر المعاونة والمؤازرة وعلامات التشجيع .

فاندفع النظام فى إقصاء ومحاربة فصائل اليسار، وكان من الضرورى أن يوجد فى الساحة (بديل) يقوم بتشكيل الوعى من جديد، فأضيئت الإشارة الخضراء للتيارات الدينية كى تعمل بحرية وتنشط بفاعلية، وأفرج عن الكثيرين من السجون والمعتقلات .

ولم يكن هذا آية ديموقراطية وتحرر ..

ولم يكن أبدا آية إيمان وتدين ...

فالديموقراطية حتى تكون كذلك لا يمكن أن تكون لتيار دون تيار ولا لقوم دون آخرين .. والايمان إنما هو إيمان بالله، والله واحد وهو رب العالمين، ولا يمكن أن يكون حكرا لفريق دون فريق ولا مظلة لهذا دون ذاك .

وأكاد - معذرة - ألمح فى الساحة المصرية، ومنذ فترة، بشائر (سيناريو) مشابه وإن كان فى الاتجاه المعاكس .

مظاهر التهديد والوعيد للنظام تجئ من جماعات ترفع لواء الدين ..

إذن فلتفتح قنوات التلفزيون وموجات الإذاعة لرموز يسار ..

ولتفتح صفحات صحف كبرى لأقلام يسار ..

ولتترك صناديق انتخاب لأصوات يسار ..

لو كان هذا عن إيمان باليسار لكنت فى مقدمة الفرحين المسرورين ..

إنه لأمر وارد فى السياسة أن تتغير التحالفات والارتباطات، فيصبح صديق الأمس عدو اليوم ويصبح عدو الأمس صديق اليوم، إذا استطاع الرباط الجديد أن يحقق المصلحة المطلوبة.

وأنا نفسى أومن بأنها فرصة لابد لليسار من أن ينتهزها ليطرح فكره على الناس ويتغذى باستجاباتهم ويشارك فى صنع الوعى، فضلا عن الطموح المشروع فى المشاركة فى صنع السياسات والقرارات .

إن هذا حق لا يجوز لأحد أن يذكره عليه .

لكنى أمل أن يكون هناك من اليقظة ما يجعل الرموز الفائزة تتوجه بطاقاتها لإثراء الحوار لا لإذكاء الخصومة .. لتعميق الانتماء الوطنى، لا لتأكيد التبعية، لتعظيم المشاركة، لا لإشاعة السلبية.

ولن يتأتى هذا بالدرجة المأمولة إذا نسى اليسار المنتخب أنه قد أصبح الآن وسط ساحة ملعب قواعد اللعب فيه غير نظيفة، ومعايير التعامل فيه من (الكاوتشوك) يمكن أن تنكمش أحيانا كما يمكن أن تمتد أوقاتا أخرى، وأن (سيد الأمس الانجليزى) إذا كان قد ذهب، فليس معنى ذلك أن فلسفته الشهيرة (فرق تسد) قد ولّى زمانها، فعرائس اليوم فى النظام تحرص على أن تكسب حسن ظن (سيد اليوم الأمريكى) .

تعقيب من الاهالى

** الأهالى

الأستاذ الدكتور سعيد إسماعيل على من كتاب «الأهالى» رغم عدم انتمائه لحزب التجمع وهو كاتب يتحلى بالنزاهة والموضوعية سواء اتفقنا أو اختلفنا فى هذا الرأى أو ذاك وكل ما طرحه الدكتور سعيد إسماعيل على هو من التساؤلات المشروعة التى يطرحها هو بإخلاص وأمانة حتى لو طرحها غيره لأغراض اخرى .

وليسمع لنا الدكتور سعيد بأن نسجل موقفنا الذى قد يرد على بعض التساؤلات فى مقاله .

*الحديث عن أن مساندة الجماهير لبعض رموز اليسار وعلى رأسهم خالد محيى الدين هى مساندة لدوافع شخصية ليس دقيقا فلا يمكن الفصل بين خالد محيى الدين كشخص وبين خالد محيى الدين صاحب المبادئ والمواقف المحددة .

* الربط بين حزب «التجمع» وبين الأحزاب التى تراجعت فى أوروبا الشرقية هو ربط تعسفى، لأن التجمع حزب يسارى وليس حزبا شيوعيا، رغم حملات الدعاية المكثفة ضد الحزب.

* أما أهم مانعترض عليه فى مقال الدكتور فهو خشيته من أن تكون الحكومة التى استخدمت الجماعات المتطرفة (الدينية) ضد اليسار فى مرحلة تريد استخدام اليسار ضد هذه الجماعات فى مرحلة أخرى، ونحن نقطع من جانبنا أن اليسار أو حزب التجمع لايتورط فى مثل هذه الألاعيب الانتهازية المرفوضة مبدا وممارسة .

* أما حديث الدكتور عن بعض «الشواهد» مثل «فتح قنوات التليفزيون وموجات الاذاعة وصفحات كبرى لاقلام اليسار»، فرغم أنه حق لليسار واليمين إلا أن المؤسف أن هذا لايحدث إلا نادرا ودون أن يرتبط بالقضايا الأساسية المطروحة فى المجتمع وهو قطرة فى بحر بالنسبة لعدد المتحدثين من «اليمين» وحاملى أفكار الجماعات الدينية .

إن موقفنا السياسى من الحكومة لم يتغير ولا أحد يمكن أن يلومنا لأن ظروفا محلية. وعالمية دفعت الحكومة إلى عدم تزوير الانتخابات ضدنا رغم ماوقع من تجاوزات هنا أو هناك .

لقد شاركنا فى الانتخابات وحصلنا على بعض مانستحق من مقاعد وليس علينا دين لأحد لكى نسدده من مبادئنا ومواقفنا .

اليسار الذى فى المصيدة* !!

فى موسم انتخابات مجلس الشعب الماضية، كتبت مقالا فى (الأهالى) بعنوان «حتى لايقع اليسار فى المصيدة»، عبرت فيه عن مخاوفى من (بشاير) كان بعضنا قد بدأ يلمسها، بصور (ترحيب) غير مألوف من (الحكومة) لبعض قوى اليسار المصرى .

ورغم تعليق الجريدة على مقالى بمخالفتى فى هذا (الظن)، إلا أن المواقف والممارسات التالية قد رفعت من درجة (الظن) عندى إلى مستوى أقرب إلى (التأكد) منها إلى (التوهم) بالنسبة لبعض القوى اليسارية، وهو الأمر الذى يحتاج إلى ذلك التعبير الشهير (وقفة مع الصديق) . وأقول (مع الصديق) لأن الإنسان، إذا تأمل جيدا فى الكثير من مقولات اليسار - كما عبّر عنها رموزه، تحريرا وشفاهة - لايملك المنصف العادل إلا أن يحنى لها الرأس احتراما وتقديرا، وهو الأمر الذى أخشى أن يبدأ فى الاهتزاز بعد (عشرة فكرية) طويلة، كانت حلما جميلا، بدأت توقظه صور واقع كئيب !!

ففى أحد أمسيات أواخر عام ١٩٦٨، حيث جلسة (سمينار) تجمع عددا من الأساتذة الجامعيين وطلاب البحث العلمى لمرحلتى الماجيستير والدكتوراه، أخذ عميد الكلية يقلب فى صفحات (مسودة) رسالة دكتوراه كان يشرف عليها، حتى إذا أمسك بالصفحة الأولى فالثانية، إذ بعلامات الغضب تغير من تضاريس وجهه، وإذا بصوته يعلو ساخرا مؤنبا جالدا صاحب الرسالة بعبارات قاسية ساخرة :

- إيه دا يا أستاذ ؟ أول صفحة وأول مرجع لـ (لينين) وبعدين (إبراهيم عامر) ، وبقية الفرقة! يعنى أول القصيدة كفر؟ الله .. دا أنت شيوعى بقه وأتارينى بحسبك من الإخوان المسلمين! كان صاحب الرسالة الذى أخذ المشرف يسلخه أمام الجميع هو كاتب هذه السطور!!

كان موضوع الرسالة يتعلق بالأبعاد الاقتصادية والاجتماعية لحركة الفكر التربوى فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى، حيث أدت بى القراءة إلى نتيجة هامة وهى أن (الفكر) يستحيل فهمه إلا فى ضوء المعطيات المشكلة للواقع الاجتماعى، وكانت مصر فى هذا العهد تتعرض لأقذر حملة استعمارية ، وما يرتبط بها من استغلال ونهب واستنزاف وقهر، وكانت الكتابات الماركسية من أكثر الأدوات الفكرية فعالية لتفسير الواقع الاجتماعى، وخاصة كتابات

---

* نشر بمجلة (اليسار) أكتوبر ١٩٩٢ .

لينين عن الظاهرة الإمبريالية والرأسمالية، وكانت كتابات إبراهيم عامر فى المسألة الزراعية وشهدى عطية عن تطور الحركة الوطنية ومحمد أنيس وما جرى مجرى هذا تحل كثيرا من الألغاز وتفك العديد من الشفرات .

لكن العقل العربى لايستسيغ هذا الذى فعلت ..

لا يستسيغ أن تكون متدينا، ثم ترجع إلى كتابات ماركسية، حتى ولو كانت تملك مفاتيح التفسير والتحليل .

والعكس أيضا، صحيح !!

كل أهل دائرة، لايتعاملون إلا مع المنتمين إلى نفس الدائرة، ويخاصمون فكر الدائرة الأخرى ! بذلك يخلطون الأوراق بين أمرين :

الأول ، (حق الاختلاف) الذى هو خصيصة بشرية، وهى نتيجة طبيعية لما أبدعه الله عز وجل فى الإنسان فردا من فروق، وتباين إمكان واختلاف الزمان، فكما لكل إنسان (بصمة) إبهام لا تماثل بصمة إبهام آخر، فلكل إنسان (بصمة) عقل قد لا تتطابق مع آخرين .

والثانى هو (واجب المعرفة) الذى تلخص فلسفته المقولة النبوية الرائعة : «الحكمة ضالة المؤمن فهو أول بها أنّى وجدها، لا يبالى من أى وعاء خرجت»، مما يحتم على صاحب الرأى، لا أن يعرف كل مايتصل بمذهبه فقط، وإنما كذلك بكل مايتصل بما يخالفه، وإلا، فلست أدرى على أى أساس إذن يخالف ويعارض؟ بل أكاد أقول : إن الواجب هنا أكبر وزنا، أعنى أن حاجته لمعرفة الرأى المغاير أشد،لأن مايتصل بما يؤمن هو به، غالبا مايكون لديه منه الزاد الكافى .

وأنا لا أخفى على أحد أبدا أننى كنت كثير الإعجاب بالكتابات اليسارية عامة والماركسية خاصة رغم أننى ما أمنت بها (الماركسية) فى أى فترة من فترات العمر، بل لقد كانت الرغبة فى الاطلاع على هذه الكتابات تصل إلى حد (النهم) الذى أكاد معه أن أقول أنه ما من شئ كتب فى مصر خاصة منذ أول الخمسينات، فى هذا الاتجاه إلا وقرأته .

وامتد هذا التقدير إلى حرص واضح على مزاملة ومصادقة الكثيرين، حيث كنت أشعر باستمتاع فكرى لا ينكر، بما يقولون .

كانت أفكار كثيرة توضح لى أبعاد الظاهرة الاستعمارية وسوء الاستغلال الرأسمالى، وتؤكد حقوق الفقراء والمستضعفين، وتهاجم الاحتكار والاستبداد، فكأنى بسماعى وبقراءتى لما يدور حول هذا وذاك، أطير بجناحين إلى عالم أحلام الانسان .

لكن قراءاتى الإسلامية، فى نفس الوقت ، كانت تؤكد لى بما لايدع مجالا للشك أن الإسلام معين لا ينضب لكثير من هذه الأفكار التى تكتسب مصداقية أكثر باستنادها إلى المولى الخالق، رب العالمين، وكأن التثقف اليسارى جعلنى أقرأ النص الاسلامى والوقائع الإسلامية بعيون متفتحة تتطلع إلى التطور وتنشد التقدم وتنبذ الجمود والتحجر وتناضل ضد التخلف .

إلى أن حدث ما حدث فيما كان يسمى بمنظومة الدول الاشتراكية ...

إن ماحدث لهذه الدول لم يكن مدهشا لمثلى، وإن كنت لا أخفى دهشتى من (سرعة) ماحدث، ومن (حجم) ماحدث !

لقد كنت أرى هذه الدول يستحيل أن تكون اشتراكية بالمعنى الذى كنت أجده فى الكتابات الاشتراكية .. كانت نظما بوليسية، قهرية، قد توفر لقمة الخبز والمأوى ولكنها تقطع اللسان وتضع على العين غطاء حتى لايعرف الانسان عن طريق المشاهدة والمعاينة وإنما عن طريق أذن لايصب فيها إلا صوت واحد آناء الليل وأطراف النهار .

وإنى لأذكر أنه فى أواخر عام ١٩٦٧ كان ترتيبى رقم (١) بين زملائى فى استحقاق السفر للاتحاد السوفيتى للحصول على الدكتوراه، لكننى اعتذرت من شدة إحساسى (بالمناخ البوليسى) و (النهج القهرى) القائم هناك .

... هذا فى الوقت الذى كان فيه كل شئ فى مصر ينطق بالتمجيد والتسبيح بالاتحاد السوفيتى !!

ومن ثم، عندما انهارت تلك الدول، كان ذلك بالنسبة لى، انهيارا لاستبداد واحتكار واستغلال وللحكم البوليسى .

لكنه، أبدا، لم يمثل لى انهيارا لكثير من الأفكار التى رأيت - ومازلت أرى - أنها صادقة، وأنها أحلام يجب أن يظل الانسان مناضلا بغية تحويلها إلى واقع معاش .

وبكل الأسى والأسف، كانت صدمة مثلى، لا نتيجة لهذا الانهيار الذى حدث (للنظم)، فلقد سعدت به حقا وإنما جاءت الصدمة نتيجة (الأصداء المحلية) التى أراها رأى العين على أرض مصر (طبعا وبلدان عربية إخرى) بين موقع مناضلى الأمس ورافعى رايات التقدم .

و (اليسار) الذى أتحدث عنه هنا ليس (المجلة)، فالحق الذى يجب الاعتراف به ، لا مجاملة، ولا لأنى أكتب الآن فيها، إنها مازالت تمسك بالراية .

- فى معظم الأحوال لم نعد نقرأ التحليلات والكتابات التى تفضح شيطان العصر،

الولايات المتحدة الأمريكة ومن دار فى فلكها ...

- توارت الكتابات عن الصهيونية العنصرية وخطرها على الأمة العربية، مع أن دعاوى السلام، لاينبغى أن تجعلنا نغفل عن هذه الطبيعة الشيطانية الشرسة ..

- خافتة هى، وباهتة تلك الكتابات التى تعرى النظام الحاكم من الدعاوى التى يرفعها على صفحات الصحف وعبر موجات الأثير وعلى شاشة التلفزيون لتظهر سوءته واضحة جلية : فاتح الأبواب للاحتكار، بانى دولة (اخطف واجرى) والمبشر بمجتمع الاستغلال والتبعية .

والتقت كتابات يسارية متعددة مع توجهات النظام الحاكم فى أن الخطر ليس فى الولايات المتحدة ولا فى الاستغلال الاقتصادى ولا فى القهر السياسى ولا فى الظلم الاجتماعى، وإنما هو فى التطرف (الدينى) !! ولو كان هؤلاء وهؤلاء صادقين مع أنفسهم وعلميين، لأدركوا أن التطرف بالفعل أصبح خطرا على مصر، لكنه أنواع وأشكال، وفى كل المجالات، و(الدينى) منه إن هو إلا شريحة جزئية، ولن يفلح علاج، ولن تجدى مواجهة إلا إذا توفرت النظرة الكلية والتناول الشامل .

وحتى نزيد القضية إيضاحا، لابد لنا من خطوة قصيرة الى وراء، نعاود بعدها مواجهة الحاضر، أملا فى مستقبل مرغوب :

فمنذ أن بدأت مصر تسير فى الطريق الرأسمالى عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣، وحتى وقت قريب، كنا نلاحظ، فى بعض الفترات، أن قيمة الدولار فى أنحاء كثيرة من العالم، أحيانا ماتهبط أمام عملات كبرى أخرى، إلا فى مصر !! فقد كان الدولار، دائما فى صعود !!

وعلى نفس المنوال - اذا استثنينا الانتخابات الاسرائيلية الأخيرة التى لها متغيراتها الخاصة - فقد وجدنا، على مستوى العالم كله على وجه التقريب، انحسارا ملحوظا لنظم حكومية كانت ترفع شعارات اليسار، إلا فى مصر، التى بدأت تشهد مشهدا بالغ الغرابة حقا: انتعاشا ملحوظا لقوى اليسار، فى الوقت الذى نشهد فيه أيضا زيادا ملحوظا فى (رسملة) مصر ودمجها فى منظومة العالم الرأسمالى، لا كشريك وقوة لها كيانها وإرادتها المستقلة، وانما لتحتل موقعها ضمن دول (الهامش) التابعة لدول المركز، أو قل، بصريح العبارة، الدولة المركز .. شيطان العصر : الولايات المتحدة الأمريكية .

ولو كان هذا الانتعاش اليسارى باديا فى القواعد الشعبية، يحمله رجل الشارع، لكان الحادث سهل التفسير، إذ سيكون رد فعل طبيعى لاستشراء قوى البغى والاستغلال الممتدة فى قوى السلطة الحاكمة، لكنه انتعاش فى مواقع يمسك النظام الحاكم بمفاتيحها بنفسه .. فى

مواقع رأى وإعلام وتشريع، بحيث يصعب القول بأن التواجد فيها يقوم على معايير الجدارة والاستحقاق وحدها، وإنما لابد من معيار الرضا والرغبة من المالك الموجه .. الحاكم !!

وقبل أن أسوق اجتهادى الخاص فى التفسير، أرجو أن أؤكد أننى لا أسوقه بدافع (الاتهام)، ولكنى - أُشهد الله - أسوقه بدافع (التنبيه والتحذير) القائم على (الود والتقدير)، وإن كان ثمة (اتهام)، فهو يوجه للنظام الحاكم نفسه وليس لقوى اليسار .

فى أواسط الستينات، فتحت أبواب السجون والمعتقلات التى كانت تعج بالكثيرين من أهل اليسار، لا ليذهبوا إلى بيوتهم فحسب، وإنما - كذلك - ليتبوأوا مواقع هامة فى العديد من أجهزة الدولة والسلطة، وخاصة السياسية والثقافية . وإذا كان قد تواكب مع هذا الحدث، إعلان عبد الناصر - وهو فى زيارة لموسكو - عن اكتشاف مؤامرة من الإخوان المسلمين، مما استتبع إعادة اعتقال وسجن كثيرين منهم، فضلا عن إعدام عدد من القيادات، وعلى رأسهم (سيد قطب)، إلا أن أحدا لم يربط بين الحدثين، إذ لم يكن هناك (مد دينى) يحتاج الى مواجهته بطرف آخر مضاد، وإنما فسر الحدث الأول بأنه نتيجة طبيعية ومنطقية، حيث كانت معظم توجهات النظام الحاكم تسير فى نفس اتجاه مقولات اليسار الى حد كبير :

- كان النظام الحاكم يخوض معارك شرسة ضد الامبريالية فى الخارج وضد الاستغلال فى الداخل .
- كان النظام الحاكم يساند ويؤازر قوى التحرر فى الدول العربية خاصة وفى مواقع أخرى من العالم الثالث .
- كان النظام الحاكم يؤجج مشاعر القومية والوحدة العربية .
- كان النظام الحاكم يبنى قاعدة وطنية صناعية حتى يخفف من الحاجة إلى دول الهيمنة والاستغلال .
- كان النظام الحاكم يجدّ فى نشر التعليم ليصل إلى كل موقع وإلى كل مصرى بقدر مايستطيع .

ومن هنا كان (التعاون) و(التحالف) بين النظام وبين اليسار، فى موقعه الصحيح ، وما كان سائدا من مواجهة قبل ذلك هو الذى لم يكن منطقيا ولا طبيعيا .

أما اليوم، فماذا حدث؟ وماذا يحدث؟

- الديون الخارجية تثقل كاهل الميزانية وترهن جزءا كبيرا من الدخل القومى لحساب أصحاب الديون .

- اعتراف وتعاون وعلاقات مع (سرطان الأمة العربية) الحديث والمعاصر : الدولة الصهيونية العنصرية.
- تحالف مصرى (مع آخرين) أمريكى : حرر الكويت، وتسبب فى تدمير وإذلال وتجويع العراق.
- استقطاب طبقى حاد، تتكاثر فيه الملايين والمليارات (المالية) فى أيدى نفر قليل من الأغنياء، وتساقط ملايين (البشر) تحت طأة الجوع والفقر .
- خضوع شبه تام لوصفات صندوق النقد الدولى والبنك الدولى حتى تحصل مصر على ضمان السير فى الطريق الرأسمالى التابع .
- انحسار واضح لمجانية التعليم ومحاصرتها، لرفع التكلفة بحيث يكون أداة فرز طبقى يتيح لمن معهم المال، المرور، ويستبعد من ليس معهم .

وهذا كله - وغيره كثير - إنما هو ممارسات مضادة تماما لمقولات اليسار ..

لماذا إذن يفتح النظام صدره لقوى اليسار ؟ وهل لليسار أن يرحب بذلك ؟

إن تفسير سلوك النظام، إنما يكمن فى محاولة فهم ذلك المسار الذى بدأ النظام يتجهه، من حيث احتلال موقعه فى هامش النظام الرأسمالى العالمى ... هذا النظام الذى فقد عدوه التقليدى فى السنوات الثلاثة الأخيرة، وبأ يفتش عن عدو آخر، إن لم يهدده اليوم، فقد يهدده غدا ، حيث رأه فيما يسمى (بالظاهرة الأصولية)، لا نقول ذلك (تخمينا) وإنما استقراء لبعض أقوال لزعماء ومفكرين غربيين كبار لايتسع المقام للاستشهاد بها، ولابد بالتالى للنظام المهيمن أن يبث الرعب فى قلوب النظم التابعة من نفس الظاهرة حتى يضمن توجههم إليه واستمراره ليدفع عنهم (الخطر المزعوم) .

وإذا كانت جماعات عنف فى التيار الدينى فى مصر تقدم،، بكل الأسى والأسف، المبرر لضرورة مواجهتها بأفعالها الطائشة، فإن هناك شواهد لجماعات أخرى تؤمن بمنطق المجادلة بالتى هى أحسن، ومع ذلك، يُضيق عليها الخناق وتحاصر، ويسمح لأصوات أخرى من موظفى الحكومة الدينيين، مما يشير إلى رفض النظام للظاهرة بكليتها .

ولأن النظام الحاكم لا يملك الفكر القادر على مواجهة الفكر الآخر، ولأن ثوبه ملطخة بالأوحال والأحبار، اشتدت حاجته إلى موازرة فكر يسارى يملك قوة الحجة والمقولات الحسنة. والنظام إذ يمد يده لقوى يسار، يشعر بأنه لم يعد خائفا من طمع فى انقلاب سياسى عليه، بعد أن تهاوى الاتحاد السوفيتى ومعظم النظم الشيوعية، وهو كذلك يمد يده لقوى شعرت بحرمان

طويل من أن تحتل ما تستحقه من مواقع .

إن هذا التوجّه من النظام الحاكم يمكن أن يكون مفهوما ...

لكن استجابة قوى يسار، تحتاج إلى وقفة وإلى مراجعة ..

إن احتلال بعض الكتاب لمواقع متميزة فى الصحف والمجلات وأجهزة الإعلام، هو حق طبيعى ينبغى عدم المنازعة فيه، ما داموا قادرين على العطاء الفكرى والتغذية الثقافية التى تبعث أسباب القوة الذاتية فى جسم الأمة والصحة العقلية لعقل الأمة ..

لكن غير الطبيعى - من وجهة نظرى على الأقل - أن يوظف اليسار مواقعه الجديدة لخدمة أهداف النظام الحاكم ، والتى هى مؤدية فى نفس الوقت لتحقيق أهداف شيطان العصر : أمريكا، ومن ثم تبرز علامات استفهام : هل كانت معارك النضال ضد شيطان العصر من قبل مجرد مسايرة للاتحاد السوفيتى وما دام لم يعد موجودا، نلقى السلاح، أم أن ذلك كان من أجل مبادئ لم تفقد مبرراتها المنطقية والتاريخية بعد، فيستمر النضال؟

كذلك فإن اليسار يقع فى خطأ التعامل مع التيار الدينى وكأنه كل متجانس ، بينما هو حافل بالفصائل والقوى المختلفة. وأكاد أدعى أن الفصيل الممسك بأدوات القتل، غير معترف به من الجميع، لا من خارج التيار الدينى وحده، وإنما من داخله كذلك .. لكن الكارثة، أن شخصا واحدا يمسك بأداة تهديد بالقتل، يلفت انتباه وأنظار الجميع ويوحى بكثرة مزعومة وقوة موهومة. فكيف يقع اليسار فى هذا الخطأ وهو نفسه يحفل بالعديد من الفصائل والشعب والألوان التى قد يصعب حصرها؟ .

إن من حق اليسار بطبيعة الحال أن يضاد ويعترض ويستنكر مايشاء مما تفرضه المواقف والأحداث، ولكنى أرجو منه أمرين :

الأول : ألا يضع نفسه، دائما، فى مواجهة مضادة للتيار الدينى بأجمعه، وذلك أن استقراء المقولات الأساسية فى الإسلام، يكشف عن اتفاق كبير بينها وبين مقولات (التقدمية)، وفى الوقت نفسه، فان كلا من الصهيونية والإمبريالية عدوان مشتركان :

فالإسلام يحرم استباحة فرد لدم آخر ..

والإسلام ينه عن الاستعباد والاستغلال ويقف فى صف الضعفاء والفقراء ..

والإسلام ينشد حرية الفكر وحرية العقيدة (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم)

والإسلام يستهدف إعمار الأرض وحسن استغلالها لمصلحة عموم الأمة .. إلى غير هذا وذاك من مقولات .

وإذا كان هناك بعض ممن ينتسبون إليه يفعلون ويقولون بغير ذلك، فليمد اليسار يده إلى آخرين كثيرين يؤمنون بذلك. وعندما أقول (كثيرين)، لا أقول ذلك (رجما بالغيب)، وإنما استقراء للقواعد الشعبية، وما خفوت صوتهم إلا لأنهم لايجدون موقعا على صفحات الصحف الكبرى ولا فى أجهزة الاعلام بعيدا عن أساليب التزلف والوقوف على الأعتاب .

الأمر الثانى : ألا تغفل عين أصدقائنا عن المتابعة والملاحقة المستمرة لصور الاستغلال الفاضحة والمفزعة، التى أصبحت تحاصر حاضرنا وتخنق أحلامنا، وصور التبعية التى أصبحت تسمم واقعنا وتحرق زروع آمالنا .

وإذا كنت فى نهاية كلمتى هذه أتمنى بطبيعة الحال الاستجابة لدعوتى، فإننى كذلك أتمنى ألا تضل هذه الكلمة طريقها إلى العقل الواعى الذى يبصر مافيها من صدق، وألا تضل طريقها إلى القلب السليم الذى لا يسئ الظن فيهرع إلى القلم، لا مناقشا، وإنما مهاجما بانفعال، ولتكن تلك الدعوة فاتحة حوار لاقطعا الطريق و (ربنا لا تؤخذنا بما فعل السفهاء منا)

ستؤكلون يوم يؤكل الثور الابيض* !!

فى عدد واحد من مجلة اليسار (يونية ١٩٩٦) عرضت قضية واحدة، هى موضوع مقالنا، مرتين: الأولى من خلال تغطية السيدة أمينة النقاش لاجتماع اللحنة المركزية لحزب التجمع، حين أشارت إلى اختلاف فى الرأى حول الإجابة عن تساؤل خاص بالعدو الرئيسى للتجمع : سياسات الحكم ؟ أم ممارسات جماعات العنف المسلح التى تنتمى إلى تيار الإسلام السياسى؟ وبالطبع فإن الإجابة عن هذا التساؤل التى تحدد مع من يتحالف التجمع ؟

وعلى الرغم من أنى لا أشرف بعضوية التجمع، فإننى أستأذن فى مناقشة هذه القضية، وإن كان هذا يمكن أن يثير فى وجهى تساؤلا استنكاريا (ولماذا تحشر نفسك) ؟

والحق أنى (أحشر نفسى) فى هذه القضية لأربعة أسباب:

أولهـــا : ظنى بأن أى حـزب ليس ملكا لأعضـائه فـقط وإنما هو ملك للأمـة مما يعطى حـقا للإنسان بأن يناقش قضاياه مشاركة اهتمام وليس حتما مشاركة انتماء .

ثانيهـا : أن هذه القضية تمس تيارا آخر مغايرا الى حد كبير ، أعتبر نفسى متعاطفا مع بعض مقولاته الأساسية ألا وهو تيار الفكر الدينى، الذى يرفض مصطلح (الإسلام السياسى) .

ثالثهـا : أنه رغم هذا الانتماء، فقد تعاونْت عدة سنوات ماضية، مع صحافة التجمع، وكانت تجربة رائعة أعتز بها غاية الاعتزاز، وهى تبرهن على إمكان ماسوف يبرز من خلال مقالى الحالى .

رابعهـا : أن التجمع يضم شخصيات، مهما بلغت درجة الاختلاف معها، فلا يملك الانسان لها إلا التقدير والود والإعجاب .

وأبادر فأقول، إن صياغة التساؤل الرئيسى بهذه الصورة المشار إليها فى مستهل المقال قد توحى لمن لايتعمق القضية ويعى أبعادها وتوابعها أن الإجابة لابد وأن تكون فى صالح سياسات الحكومة، ذلك أن ممارسات جماعات العنف المسلح، مهما ساق أصحابها من مبررات وحجج، فإن كل من يملك الحد الأدنى من الحس الوطنى والوعى الدينى السوى، لابد أن يقف ضد هذا التدمير وذاك التخريب .

---

* نشر بمجلة اليسار، يولية ١٩٩٦ .

لكن القضية، من وجهة نظرى، لابد من مناقشتها حتى تتضح الحقيقة وتبرز الإجابة الصحيحة، فهناك تساؤلات أخرى تحتاج الى طرح :

فماهى هوية الحكم القائم؟ ومع من يتحالف ويتعاون بالداخل وبالخارج ؟ وفى أى إطار يمكن الحكم على ممارساته ؟ ومع أى الطبقات والشرائح الاجتماعية يعمل ؟ وعلى أى أسس من الشرعية يقوم ؟

إن الاجابة عن هذه التساؤلات تحتاج مقالا مستقلا، بل لا أبالغ إذا قلت أنها تحتاج إلى عدة مقالات، ويكفى أن يراجع القارئ مجموعة من أعداد مجلة اليسار نفسها حتى يتطيع أن يلمح الخطوط العامة لسياسات النظام القائم :

- فهو حكم لا يجئ نتيجة اختيار حر من جماهير الأمة .
- وهو حكم يبطش بكل من تسول له نفسه التفكير فى أن يستخدم حقه فى أن يشارك فى الحكم بالطرق والأساليب الديموقراطية المتعارف عليها إذا كان من جبهة غير حكومية .
- وهو، لا نقول يضع يده، وإنما وضع نفسه فى جيب قوة غشوم أصبحت تنفرد بتقرير مصير العالم، وتمارس صورا من البغى والاستغلال تتضاءل معها كل صور البغى والاستغلال التى مارستها القوى الامبريالية غير قرون طويلة، وإن كان ذلك بأساليب علمية وتكنولوجية عصرية غاية فى التخفى، وهى بطبيعة الحال : الولايات المتحدة الأمريكية .
- وهو حكم تؤدى أساليبه وممارساته ونظمه إلى أن (يُفرّخ) عددا كبيرا من كبار اللصوص الذين ينهبون عشرات ومئات الملايين، وفى نفس الوقت يكون لهم من الأساليب ما يمكنهم من أن يخرجوا، وفقا للتشبيه الشهير، «مثل الشعرة من العجين» أبرياء براءة الأطفال، وربما دخل السجن بدلا منهم، الذين يفضحون أمرهم !!
- وهو حكم لم يعد يكتفى بالهرولة إلى إسرائيل ، دولة العنصرية والعدوان، وإنما أصبح (وكيلا) (يسوق) السعى اليها، حتى إذا وجد آخرين يهرولون، عاتب ولام، لا بسبب الهرولة، وإنما خوفا من أن يفقد توكيله !!
- وهو حكم يأخذ من الشمولية ومن الليبرالية أسوأ ما فيهما متجنبا أفضل ما يملكان : فهو يتعامل مع قضايا الفكر والثقافة بمنطق الهيمنة والاحتكار، ومع النشاط الاقتصادى بمنطق الحرية، وبذلك يحقق مصلحته فى الاستمرار، فهو يمسك بمقاليد الفكر والثقافة حتى يضمن صياغة العقول وفقا لما يريد، فيفكروا فى الاتجاه المراد، ويزيح عن نفسه هم إشباع الحاجات الأساسية لجماهير الأمة من مسكن وغذاء وتعليم وملبس وسلع عديدة أصبحت

الحياة المعاصرة تعتبرها من الضروريات، ادعاء الايمان بالحرية والمبادرات الفردية .

عندما يتأمل الناس فى بعض هذه الخطوط العامة والممارسة الكلية للنظام القائم، يجد أنه لابد أن يفرز عنفا، نقول ذلك لا تبريرا، كما قد يسعى إلى فهم ذلك سيئو النية، وإنما نقوله سعيا للفهم والتفسير، بترجيح احتمال دون القطع والجزم .

هذا العنف، يتعمدون الترويج لمقولة أنه قاصر على رافعى راية الدين، وكل مسلم يعلم علم اليقين أن دينه يستحيل أن يسمح للأفراد، فرادى وجماعات، برفع السلاح على آخرين يشاركونه تراب الوطن، وأن النهى عن المنكر أمر منوط بجملة الأمة عن طريق من يمثلونها رسميا، أما على المستوى الفردى، فهو محصور فى دائرة سلطة كل منا (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)، فالأب والأم مسئولان عن ذلك داخل الأسرة، والمعلم مسئول عن ذلك داخل فصله ... وهكذا . وحتى فى هذا النطاق، يخرج عنه، مايقع تحت طائلة المساءلة التي تحددها التشريعات .

إن العنف ظاهرة (مجتمعية) عامة منذ السبعينات ..

ولقد سعيت لفترة غير قصيرة فى تجميع قصاصات صحف تنشر جرائم فى صفحات الحوادث، لأجد ما يثير الفزع لظهور نوعية من الجرائم الجديدة على مجتمعنا :

- قتل آباء وأمهات لأبنائهم .
- قتل أبناء لأبائهم وأمهاتهم .
- اعتداء طلاب على معلميهم .
- هروب واسع النطاق، وخاصة لدى الشباب، إلى عالم المخدرات .
- ارتفاع معدلات نهب المال العام وتضخم مقدارها وسهولة إفلاتها، وعلو قدر القائمين بها .

إننا هنا أمام نظرية الأوانى المستطرقة .. ظاهرة عنف عام تمثل القاعدة ، ثم تظهر فى هذا الشكل أو ذاك : فى غش للامتحانات .. نهب للمال العام .. عنف مسلح، وهكذا .

لكن، لأن الدولة لا يهمها إلا أمن (النظام)، لاتهتم ولا تكشف الإعلام والأحاديث والمناقشات إلا على ذلك العنف الذى يتجه إليها كنظام، مستغلة مايقع من ضحايا مدنيين خلال مايتم من جرائم بشعة وانحراف لايقره أحد .

ولا أريد أن أشير الى ما تمارسه الدولة نفسها من (تعسف فى استخدام السلطة)، فضلا عن عنف مسلح، والضرب فى المليان، دون حاجة إلى تحقيقات ومحاكمات، حتى لاذكر أننى صعدت مرة بسيارتى إلى كوبرى أكتوبر من الدقى، فإذا بى أجد حرسا كثيرا، ومع ذلك،

لم يمنعنى أحد كما هى العادة، ثم إذا بى أرى خلوا تاما من السيارات المارة فوق الكوبرى، ولا أحد أيضا يمنعنى، فظللت سائرا ببطء شديد، برغم إغراء (الخلاء) لمزيد من السرعة، وذلك لرعبى من احتمال أن يظن بى شئ فتنطلق الرشاشات على ظنا بأننى (مقتحم) أو (هارب) !

والخلاصة، إننا نجد أنفسنا لا أمام خيارين: إما سياسات الحكومة أو عنف جماعات، فالثانى نتيجة الأول.

وإذا كان حديثنا هذا يشير إلى أن (العنف) إنما هو (نتيجة) وليس سببا، إلا أننى أعى تماما باحتمالات أخرى يمكن أن توجد، ذلك أن الظواهر الاجتماعية على درجة كبيرة من التعقد، بحيث قد يكون من العسير الإمساك بسبب بعينه لنحكم بأنه هو المسئول وحده .

وإذا كانت صياغة التساؤل الرئيسى بالصورة المشار إليها فى مستهل المقال غالبا ما تؤدى إلى ترجيح كفة (موالاة) سياسة الحكومة، حيث أنها هى التى تتصدى علانية لجماعات العنف المسلح، فإن هذا هو الباب الواسع الذى أثار، وما زال، كثيرا من الهمس الذى أصبح يتردد على ألسنة كثيرين سواء من المغايرين أو الأصدقاء .

وأرجو أن يتسع صدر أصحاب هذا الخيار لما سوف أشير اليه مؤكدا أننى لا أسوقه باعتباره قائمة اتهامات، أو نماذج منها، وإنما أصدر فى هذا من موقع (الصديق)، حتى ولوكان (سابقا) وفقا للمقولة التى تذهب الى أن صديقك من صدّقك القول لا من صدّقك .

فمن (توابع) هذا الخيار أن النظام الذى يقف بكل أسلحته ووسائله وألعابه أمام فئات أخرى حتى لا تمارس حقها فى العمل الديموقراطى عن طريق مجلسى الشورى والشعب، يلاحظ المراقب، أنه (يسمح) بنجاح عدد من مرشحى التجمع، نقول (يسمح) ونحن على ثقة بأن هؤلاء يستحقون النجاح فعلا، لكننا فى الوقت نفسه نتساءل : ولماذا لم يحدث هذا قبل انتخابات ٩٠ ؟ وأليس هناك كثيرون يستحقون النجاح، ومع ذلك لايسمح لهم بذلك ؟ فالمعروف أن النجاح والسقوط هنا ليس معيارهما فقط (الجدارة) وإنما هو (رضا) الدولة فى المقام الأول .

ومن التوابع أيضا ماسبق أن أشرنا اليه فى مقال مشابه نشرته (اليسار) منذ فترة لنا كان عنوانه (اليسار الذى فى المصيدة)، وكان ينصب على تحقق مخاوف كنا قد أشرنا اليها فى بداية السير على طريق هذا الخيار فى مقال أسبق بالأهالى عقب انتخابات ٩٠ بعنوان (حتى لايقع اليسار بالمصيدة) .

من هذا الذى أشرنا اليه، هذا الانتشار الملحوظ فى أجهزة الاعلام والذى لابد أن يثير

التساؤل : كيف يتأتى لحكومة مغرقة فى اليمينية أن تفتح ذراعيها لقوى يسار ؟ عن إيمان ياترى، أم (استغلال) و (استخدام) ؟!

ثم إن هذه الأيادى اليسارية المرحبة المتعاونة، ألا تخشى الشبهات التى يمكن أن تثار حولها ؟ هل تستطيع إفحام من قد يرون فى ذلك (تعبا من النضال) وتوقا إلى مغانم السلطان التى قد تتبدى فى صورة مناصب أو سفريات أو نفوذ ؟ أم سيستخدمون مهاراتهم الثقافية وقدراتهم الفكرية فى الارتكان إلى مقولات (النظام العالمى الجديد) و(المرونة الفكرية) وغير هذا وذاك من حجج ؟ ومن أكثر الحجج مدعاة للسخرية حقا ، ما يقوله البعض بأن قربه من السلطان يتيح له فرصة الإصلاح والتقويم، مع أن المعروف والمشهور أن القرب من موقع السلطة يحدث عملية (تليين) تدريجى يؤدى إلى تبنى مقولات السلطة نفسها حتى ولو كانت خاطئة ومنحرفة، بل والتحمس لتبريرها وتسويغها، لأن مثل هذا النفر إنما يبرر سلوكه هو ويحاول أن يقنع ضميره بأنه مازال على طريق الحق سائرا، هؤلاء النفر الذين أصبحوا يمثلون أمام المراقبين فريق (السوفسطائيين الجدد) .

ومن بين مايدافع بعض هؤلاء عن مسلكهم أن العمر قد تجاوز بهم مرحلة التطلع الى منصب، وأن الله قد أفاء عليهم بما لايجعلهم بحاجة إلى (ذهب المعز)، ولكن يظل الهمس مستمرا، ذلك أن (قوة النفوذ) أحيانا تفوق المنصب والمال، حيث يلمس كثيرون - عمليا - كم يمكن أن يكسبوا هم الكثير، فى صورة منصب أو مواقع مرموق نتيجة (رضا) أصدقاء السلطان !!

المناسبة الثانية التى جاء فيها ذكر القضية الأساسية، فى نفس العدد من (اليسار)، هى مقال الدكتور عبد العظيم أنيس، وهو إذ يعبر عن موقفه، لثالث مرة، تجاه هذه القضية إنما يشخص الوضع تشخيصا نتفق فيه معه تمام الاتفاق، ولعل هذا الموقف هو أحد مظاهر كثيرة تجعل كثيرين، وأنا واحد منهم، يستمرون فى شعورهم بالتقدير والاحترام لهذا العملاق العظيم، والمفكر الكبير، فهو يشير الى أن هناك قسما من اليسار المصرى يرى «ان الوضع الدولى بعد انهيار المعسكر الاشتراكى وهيمنة الاستعمار الأمريكى يحتم إعادة تنظيم القوى الوطنية فى جبهة عريضة جدا محليا وعربيا، وهى ضمان صمودنا فى مواجهة أمريكا وإسرائيل والصهيونية، وأن البعض من قوى الإسلام السياسى هم قوى وطنية لاينبغى أن نتجاهلها» .

إننى لا أخفى على القارئ مقدار سعادتى لهذا التشخيص العلمى الدقيق الأمين . ويكفى أن أشير الى بعض اطمئنان شعرت به عندما أجد مصطلحا مثل (الاستعمار الأمريكى) مازال

حيا، إذ أقول الحق، لقد كان أن يختفى من كتاباتنا، فلا نجد أحدا يشير إلى (الإمبريالية) وإلى (الاستعمار) منذ انهيار المعسكر الاشتراكى، فهل الذى اختفى هو هذا المعسكر أم هو الاستعمار أم أن الاستعمار كان مجرد أكذوبة روجها المعسكر الاشتراكى وأن الموجود حقيقة، هو (الشراكة) و (الاعتماد المتبادل) و (الكوكبية) و (العولمة) ؟!

إن الإنسان ليضرب كفا بكف متسائلا فى استنكار شديد : هل صحيح أن مقولة (الصراع) قد بطلت؟ إن الله عز وجل يسجل فى كتابه الكريم (ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض)، فقصة البشرية منذ الأزل هى قصة صراع بين حق وباطل، خير وشر، مستغلين (بفتح الغين)ومستغلين (بكسر الغين)، ولم تختف الإمبريالية أبدا .. إنها الآن تتخفى فى معاهدات واتفاقيات، وتتوارى وراء سطور كتب وصحف ومجلات، وتختبئ فى شركات ومصانع، وتلبس أقنعة بين جيوش من خبراء مدنيين وعسكريين .. وهكذا . فإذا كان انهيار المعسكر الاشتراكى قد أدى إلى سقوط بعض الأفكار والمقولات، إلا أن هناك أفكارا أخرى لايمكن أن تسقط مثل هذه المقولة، بدليل بسيط، هو إيمان كاتب هذه السطور بها، برغم أنه يقف خارج المعسكر الماركسى ذلك لأن هذه المقولة على درجة عالية من الصدق والموضوعية مما يجعلها تفرض نفسها على كل عقل يستمر فى ممارسة التفكير دون أن يصاب بشلل الصدمة أو انبهار الرؤية .

إن الوعى بهذا يجعلنا نبصر أمرا هاما يغفل احتماله كثيرون، وهو : من أدرانا بأن بعض (لا كل) أحداث العنف المسلح بالداخل المصرى والتى تنسب لجماعات دينية، إنما هى بفعل وتحريض قوى صهيونية أو أمريكية ؟

طبعا سيهب البعض مرددا اتهامنا بالوقوع فى أسر نظرية (المؤامرة)، ونحن نقسم لهم بالله أننا نعيها جيدا ولا نعول عليها دائما، ولكننا أبدا لا نستطيع تجاهلها فى بعض الأحوال .

إن الهجوم فعال وصريح الآن من كلا الطرفين : إسرائيل وأمريكا على التيار الدينى الإسلامى، ومن مظاهر هذا، الحرص على (توتير) العلاقة بينه وبين السلطة القائمة ، ونسف أى جسور يحاول أحد أن يقيمها للتفاهم، ذلك أن القوى التى ترفع السلاح الآن ضد العنصرية الصهيونية والامبريالية الأمريكية هى قوى دينية إسلامية، فماذا عندما نردد نحن أو بعض منا نفس اتهاماتهم ومقولاتهم ؟ هل الولايات المتحدة واسرائيل أحن على مصر والعرب من المنتمين إلى هذا التيار ؟

أرأيت إلى هذه الزلزلة التى رجت الدنيا لمقتل مايقرب من أربعين اسرائيليا إلى الدرجة

التى جعلت الجميع، وفى مقدمتهم مصر .. قلب العروبة والإسلام، يتنادون إلى مؤتمر عالمى فورى فى شرم الشيخ لمحاربة الإرهاب !! إرهاب من ؟ انتقام مجموعات من أصحاب أرض محتلة لمقتل يحيى عياش ومن قبله الشقاقى ، ألم ير أحد إرهابا من إسرائيل وهى تقتل وتجرح كل أسبوع عبر خمسين عاما، وأكثر، ألم ير أحد إرهابا من إسرائيل وهى ماتزال، فى ظل اتفاقات سلام، تهدم البيوت وتعتقل وتحاصر وتجوع ،

أرأيت إلى هذا الذى ظل يحدث طوال مايقرب من أربعة أعوام على أرض البوسنة والهرسك بتواطؤ غربى واضح راح ضحيته مئات الألوف من المسلمين الذين لم يتهمهم أحد بالإرهاب والعنف، ولم تهتز شعرة لا من الغربيين ولا من العرب والمسلمين، حتى إذا تأكدت القوى المهيمنة أن الضحية قد (استوت) تقدموا بحل، لاندرى : لماذا لم يجدوا مثل هذا الحل من قبل ؟

إننى عندما يتصادف أن أقرأ وأسمع أو أشاهد شيئا من هذا، مع آخرين، أرى فى عيونهم غضبا مكتوما ورغبة دفينة فى الانتقام من كل من شارك بالفعل أو التشجيع أو الصمت فى كل هذه المآسى

سوف يبادر البعض ليقول : إننا لا نهاجم التيار الدينى على إطلاقه، وإنما الممارسة للعنف المسلح تحت ستاره .

وهنا نأتى للجانب الآخر الذى أشار ليه بعمق وعلمية ودقة أستاذنا الكبير د. عبد العظيم أنيس عندما قال إن القسم الذى أشار إليه من اليسار المصرى «لا ينظر إلى تيار الإسلام السياسى ككتلة واحدة صماء متجانسة، بل يدرك أنه، حتى ولو كانت منابع كل أجزاء هذا التيار الفكرية واحدة - وهذا فى رأيى غير دقيق - إلا أن هناك بينهم تيار معتدل سيسيا لا يؤيد العنف ومستعد لممارسة الطريق البرلمانى الجماهيرى فى النضال ..» .

إننا كنا نلاحظ بالفعل تركيز النقد والهجوم على تيار العنف والتطرف، ولكننا فى الفترة الأخيرة بدأنا نسمع نغمة جديدة، ونشاهد تحولا واضحا - لم أدهش له شخصيا بل وتوقعته - تشير إلى أن ليس هناك تباين وتمايز داخل التيار الدينى، فكلهم - هكذا يصورون - متطرفون ودعاة إرهاب، وأن المسألة هى مجرد توزيع أدوار، وكأنهم بهذا يساوون بين فهمى هويدى وبين عمر عبد الرحمن، بين د. العوا وبين الاسلامبولى، بين محمد عمارة وبين أيمن الظواهرى !!

فى كل الدنيا وعبر عصور التاريخ، نجد حتى فى داخل الحزب الواحد أو المذهب أو العقيدة أو الفلسفة ألوانا واجتهادات، وأبسط مثل، مانراه فى الفكر الاسلامى من انقسام إلى

سنة وشيعة، وداخل كل منهما مذاهب وفرق مختلفة، وهكذا الأمر فى المسيحية، وفى الماركسية.. الخ ، ومع ذلك يجئ البعض هذه الأيام ليقولوا : لاتصدقوا أن هناك متطرفين ومعتدلين فى التيار الدينى .. إنها أدوار موزعة ، وهذا الفكر بطبيعته ينبت التطرف والإرهاب !!

إن البعض أصبح يشعر بالخوف من أن يكون هذا التطور فى التشخيص ممهدا لخطة تالية وهى الحرب العلنية ضد التدين عموما .

إن الوعى بطبيعة هذه الأمة، والبصر الذكى بتطور ثقفتها، لابد ألا يغفل عن جوهرية التفكير الدينى، والمعروف أنه قد تأصل فى مصر حتى قبل ظهور الأديان السماوية، وليس من الذكاء فى شئ معاندة هذه الحقيقة، وحسن التعامل مع هذه الحقيقة بعيدا عن أساليب وصور التخفى التى قد تبرر الهجوم بأنهم إنما يقصدون صور الانحراف الدينى، فهناك أمثلة متعددة لايتسع المقال الحالى لها، يمكن الاستشهاد بها لترجح أن المسألة قد بدأت تتجاوز بالفعل هذا الحد .

فاذا انتقلنا إلى نقطة أخرى تشعرنا بالحاجة إلى هذا التشخيص الواعى للدكتور عبدالعظيم أنيس فسوف نجد، على سبيل المثال لا الحصر، ما حدث فى عدد من النقابات .. قد تكون هناك أخطاء، فليس هناك من يبرأ منها تماما، ولكن، هل ماظهر من تشريعات وماحدث من حراسات وحملات عسكرية هو الحل الصحيح ؟ وهل خلت الدورات السابقة فى تلك النقابات مما أخذ عليها من مخالفات ؟!

وهؤلاء العشرات الذين بينهم علماء وخبراء وأساتذة جامعيين كبار الذين سيقوا إلى محاكمات عسكرية وزج بهم فى السجون، ولم يؤكد أنهم أصحاب عنف، وإنما هم أصحاب رأى، مهما اختلفنا حوله، فان أحدا لم يدافع عن حقهم فى التعبير عن رأيهم .

إن ماحدث للصحافة المصرية من هجمة تتارية شرسة ليس بعيدا عن هذا وذاك، فهو حلقة فى سلسلة متصلة من جهود مستميتة لاحتكار الرأى والاستئثار بالحكم . إنه نفس النهج الذى ألغى انتخابات العمد والعمداء، ويمهد للغارة على الجمعيات الأهلية، والعصف بالمحكمة الدستورية ..

صدقونى ... سوف تؤكلون، يوم يؤكل الثور الأبيض !!

منحـــة ؟ ام محنـــة ؟!*

على الرغم من أن الخطاب السياسى الرسمى يوجب التعليق الفورى، فإنى أستأذن القارئ، وأستميحه عذرا فى أن يجئ تعليقى على خطاب السيد الرئيس فى عيد العمال بعد مرور مايقرب من شهر عليه، رغم أن تأخر هذا التعليق يمكن ألا يترك لمثلى مزيدا مما يمكن قوله .

لكنى بررت لنفسى - وأرجو أن أكون مقنعا للقارئ - مثل هذا التأخير استنادا إلى أمرين : أولهما، أن الفورية فى التعليق السياسى، إذا كانت مطلوبة ولها وظيفتها، فإن (التأنى) و (التريث) قد ينقى التعليق المتأخر من ردود الفعل الانفعالية ويتيح الفرصة لمزيد من إعمال العقل والتفكير .

ثانيهما، أن ما يهمنا بالدرجة الأولى هو (منهج التفكير) دون مضمونه، إلا بالقدر الذى يعين على الشرح والتوضيح . والمنهج ليس أمرا موقوتا بمناسبة أول مايو أو غيرها، وإنما هو يتبدى ويتضح دائما فى المظاهر السلوكية المختلفة والمواقف المتعددة .

ومن هذه الناحية بالذات، فإننى أذكر القارئ بأن النغمة السائدة فى حديث السيد الرئيس عن الوضع الداخلى هى الشكوى من سوئه وخاصة فى المجال الاقتصادى إلى الدرجة التى جعلت مصر تتوقف عن سداد ديونها، وإلى الحد الذى وقف فيه الرئيس ليتساءل : نجيب منين ؟!

ترى، لو أن واحدا من الناس جاءك يشكو سوء حاله من أن مصروفات أسرته تزيد عن دخله، وأنه، أحيانا، لايستطيع أن يدفع إيجار الشقة، وأن الديون قد تراكمت عليه، وأن هناك من العجز مايجعله أحيانا لايستطيع كذا وكذا مما هو أساسى وضرورى فى حياة الأسرة . فماذا يمكن أن تستنتج ؟

إنها، كلها، مقدمات تستلزم نتيجة متصلة بها اتصالا منطقيا . لكن لو أن هذا الإنسان فاجأك بعد كل هذه المقدمات، وقال إنه قرر أن يمنح كل فرد من أفراد الأسرة مبلغا من المال، فعن أية مقدمات جاءت هذه النتيجة ؟ وبماذا يمكن أن تفسر هذا المسلك ؟

إن هذا هو بالضبط انطباعى المفزع نتيجة سماع خطاب السيد الرئيس، مما أعجز قلمى

---

* الشعب فى ١٩٩١/٥/٢٥ .

عن أن يصدر حكما تاركا للقارئ ذلك .

ولنمض فى التشبيه ... لنفرض أن شخصا أعلن أنه سيهديك خمسين جنيها، وفى نفس الوقت أعلن أنه يتعين عليك أن تدفع دائما وباستمرار مبلغا يتفاوت من حين لآخر وفقا للموقف، مما اعتبره مستحقا عليك !

لم تكن (منحة) إذن تلك التى أعلن عنها فى عيد العمال، وإنما كانت (محنة) بكل المقاييس . ولا أقصد بالمحنة هنا ضيقا اقتصاديا وعسرا ماليا - على الرغم من واقعية ذلك - وإنما أقصد محنة منهج تفكير حاكم !!

ويجئ مظهر آخر لهذه المحنة المنهجية، فيُزعم أن الأعباء الجديدة لا تمس محدودى الدخل. ولأول وهلة صدقت ذلك . وتأبى الصدفة إلا أن أضطر للذهاب بعد يومين إلى الطبيب، فاذا بسعرالكشف يرتفع عشرة جنيهات، لا بسبب ضريبة المبيعات، وإنما لمواجهة الأعباء الجديدة !! ويصل إلى سمعى قول زميل، تعليقا على هذه الأعباء الجديدة، بأنه مضطر إلى رفع سعر الكتاب المقرر على الطلاب !!

مامعنى هذا ؟

معناه أن كل صاحب عمل لن يدفع التكلفة الجديدة من جيبه وإنما سيعمل على أخذها من آخرين برفع سعر سلعته، طبيبا، مهندسا، محاميا، ميكانيكيا، سباكا .. وهكذا . بل إنه، فى سبيل ذلك، سيجئ بمزيد من الأرباح . ويظل هذا يأخذ من ذاك إلى أن نصل إلى هذا المستوى من الجماهير الذين يدفعون دون أن يستطيعوا التعويض من آخرين .. إنهم محدودو الدخل .. موظفو الحكومة، والفراشون والعمال البسطاء ومن فى مستواهم، وهكذا نجد أن محدودى الدخل فى النهاية هم الذين سيدفعون الثمن !!

ترى، بماذا يمكن أن تصف أيها القارئ هذه الدعوى الرسمية على أعلى مستوى، بأن الأعباء الجديدة لن يتحملها محدودو الخل ؟

لم تكن منحة .. وإنما محنة .. محنة منهج فى التفكير وأسلوب فى المواجهة !!

ويذيع السيد الرئيس أرقاما تتعلق بزيادة أسعار فى دول أخرى، فهذه زادت أربعة أضعاف، وتلك خمسة، وهذه سبعة .. وهكذا، بينما لم تزد سلعنا إلا بنسبة الربع أو الثلث .

لكنك بإعمال قليل من العقل، تستطيع أن تسأل : على أى أساس تتم المقارنة ؟ فلابد من توحيد سنة الأساس، مثلا، فمن الجائز أن تكون الزيادة التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى، مثلا، إلى ثلاثة أضعاف إنما جاءت بعد فترة استقرار فى السعر دامت أكثر من عشر سنوات،

ولا يكون ذلك مما حدث مثله عندنا . كذلك فالمسألة تتعلق بشبكة متكاملة من السلع والخدمات الخاصة بالمواطن ، إذ قد يتحمل غلاء شديدا فى سلعة، بينما يحصل على أخرى بثمن بخس.. وهكذا .

إنها طريقة الاصطياد فى المقارنة بما يعزز دعوى الحاكم، تماما مثلما إذا قلت أن فى أمريكا أو انجلترا، من حق المواطن أن يتظاهر معارضا، فيقولون أن هذه مجتمعات مستقرة ولها ظروفها فهى قوية وليست مستهدفة، أما نحن فبلد صغيرة مستهدف، فاذا قلنا أن رئيس جمهوريتنا لايصح أن يكون هو رئيس الحزب، أسرعوا ليقولوا أن أمريكا يكون رئيس الدولة فيها هو الذى رشحه الحزب ولا ضر فى ذلك !

لم تكن منحة .. وانما هى محنة !!

عندما يدير العقل العسكرى مجتمعا !!*

يلحظ القارئ فى الفترة الأخيرة كثرة فى استخدام كلمة (العقل) مقرونة، غالبا، بكلمة أخرى فيقال (العقل العربى) و (العقل الشرقى) و (العقل المسلم) .. وهكذا، ويكون المراد بالنسبة للعقل العربى - مثلا - هو (منهج التفكير) الغالب على العرب فى عمومهم .

وعندما نستخدم كلمة (العقل) هنا، فإنما نريد به نمطا معينا من التفكير خاصا بقطاع بذاته من النشاط البشرى هو النشاط العسكرى .

وإذا كان مصطلح (العقل العربى) يفيد اختصاص العرب - مثل غيرهم - بنمط معين من التفكير، فإنه يمكن التجاوز لكى يوصف شخص آخر أو أشخاص من غير العرب بأن عقلهم عربى، إذا اتصف نهج تفكيرهم بالصفات الغالبة على التفكير العربى، تماما مثلما نجد فى القرآن الكريم تحذيرا لنساء النبى صلى الله عليه وسلم ألا يتبرجن (تبرج الجاهلية الأولى)، فمع أن الجاهلية قد أطلقت على الفترة السابقة لظهور الاسلام، إلا أن السالك وفق منهج الجاهليين فى هذه الفترة، يمكن أن يوصف بالجاهلية حتى ولو عاش فى فترة أخرى تالية، وكذلك وصف الرسول (ص) تصرف أحد الصحابة بأنه دلالة على أنه (امرؤ به جاهلية) !!

ومن هنا، فإذا كانت الحياة العسكرية تقتضى نمطا بعينه من التفكر، فليس معنى هذا ألا يتصف بالعقلية العسكرية إلا العاملون فى القوات المسلحة، وإنما يمكن أن نطلق اللفظ على السلوك الصادر من أى شخص، أيا كان موقعه، وأيا كان نوع نشاطه، وأيا كانت دائرة هذا النشاط، إذا اتسم نمط تفكيره بالصفات الغالبة على هذه العقلية .

واختصاص أهل قطاع ما من قطاعات النشاط البشرى، وكذلك تميز كل دائرة بنمط خاص من التفكير لايعنى حكما بالتحسين أو التقبيح، ذلك أن مثل هذا الحكم إنما يتوقف على مدى توفيق المسلك مع النمط الفكرى الخاص بنفس دائرة النشاط ومدى مساهمته فى تحقيق أهداف هذه الدائرة . لقد كان كثيرون - على سبيل المثال -- يصفون إدارة المرحوم الدكتور رفعت المحجوب لجلسات مجلس الشعب، بأنه يتصرف مثل (ناظر مدرسة)، ولا نظن أن القائلين بهذا يقصدون تقبيح عمل ناظر المدرسة، فهو عمل تربوى إدارى مطلوب، ولكن فى دائرة عمل المدارس، بيد أن هذا المنهج إذا انتقل إلى دائرة أخرى لها منهجها المطلوب والوائم لنوعية

---

* الشعب فى ١٩٩١/٦/٢٥ .

مايجرى فيها من نشاط، يصبح أهلا للتقبيح لا للتحسين .. وهكذا .

ولا أريد أن أشق على القارئ فأصف له السمات المميزة للعقل العسكرى، وإنما يكفى أن أؤكد أن دائرة عمله فى القطاع العسكرى، إذ تقتضى (السرية الشديدة) والمسار الفكرى ذا الاتجاه الواحد من أعلى إلى أسفل، فإنه بقدر توافر هذا فى العمل العسكرى، بقدر نجاح (العسكرى) وتوفيقه، لكن التوفيق الكبير لمسلك فى قطاع بعينه لا يعنى أن تحدث نفس النتيجة إذا تم فى قطاع آخر، ذلك أن نجاحه فى العمل (١) يعنى مناسبته التامة له، وهذه المناسبة التامة إنما تعنى - غالبا - أنه لايصلح فى العمل (ب) .

ومن هنا تجئ مأساة المجتمع إذا أدير بمنطق العقل العسكرى!!

إننا نكرر هنا، حتى لايسئ أحد فهمنا، أننا لا نقصد بأى حال من الأحوال أن نغمط عسكرينا حقهم ونمس قدرهم، فنحن نعى تماما أنهم منا ونحن منهم، وأننا إذ ننام ليلا مطمئنين، فبفضل جهدهم وسهرهم على حماية البلاد، وإنما نحن ندين أن يمتد المنطق العسكرى ليصبح نهجا لإدارة مصر !!

كذلك فنحن نكرر هنا أن موضوعنا لايتعلق بشخص بعينه يكون عسكريا، فالجنرال أيزنهاور كان قائدا عسكريا كبيرا حكم الولايات المتحدة الأمريكية فترتين متتاليتين، وكان الجنرال ديجول عسكريا حكم فرنسا فترة هامة أنقذها فيها من حالة من التردى، لكن هذا وذاك عندما تربع على كرسى الحكم لم تقف المسألة عند حد خلعه للبدلة العسكرية، وإنما خلع معه أيضا منطقا بعينه للتفكير وأخذ يدير المجتمع الذى اختاره ووثق به، وفق منطق إدارة المجتمعات الذى يختلف تماما عن منطق إدارة العمليات العسكرية .

إن هذا إذ يحدث فى مثل هذه المجتمعات، فإنما يدل على أن المؤسسات المجتمعية لها سطوتها ومنهجها الغالب، بحيث تستدخل الحاكم فى بوتقتها ليفكر بمنطق مجتمعى أيا كان موقعه السابق، على عكس مايحدث فى بلدان العالم الثالث، حيث يطبع الحاكم المجتمع بطابعه هو .. يستدخل المجتمع فى بوتقة عقله وعواطفه ومنهج عمله !!

ونحن نسجل هنا بكل أسى، أن طريقة إدارة مصر، مازالت حتى الآن تعلن للجميع أن العقل العسكرى هو السائد . ونستطيع أن نجئ بعشرات الأمثلة، ونشير إلى عشرات المظاهر، ولكن يكفى أن نلفت نظر القارئ إلى مظهر واحد وهو الطريقة التى تم فيها التعديل الوزارى الأخير .. فهنا إشاعة بأن فلان سيجئ وزيرا لكذا، وهناك إشاعة ترشح اسما آخر .. ثم اسما ثالثا .. وهكذا يضرب الجميع أخماسا فى أسداس، ثم، فجأة، يهبط اسم من (أعلى)، غالبا،

لايتوقعه أحد !! إنه المنطق العسكرى : دع العدو يظن أنك ستهجم عليه بعد غد، ولكن لاتهجم إلا قبل ذلك أو بعده فتتم المفاجأة .

دع العدو يتوهم أنك ستأتيه من شمال، فجئ إليه من الشرق، فتتم المفاجأة !

ونكرر أن هذا أمر مطلوب ومحمود فى العمل العسكرى، ولكنه فى إدارة المجتمعات، مأساة بكل معنى من المعانى، لأنه يحمل من المعانى مايشق على القلم أن يسجله .

فى المجتمعات التى نسميها متقدمة، يكون هناك عدد من القيادات بكل دائرة نشاط تخص وزارة بعينها، ولكل منهم (سجل) فى هذا النشاط، فإذا جاء رئيس جديد، يستطيع المحللون وتستطيع أجهزة الرصد أن ترشح هذا أو ذاك، وتتاح الفرصة لكثيرين أن يبدو رأيهم فى هذا الاختيار، حتى قبل أن يتم، ثم يجئ الاختيار - غالبا - بما لايفاجئ كثيرين، وأحيانا ما يُغَير الاختيار إذا ماكشفت بعض الآراء الناقدة عن عيوب فى شخص ما كان الرئيس قد اتجه الى اختياره .

لكننا مازلنا، نحن المصريين، (أنفارا) فى جيش سخرة، قائده هو وحده الذى يعرف إلى أين يكون المسير وهو الذى يشير إلى يمين فنتجه إلى يمين، ويشير إلى يسار فنتجه إلى يسار، فإذا ما بدر من (نفر) أن يسلك مسلكا أخر، يصبح (متمردا) يستحق إطلاق النار عليه .. قد لاتكون النار نار رصاص، وإنما هى الأخرى (منهج حياة)، قد تحيط بالمواطن من كل جانب لتنذره بالمصير المحتوم، والكتبة بأقلامهم وصحفهم جاهزون ليسجلوا خيانة المخالف وحكمة القائد !!

ما أريكم إلا ما أرى !!*

كلنا سمعنا عن مرض (الإيدز) الذى يفقد جسم الانسان المناعة التى أودعها الله فيه لتجعله قادرا على مقاومة ما يهاجمه من ميكروبات وأمراض وآفات .

فماذا عن (الإيدز الفكرى) الذى قد يصيب الأمة فيفقدها المناعة ويجعلها سهلة الوقوع فريسة لقوى البغى والاستغلال ؟

لقد ألفنا أن نقرأ ونسمع عن (الاحتكار) فى قطاع الاقتصاد، ونغمض أعيننا عن صورة أخرى من (الاحتكار) أخطر شأنا وأفدح ضررا، هى (احتكار الفكر) أو (احتكار الرأى) الذى يقيم سياجا حول عقل الأمة فيحرمها من التغذية من عناصر عديدة مختلفة لينمو ويكبر، وتتغذى على صنف واحد بعينه، عادة مايكون رديئا، فيوقف النمو، ويؤدى فى النهاية إلى التدهور والموت، والموت بالنسبة للأمم ليس هو موت أفراد بأجسامهم البيولوجية التى نراها ونلمسها، وإنما هو موت (إرادة) وموت (نهضة) واختفاء فاعلية فى حركة التقدم العالمية .

إن النتيجة الحتمية لاحتكار الغذاء العقلى للأمة، هى أن يصاب عقل هذه الأمة بما يشبه الإيدز، حيث يكون هذا العقل تربة خصبة لكل الموبقات الفكرية والثقافية والعقلية والاجتماعية مثل التعصب والتفكير الخرافى والسطحية والتبعية وقصر النظر وضيق الأفق والسذاجة وندرة، إن لم يكن اختفاء، الإبداع والابتكار .. إلى غير هذا وذاك من سمات مصاحبة بالضرورة.

إن كتب تاريخ مصر الحديثة تحفل بكم كبير من صور (التقدم) والتطور التى شهدتها أرضنا فى عصر محمد على، مما لايستطيع إنكارها إلا جاحد معاند :

مصانع تنتج، ولأول مرة، منتجات مصرية تسد حاجات ملحة ..

معاهد تعليمية تقدم ألوانا ومجالات معرفية لم يكن لها وجود سابق ..

جيش ضخم منظم ومدرب على أساليب الحرب الحديثة ..

ترع وجسور وتنظيم مياه بصورة ضاعفت من الإنتاج الزراعى ..

توسع امبراطورى، جعل المظلة المصرية تظلل السودان والشام، واقتحام للجزيرة العربية وأجزاء أخرى من جنوب تركيا وجزر بالبحر المتوسط .. وهكذا .

ثم : أين ذهب هذا كله بعد عام ١٨٤١؟

---

* الشعب فى ١٩٩١/١٢/١٠ .

تهاوى هذا البناء الضخم لتبدأ مصر مرحلة الركوع تحت سنابك الاستعمار العالمى وقوى البغى والاستغلال عشرات السنين ممتصة طاقات الشعب المغلوب على أمره، مؤخرة لحركة التطور عشرات السنين، فى زمن كان قد بدأ يشهد عَدْوا على الطريق .. طريق النهضة والتحضر .

ستقولون : إنه (التآمر الخارجى) والتكاتف الامبريالى لإجهاض النهضة الوليدة ..

وأقول : نعم إلى حد ملحوظ، ولكن ..

العواصف، غالبا، لاتنزع من الشجر إلا ضعيف الجذور، فارغ الساق ..

ما لم يكن البناء على درجة من القوة والصلابة الداخلية، فإن مقاومته تنهار إزاء الهجوم الخارجى الضارى ..

وإن مايفقد هذا البناء الداخلى قوته وصلابته، أن يتعطل عقل (إنسانه) عن أن يمارس حرية العمل والحركة، ويسير (بالروموت كنترول) يمسكه الحاكم ليجعل جميع أفراد الأمة، أو الجمهرة الكبرى منهم، يهتمون بما يهتم به هو، ويتجهون إلى الوجهة إلتى يتجه إليها هو، ويرون الرأى الذى ينتهى إليه هو، تماما كما وقف فرعون ليخاطب قومه : «لا أُريكم إلا ما أرى»، فيما يروى سبحانه عز وجل فى قرآنه المجيد .

إن المؤرخ عندما يتجاوز هذه الأعمال الضخمة التى شهدتها مصر فى هذا العهد، ليبحث عن (الإنسان) : كيف كانت السلطة تعامله ؟ ماذا كان الموقف من الرأى الآخر ؟ سوف يجد صورا وآيات عديدة، ليست فى صالح حكم محمد على، لينتهى الى أنه كان (فرعونا) آخر،

قد يملأ البطون الخاوية، لكنه يفرغ العقول المفكرة ..

قد يكسى الأجسام العارية ، لكنه يعرى كرامة المواطن ..

قد يؤوى الضال، لكنه يشرد الرأى المخالف ..

ولتدرسوا مثالا واحدا، فيما كان شأن محمد على مع السيد عمر مكرم، الذى استطاع، بتزعمه، لحركة شعبية مجيدة، أن يجعل التاريخ المصرى يشهد لأول مرة، اختيار الجماهير للحاكم الذى يحكمها ؟ ماذا حدث له وهو زعيم مدرسة (المغايرة) ، عندما رفض أن ينضوى تحت لواء مدرسة (المسايرة) ؟

وماذا كان شأن مصر فى الخمسينات والستينات ؟

تحولت إلى (صداع) دائم ومفزع لقوى الهيمنة الخارجية من استعمار ورأسمالية ..

تحولت إلى (ساعد قوى) يعين الشعوب المستعمَرة كى تحصل على استقلالها ..

هل تتسع الصفحات لكى نتحدث عن : الإقطاع الذى تهاوى ؟ والألقاب التى كانت تمايز بين الناس تمايزا طبقيا بغيضا ؟ والصناعة التى أكسبت البلاد إرادة اقتصادية مستقلة ؟ والمطابع التى كانت تخرج كتابا كل ست ساعات بأزهد الأسعار؟ و .. و ... الخ

عشرات المظاهر والآيات المشرقة المشرفة حقا، والتى تجعل الصفحات مضيئة، تبعث على البهجة والاعتزاز .

لكن الجرثومة اللعينة كانت هناك .. كانت هناك فى السجون والمعتقلات التى شهدت مايقف الانسان، غالبا، إزاءه، غير مصدق أن مايروى كان يحدث بالفعل من هول ماقيل، ومن بأس ماحكى، ومن بؤس ماكتب .

كانت الجرثومة اللعينة هناك فى احتكار العمل السياسى .. وفى احتكار الفكر ووأد الرأى الآخر ..

وتتكرر نفس المأساة، فى سنة ١٩٦٧، مشابهة لما حدث عام ١٨٤١، وتتداعى نفس النتائج، وتبرز نفس التبريرات، ونعود بالتالى لنكرر نحن تفسيرنا الخاص .. إننا نؤمن بأن هذا الكون، بكل ما فيه ومن فيه، مخلوق من لدن خالق أحد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . والإيمان بخالق أحد يستتبع منا تسليما له وحده فيما يقول وفيما يرى، ولم يفوض إلا رسله الذين أخبرنا بهم لينقلوا إلينا مايقوله ويراه، لنسمع ونطيع، أما غيرهم من البشر، فلهم مايرون ولنا مانراه، ولكلّ مايراه . ووسيلة التعامل فى مجال هذا الرأى هو مقارعة بالحجة والجدال بالتى هى أحسن والحوار والمناقشة، مشافهة أو كتابة، وليس بين أدوات العلاقات الفكرية والمعاملات العقلية بارود وقنابل، كما ليس من بينها كرابيج وسياط، وسجون ومعتقلات..

ومنذ شهور قليلة، أفزعنى أن أقرأ للسيد رئيس الجمهورية تبريرا لإجراء اتخذه بأنه هو وحده الذى يرى كل معطيات الواقع وحقائقه ومن ثم فهو الذى يرى، وهو الذى يقرر مايقرر !!

وبالتالى فهو لايرينا، إذن، إلا مايرى!!

إن من حق المرء أن يتساءل حقا: ولماذا تظل (المعرفة) احتكارا خاصا، حتى لمن يقف على قمة الدولة ؟ أليس من المحتمل، إذا أصبحت المعرفة حقا مشاعا أن تبرز رؤى أخرى أكثر وجاهة وأقرب إلى الحكمة والصواب ؟ أم أن الحكمة والصواب غير جائزان لإنسان آخر إلا رئيس الدولة ؟ وهكذا تبرز تلك المقولة المؤلمة حقا، المحزنة فعلا :

لقد ذهب فرعون وولى منذ آلاف السنين، لكن (الفرعونية) ظلت مستمرة طوال آلاف من السنين على أرض مصر.

إن هذا الهرم القائم علي أعلى الضفة الغربية لنهر النيل، ليس مجرد بناء من الأحجار ذى شكل هندسى بعينه، ينطق بدرجة عالية من التقدم الحضارى، بمقاييس العصر القديم، ولكنه رمز دال على بنية فكرية وتدرج اجتماعى، يشير إلى قلة فى أعلى الهرم، هى التى ترى وتقرر وجمهرة فى القاعدة عليها أن تسمع وتتحمل وتطيع .

تحولت الفرعونية إلى (منهج حياة) استدمج فى نسيج التعامل الاجتماعى بيننا من طول ما ألفناه وعايشناه ومورس علينا، وأصبح كل منا يقف مطأطئ الرأس أمام الفرعون الذى يعلوه موقعا ومركزا، لحنه المميز فى التعامل معه : «شبيك لبيك عبدك بين إيديك»، لأن مثل هذا النهج الفرعونى لايورث إلا الذلة والخنوع والاستكانة . لكنه من ناحية أخرى يولد طاقات الحقد والانتقام، فيتحول هذا المستكين الخانع إلى فرعون آخر بالنسبة لمن يصغره فى الموقع والمركز ويصبح لحنه المميز معه : «ما أريكم إلا ماأرى»

وهكذا ينقسم جسم الأمة إلى جزئين أحدهما ينتقم من الآخر ويسعى إلى استغلاله وقهره لتكون المحصلة النهائية ضعفا قوميا وخللا بنويا .

مرة أخرى .. إن احتكار الرأى، هو هذا المرض اللعين الذى يهدد عقل الأمة، ينذر بفقدان جسم الأمة المناعة من الأخطار التى تحملها قوى البغى والاستغلال، سواء الداخلية أو الخارجية .

ضحك على ضحك !!*

ماتعود صاحبنا أن يبدد وقته ويضيع طاقاته المحدودة فى مشاهدة النشرة الإخبارية فى التلفزيون فى دقائقها الأولى، فهى لا تحمل أخبارا مما تعنيه هذه الكلمة، وإنما صورا متحركة متكررة مطولة ، تأخذ من مال الدولة وطاقة المجتمع يوميا مالا لزوم له .. لكنها صدفة هذه المرة، ورب صدفة أسوأ من ألف ميعاد !

كان ذلك فى مساء يوم الأربعاء الثانى عشر من ديسمبر، وحشود نواب حزب الحكومة يتزاحمون حول السيد الرئيس، فالاجتماع - كما قيل - هو للهيئة البرلمانية للحزب لاختيار - كذا - مرشحيه لمنصب رئيس مجلس (الشعب) ومنصبى الوكيلين . وكان مما قاله السيد الرئيس، أنه عندما قرأ ماتكتبه بعض صحف المعارضة عن عمليات (تزوير) فى الانتخابات ضحك !! .. ضحك سخرية واستخفافا فيما يبدو للمفارقة الشديدة بين وصف هذه الفئة من المعارضين وبين واقع الحال، مثلما إذا سمعت ابنك يقول أنه شاهد كتابه المدرسى يخرج من حقيبته وحده ويغادر المسكن إلى غير رجعة ..! إذ لابد أنك ستضحك لهذه المفارقة الواضحة بين (قول) و (واقع)، فجاء هذا القول زاعما أنه صورة مطابقة له .

وأصارح القارئ بأننى قد ضحكت بدورى عقب انتهاء السيد الرئيس من ضحكه، وجاء ضحكى هنا، لا على سبيل (العدوى) كما يحدث فى بعض المواقف، وإنما وفقا لنفس المنطق الذى أضحك الضاحك، وإن كانت ضحكاتى، بعد لحظات قليلة، كادت أن تتحول إلى اتجاه عكسى، إلى قطرات دمع تترقرق فى العيون، لكنها الرقابة (الشخصية) حبستها لتتحول الحياة الوجدانية بعدها إلى حال من الاكتئاب غير المَرَضى .

إن الموقف نفسه الذى حدث فيه اجتماع نواب الحكومة، لو تأملته عزيزى القارئ، فسوف تخرج بما يستدعى الضحك أو البكاء، فكلاهما سيان فى مثل هذه المواقف العبثية .

فالاجتماع كان من أجل اختيار - كذا - أصحاب المناصب الثلاثة للمجلس الجديد، فهل هذا صحيح ؟ وهل يجئ السيد الرئيس إلى الاجتماع ليشهد ويشارك فى عملية الاختيار هذه ؟ بالطبع، لا .. إنه يجئ وقد استقر رأيه هو على أن يكون فلان رئيسا وفلان وفلان وكيلين، وما على النواب إلا أن (يعلموا) و (يوافقوا) . قارن هذا أيها القارئ بمؤتمر حزب المحافظين منذ أسابيع قليلة !!

---

* الشعب فى ١٨/١٢/١٩٩٠ .

ثم يتكرر ماهو أدهى وأمرّ وماهو أدعى للسخرية فى اليوم التالى .

يجتمع جميع النواب، حكومة ومستقلين ومعارضه لـ (ينتخبوا) أصحاب المناصب الثلاثة، فهل هذا صحيح؟

إن الجميع يجيئون وقد استقر الرأى على هذا وذاك، لكن لابد من (تسديد الخانة) .. من الاجراءات القانونية، فالقانون يقول بكذا وكذا، فماذا يمكن أن تسمى هذه (التمثيلية) السخيفة التى تحدث دائما، ومن كثرة تكرارها لا نتوقف أمامها متأملين مفكرين. أليس هذا (كذب) و(غش جماعى) يمارس على مستويات عليا وينقل عبر الأثير وتفرد له صفحات الصحف والمجلات ؟ ثم انظر معى الى السخرية من الاتهام بالتزوير ...

إذا سمعت أحدا يقول إن هذا الطالب - مثلا - قد أدى الامتحان هذه المرة بشرف وأمانة، واعتمد على نفسه دون (غش) ، فماذا يعنى هذا من دلالات ؟

إن دلالاته كثيرة وأبرزها ، أنه كان دائما فى المرات السابقة، لايعتمد على نفسه ويغش ويزوّر .

ثم ارجع إلى المقالات الصحفية الحكومية والتصريحات الرسمية التى قيلت عقب انتخابات ٨٤ و ٨٧، فإذا لم تجد هذه التصريحات تسخر أيضا من الاتهام بالغش والتزوير، فأقسم لك أنى سوف أبادر إلى كتابة اعتذار رسمى لنشره فى نفس هذا المكان وأعتزل الكتابة إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى .

ولسعد زغلول عبارة شهيرة علق بها على ذهاب (عدلى يكن) إلى لندن ليتفاوض مع الانجليز فى أوائل العشرينات، إذ قال : (جورج الخامس سيفاوض جورج الخامس) !! مريدا بذلك أن الحكومة المصرية فى ذلك الوقت لم تكن ممثلة للوطنيين، وإنما ممن يشايعون الاحتلال، فالمفاضات (شكلا) بين طرفين، لكنها (واقعا) بين طرف ونفسه .

فاذا ماقاطع معظم الأجنحة المعارضة ذات الثقل الشعبى الانتخابات، ووجد حزب الحكومة نفسه منفردا بالملعب ليلاعب نفسه، فمن ينافس ؟ ولماذا يغش ويزوّر؟

ولهذا، فأنا واحد من الناس أصدق أن نسبة (الحيدة) كانت أكثر من أية مرة سابقة، لكن لا عن إيمان الحكومة ونزاهتها، ولكن لأنها لم تكن بحاجة إلى الغش والتزوير .

ثم دقّق النظر واعمل الفكر فى خوض الوزراء ورجال الحكومة وبعض رجال السيد الرئيس انتخابات فى مجتمع ألفَ منذ آلاف السنين أن تكون (الحكومة) هى وحدها التى (تمنح) وهى وحدها التى (تمنع)، هل تكون هناك منافسة شريفة وموضوعية ؟ تأمل مثالا واحدا

فى وزارة التعليم وبماذا تسعى تبارى المدارس وبالذات الخاصة للمشاركة فى حملة الإعلانات والدعاية ؟ وماذا تقول فى تكثيف أخبار الوزراء المرشحين فى الصحف والاذاعة والتلفزيون وكذالك افتتاح المشروعات ؟ أليس ذلك استغلالا لأموال عامة وخاصة بدافع الترغيب والترهيب؟

للسيد الرئيس اذن أن يضحك ... لكنى أستميحه العذر فى أن أستخدم حقى البشرى كذلك فى الضحك، وإن تباينت الدوافع والأسباب !

رغم أنف (هراقليطس) ..
فى مصر، من يستطيع أن ينزل النهر الواحد مرتين !!*

فى بداية طريق تعلمنا للفلسفة فى آداب القاهرة، وقف المرحوم الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ليحدثنا عن فلسفة فيلسوف يونانى قديم هو (هراقليطس)، فنقل إلينا عبارة لهذا الفيلسوف كانت البداية تمثل (لغزا) لعقولنا، كان لابد لحله، أن يستغرق محاضرة كاملة .

أما العبارة، فهى : «إنك لا تستطيع أن تنزل النهر الواحد مرتين» .

فلأول وهلة ، لابد للسامع أن يستنكر هذا ، إذ كيف لايستطيع الإنسان أن ينزل النهر الواحد مرتين، وهى مسألة تمارس دائما وفى كل يوم؟

لكن عقل الفيلسوف، الفاهم الواعى، لايقف بالأمور عند شكلها الظاهر، وإنما ينفذ من خلال هذا العقل إلى ماوراء هذا الشكل الظاهر، ليبصر حقيقة، ويدرك معنى، ويفهم دلالة، ويعرف معلومة .

فالنهر، ليس هو مجرد (المجرى) المحفور، ولكنه بالدرجة الأولى، هو هذا الماء الجارى . إنه أصل النهر، ذلك أن الماء الجارى هو الذى يحفر مجراه .. يصنعه، وليس العكس. وعندما ينزل الإنسان نهرا، ثم يخرج منه، تكون المياه، وفى الموضع الذى نزل فيه، قد تحركت ومشت ، فإذا عاد إلى النزل مرة أخرى، فإن المياه التى ينزل إليها فى الموضع، تكون مياهاً جديدة، ومن ثم فإنه يكون قد نزل نهرا آخر .

هذه النظرة الميكرسكوبية الفاحصة الدقيقة للأمور، التى قد (تُلغز) الأمر العادى أمام الفهم العام، إنما كانت تعبيرا عن حقيقة من حقائق الاجتماع البشرى، وسنة من سنن الله فى الكون، ألا وهى (التغير) .

وعندما أعلن الله عزّ من قال ، أنه لن «يغير» مابقوم حتى «يغيروا» ما بأنفسهم، كان هذا تأكيدا من خالق هذا الكون، بما فيه ومن فيه، بأن التغيير المطلوب، هو التغيير الجذرى الذى يتناول (بنية) الإنسان نفسه : طريقة تفكيره، وطريقة سلوكه، والقيم التى توجهه، وهذا أقصى وأعظم مظاهر التغيير . وكذلك عندما قال «وتلك الأيام نداولها بين الناس» ، كان معبرا عن تلك الحقيقة الكونية الكبرى .... سنّة الله «ولن تجد لسنة الله تبديلا» .

---

* الشعب فى ١٩٩٢/١/٧ .

بل إن الفهم العام، عبّر عن ذلك أيضا بأن «دوام الحال من المحال»، والمقولة الشعبية الشهيرة» لو دامت لغيرك .. كانت دامت لك» !!

فهمنا هذا ووعيناه، واحتفظنا بإعجاب وتقدير لهذا الفيلسوف اليونانى القديم الحكيم، حتى يوم السبت السابع من ديسمبر عام ١٩٩١، عندما قرأنا للسيد رئيس الجمهورية يعلن رأيا آخر وهو إدانته للتغيير وكراهيته له !!

لكن الحق الذى يقال، أن سيادة الرئيس، لاينكر سنّة التغيير، ولكنه يعترف بها ضمنا ، وكل ما هنالك، أنه لايحبها وما دام لايحبها ولايرى لها ضرورة، فلابد لخمس وخمسين مليونا من المصريين أن ينصاعوا لهذا الاتجاه، لأنه هو الذى (لا يُرينا إلا مايرى) .

والتغيير الذى يشير إليه السيد الرئيس، هو غالبا الذى يتعلق بوزارة الدكتور عاطف صدقى .

وبداية، فلو كان هذا هو التغيير الذى تتطلع إليه جماهير هذه الأمة، فتعسا لها من أمة حقا .. فما الدنيا إلا مسرح كبير، كما قال الراحل يوسف وهبى، وما هؤلاء إلا شخوص، تروح وتجئ لتنطق وتنفذ نصا مكتوبا كتبه (مؤلف) بعينه .. والتغيير المطلوب، لايكون حقيقيا إلا بتغيير هذه الرواية السخيفة التى أشاعت الخلل فى (الصالة) ، فضلا عن تغيير الممثلين عندما تؤكد الممارسات (التمثيلية) فقدانهم للمبادرة والمبادأة والإبداع والحسّ العام الذى يتفاعل تفاعل فوريا مع إيقاع الجماهير التى تدفع ثمن (التذكرة) .. تغيير (بنيوى) ، يتناول (السياسات) و (التوجهات) .. السياسات القائمة والتوجّهات الحاكمة .

ومع هذا، فحتى هذا التغيير (الصغير) و (السطحى) الذى يستهدف وزارة بعينها، هو أيضا مطلب جماهيرى وسياسى، لماذا ؟

إن الشخص الذى يتولى منصبا قياديا، تترسخ لديه عادات وسلوكيات، يؤدى طول زمن ممارستها، مع افتقاد - أو حتى ضعف - «المساءلة»، إلى بذر بذور قدر من روح (التسلط) لديه، ويتعود السلطة والتحكم، وخاصة فى مجتمع لايتنفس مناخا صحيا كاملا من (تداول الرأى) ويعيش (احتكارا فى الفكر) .. وينتهى به الأمر إلى أن يتصور نفسه السيد الذى لابد أن يطاع دائما .. على الناس أن تسمع إلى ما يقول وتطيع . وبالتدريج، تتربى حوله شرائح من المبررين الذين يزينون له مايرى على أنه هو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وفضلا عن ذلك، يرتبط بهذا الشخص الحاكم، جموع من المعاونين، تفرز لهم مواقع

السلطة (مصالح) و(منافع) و(قوة نفوذ) عامة تتأصل وتتجذر لتلتف حول عنق العمل العام فتخنقه، أو على أقل تقدير، تجعله دائما تحت سيف الخنق والقتل، كالشجرة الكبيرة التى لا (تؤقلم) «فتعشش» بفروعها وغصونها وأوراقها لتصنع حجابا كثيفا يحجب الهواء ويخفى الشمس، فتكون هنا تربة لنمو مايفسد وما يؤذى .

ومن هنا تجئ الحكمة من تلك النظم التى تحدد مدة رئاسة الجمهورية فى بلد مثل الولايات المتحدة الأمريكية بفترتين، كل فترة منهما أربع سنوات، ويتغير الرئيس، ومعه يتغير الوزراء، والجهاز الحاكم فى معظمه، وتحدد فى فرنسا بفترة أطول نسبيا من ذلك .

ولسنا ندرى، إلى متى يستمر السيد الرئيس فى هذه المقارنات بيننا وبين الغرب فى جوانب ، دون غيرها ، مع أن النظام الاجتماعى، كما هو معروف، منظومة متكاملة، لايصح أخذ جانب منها وترك آخر، فإذا كانت هناك حكومات تستديم فترة حكمها مثل ماهو حادث، على سبيل المثال بالنسبة لحكومة المحافظين ببريطانيا، وحكومة (كول) بألمانيا، وميتران بفرنسا، فلابد ألا ننسى أن هذه الدول تعيش مجتمعات لا تقوم على احتكار السلطة، فميتران ، مثلا، ومثله فى ذلك مثل سابقيه من رؤساء الجمهورية الفرنسية، لم ينتظر مقعد الرئاسة حتى (وفاة) سابقه ، وإنما هى مدة محدودة، حتى ولو طالت بعض الشئ، فالجميع يعرفون أنه لابد بعدها أن يذهب الرجل ليجئ آخر .

هذا جانب ..

ومن جانب آخر، هل يمكن أن نقارن درجة ممارسة الديموقراطية فى مصر بدرجة ممارستها فى مثل هذه الدول التى تساق كأنموذج من قبل حكامنا؟ كيف تنشأ الأحزاب عندنا وتنشأ عندهم؟ ما القيود التى تحدد العمل الحزبى عندنا وتلك التى عندهم ؟ كيف تصدر الجريدة أو المجلة عندنا وعندهم ؟ وماذا يحدث لو أراد طلاب جامعة لندن - مثلا - أن يسيروا فى مظاهرة للتنديد بسياسة الحكم فى قضية ما ؟ وماذا يحدث لطلاب جامعة عين شمس - مثلا - لو أرادوا أن يسيروا مظاهرة للتعبير عن رأيهم تجاه سياسة الدولة ؟

عشرات الأمثلة التى قد لا تتسع لها صفحاتنا الحالية المتاحة، لو جئنا بأى عدد منها، فسوف تكون فى غير صالح المقارنة التى يغرم السيد الرئيس بها فى جانب ولايحبها فى جانب آخر .. إنهم فى مثل هذه الدول، يقيمون مجتمعاتهم على العديد من (التنظيمات المؤسسية) .. كل مؤسسة لها نظامها النابع من جمهورها، وهناك مئات العيون مسلطة على أعمالها لتلهب ظهورها بالكرباج فور كشف خطأ ما .

فكيف يتحقق لنا هذا وأجهزة الرأى والتشريع ملك للحكومة ؟

ومن عجب، أن يتجه تقدير السيد الرئيس إلى حكومة لم يحدث لحكومة مثلها فى تاريخ مصر أن نالت مثل هذا القدر من السخرية و(التريقة)، حتى فى صحف الدولة نفسها، وهكذا أصبح (فلاح كفر الهنادوة) بابا ثابتا فى (أخبار اليوم)، يستقطب سخرية مئات الألوف، ولاأظن أن هناك متعلما فى مصر الآن إلا وهو يضحك - ومن الضحك مايشبه البكا - على أحاديث هذه الشخصية مع رئيس الوزراء . وعندما جمعت هذه الرسوم الكاريكاتورية الخاصة بها فى كتاب ، تخاطفته الألوف حتى أعيد طبعه عدة مرات .

وغير هذا الباب الثابت (للتنكيت) على شخصية رئيس الوزراء، هناك مئات (النكت) الشفهية التى تجرى على ألسنة الناس ويتداولونها سرا وعلنا، والنكتة السياسية فى مصر لا تعكس نفس الفلسفة التى تعكس النكتة الاجتماعة، فبينما النكتة الاجتماعية تستهدف (التنكيت)، فعلا، إلا أن النكتة السياسية تستهدف (التبكيت) من خلال (التنكيت) .

لقد أصبح حلما من أحلام مثلى، ممن يقفون على هامش السياسة، أن تتخلى القيادة السياسية عن سياسة (المغايرة)، وتقر بسياسة (المسايرة) مع الأمانى الشعبية، فمثل هذا الإقرار إنما هو دليل قوة لا دليل ضعف .

انـــــى خائـــــــف !!*

انطلق يحادث ابنته، قرة عينه، عبر الهاتف، يغلف صوته حب غامر، ويشع حنانا، حتى أنه عقب انتهاء مكالماته، كثيرا مايتساءل بينه وبين نفسه : كيف تأتت له هذه الكلمات ذات السحر البيانى، مع أنه لم يؤت سعة من البيان، وكيف تأتى لقلبه أن يتسع لهذا الفيض من الحب، وكأنه لو قسّم على البشر لوسعهم أجمعين، وفاض منه قدر يدخر لمستقبل الأيام؟!

ثم إذا بصوته هذه المرة، بعد دقائق تقل عن أصابع اليد الواحدة، يرتعش، ثم يصمت . وتسأله ابنته: ماذا يا أبتاه ؟ وهو لا ينطق إلا بكلمة واحدة : لا شئ . لا شئ .

وبعد أقل من ساعة، هرعت إليه الإبنة من مكانها البعيد، فقد أمسكت الظنون برأسها لتعبث بها إلى يمين وإلى يسار، وأحاطت بقلبها الهواجس فجعلته يلهث دقا واضطرابا ..

جسميا، كان الأب سليما لم يطرأ عليه شئ، هكذا تأكدت الإبنة، لكن البسمات هربت من على وجهه، والعينان اللتان كانتا تشعان بريقا، غارتا إلى داخل، مع زيغ لا يخطئه أحد . وتلح الإبنة فى السؤال، وهو يردد نفس الكلمة : لا شئ . لا شئ !! لكن دمعتان قفزتا من عينى الإبنة، ألانت حديد رفضه الحديث، وبدأ صوته من جديد، بغير حيوية، وبغير تدفق : خافتا وئيدا، كأنه ينتزعه من جوفه انتزاعا :

لم أكن أحب أن أبث الخوف فى قلبك ياابنتى، فالخوف سريع العدوى بين الأباء ووالأبناء، فأبوك الذى كنت تفخرين بشجاعته، قد أصبح الآن محاصرا أناء الليل وأطراف النهار بهواجس الخوف وذئاب الرعب .. لم يطرق بابنا شرطى، لأنه قد أصبح يسكن بداخلى . لم يستدعونى إلى مواقع التحقيق، فقد أقاموها داخل رأسى . لم يقذفوا بى فى غياهب السجن والاعتقال ، فقد ضاقت أسوار المنازل لتصبح سجنا، واتسعت أسوار السجن لتسع المنازل !! .

أنا بالفعل أمامك حر الحركة، أروح وأجئ، لكن لا أكتمك القول : إذا نظرت من نافذة، فلمحت إنسانا واقفا على رصيف مقابلنا، توهمت أنه يراقبنا، أو سرت فى الشارع والتفت ورائى، ولمحت من يسير خلفى، توجست أن يكون مخبرا، إن علا صوت مفاجئ، وقع فى أذنى كأنه طلقة رصاص، إن طرق بابنا طارق، قفز قلبى بين ضلوعى، وتعثرت قدماى فى السير متوقعا هجمة بوليسة .

---

*نشرت بجريدة الوفد .

تسمع أذناك هذا كله يا ابنتى وينكره قلبك وعقلك، لأنك تعلمين أن أبيك لا ناقة له ولا جمل فى أى شأن من شؤون العمل الحزبى غير الحكومى، ولاأى شأن من شؤون المخدرات والقتل والسرقة والانحراف الأخلاقى، ولا يملك إلا قلما به يكتب، وورقا عليه يكتب . لكن الوقائع يابنتى والأحداث قد تعدت حدود الجزئية لتصبح كثرة، وتواترها قد تعدى حدود التفرق ليصبح ظاهرة : وقائع وأحداث عديدة تفاجئنا بها صحف الصباح : (الكشف عن تنظيم كذا)، وصور المضبوطات، ثم أحاديث عن تنكيل وتعذيب، لا نعرف كيف يتأتى لآدمى أن يفعلها مع إنسان، مع أنه قد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأة قد ذهبت إلى نار جهنم بسبب قطة حبستها، فلا هى أطلقتها ولا هى أطعمتها، فماتت !! نعم قطة!!

ويطلقّ رصاص لا من هارب أو مجرم، وإنما من شرطة الدولة فى الشارع العام ووسط الجمهور وفى وضح النهار .

وتجئ التحقيقات والمحاكمات، فإذا بالغالبية يحكم لها بالبراءة، ولا شئ بعد ذلك عن الدم الذى أريق ولا عن المال الذى بدد ولا عن الأجساد التى عذبت ولاعن الوقت والجهد الذى ضاع، ولا عن المصالح التى أضيرت .

وأفتش فى فئات (التنظيمات) التى يزعمونها، فأجد أنها تتراوح من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وأفتش فى داخل كل فئة، فأجد المدرسين والمحامين والعمال والمهندسين والمزارعين والأطباء .. هى إذن عينات ممثلة للمجموع العام للشعب المصرى . غفلوا عن أنهم بهذا يدينون أنفسهم، ويعلنون على الملأ أنهم موضع غضب الجميع، مما يذكرنا بقول الشاعر المصرى حافظ ابراهيم عن (إسماعيل صدقى) :

دعا الله عليك فى محرابه الشيخ والقسيس والحاخام !!

وإذا كنت يابنتى ما زلت تسألين عن علاقتى بهذا كله، فلتعلمى أن الذين لايتورعون عن تلفيق التهم وممارسة التعذيب الوحشى وإطلاق الرصاص على الناس فى الشارع، يمكن لهم، فى ظل التقدم التكنولوجى الرهيب ، أن يفعلوا مالايخطر لك على بال :

فلقد هجم علىّ هاجس وأنا أحادثك هاتفيا : أليس من المحتمل أن يكون تليفونى مراقبا وتسجل مكالماتى؟ ألا تجئ فى أحاديثى معك كلمات أعبر لك بها عن شوقى إلى رؤيتك وحبى لك الذى هو بلا حدو د؟ وأنك قرة عينى ؟ ثم إننى بحكم مهنتى تحادثنى طالبات دارسات وباحثات، أحيانا فى شأن من شؤون العلم، ألا يمكن أن يقوموا بعمليات (مونتاج) وإعادة تركيب، لكلمات أقولها لك، مع المكالمات الأخرى، لتصبحى ذات يوم فإذا بك تقرئين عنوانا كبيرا

فى صحف الصباح عن القبض على أستاذ جامعى له علاقات مشبوهة بالطالبات، وأن ذلك مسجل بالصوت والصورة ثم تنطلق كتابات كتاب حكوميين منددة بهذا الأستاذ الذى خان الأمانة وخدع الناس سنوات مدعيا أنه (مرب)، فإذا به (راسبوتين) آخر ؟!

عندما هجم على هذا الهاجس، وأنا أحادثك يابنتى، حدث لى ما حدث، فأصبحت الآن كما ترينى أفطر خوفا وأتغدى رعبا وأتعشى جبناً .. يتوقف القلم فى يداى، وأجمد فى حركتى، وأستقر فى وضعى هذا كما يجمد كثيرون مثلى لتصبح بلادنا جميعا بلد الاستقرار، ولم لا؟ أفليس بين القبور استقرار ؟!

خصخصة الجيوب ... وتأميم العقول !!*

نحن نمارس الكيل بمكيالين مع أنفسنا، فى الوقت الذى نعيب فيه على القوى الكبرى أنها تفعل ذلك معنا ...

وإليك مثالا، لا لبس فيه ولا غموض ...

فإذا كان الاتجاه الكاسح الآن فى دول العالم النامى هو (الخصخصة)، فان المبرر الهام الذى يساق هنا، أن دول ماكان يعرف بالمنظومة الاشتراكية كانت تسير وفق سياسة توجيه الدولة وقيادتها للاقتصاد قد فشلت فشلا ذريعا وانهارت، بينما انتصرت الولايات المتحدة الأمريكية، زعيمة النظام الرأسمالى، بفضل هذا النظام، وأصبحت هى القوة المهيمنة المنفردة الآن على وجه التقريب !

وعندما يبدى البعض تحفظا - بأن لكل دولة ظروفه المجتمعية التى تشير إلى أن نجاح نظام فى مجتمع لا يعنى بالضرورة ضمان نجاحه فى مجتمع آخر يختلف عنه اختلافات جذرية، يبرز مبرر معاصر، أصبح يتردد بكثرة الآن، وهو أننا على طريق مايمكن تسميته (بالكوكبية)، أى أن دول العالم كلها إنما هى منظومات فرعية من منظومة كلية هى الكوكب الأرضى، وأن وسائل الاتصال الحديثة قد أصبحت من الشيوع والتقدم إلى الدرجة التى استطاعت فيها - أو هى فى الطريق إلى ذلك - أن تمحو، أو تخفف إلى حد كبير من هذه الاختلافات بين الأمم والشعوب ، وتغرس من المفاهيم والاتجاهات والنظم مايكثّر المتشابهات ..

فإذا سلمت جدلا بذلك، وتركت قطاع الاقتصاد ، ووليت وجهك شطر قطاع الإعلام، وجدت العكس تماما !!

وجدت نفس المنطق، وذلك النهج الذى ساد منظومة الدول الاشتراكية يزداد ترسخا فى دول العالم النامى من حيث هيمنة الدولة وتوجيهها من خلال هذه الأجهزة الثلاث : الإذاعة والصحافة والتلفزيون، فضلا عن افتقاد التعددية السياسية، أو تحجيمها ومحاصرة حركتها، وفى أفضل الحالات، تحولها إلى مجرد (ديكور) يزين النظام القائم به نفسه !!

وإذا كانت الاذاعة والتلفزيون واضح فيهما التوجيه والتحكم، فلربما جادل البعض فى ذلك بالنسبة للصحافة فى بعض الدول، لكن العليمين ببواطن الأمور يدركون جيدا أن المظهر

---

* نشرت بجريدة العربى

العام، وإن بدت فيه الصحافة مستقلة، لكنها، بوجه ، أو بآخر، تدور – فى معظمها، فى فلك السلطة .

فإذا ما تساءل البعض منا : ولماذا لا تتبعون التوجه العالمى فى دول العالم الرأسمالى، فى مقدمته الولايات المتحدة ، من حيث التعددية الحقيقية والخصخصة الإعلامية ؟ كان المبرر : أن هذه الدول لها ظروفها الخاصة، فالممارسة الديموقراطية راسخة فيها منذ قرون، بينما دولنا لها ظروف أخرى من حيث التخلف الاقتصادى وشيوع الأمية وتراكم سنوات طويلة من سوء الممارسة، فضلا عن مواجهتها لأخطار كثيرة من الداخل والخارج ..

إنهم يأخذون ببعض الكتاب ويتركون بعضه الآخر ..

ذلك أن الخصخصة الاقتصادية تتيح الفرصة للدولة أن تتخفف من كثير من الأعباء والمشكلات التى تقف أمامها عاجزة عن الحل، أما فى مجال الممارسة السياسية والإعلامية، فها هنا حركة الأفكار والعقول التى ينبغى أن تظل تحت السيطرة والتوجيه والصياغة .

إن محاصرة الديموقراطية السياسية والإعلامية بدعوى (قلة الخبرة) والخوف من استغلال ذلك فى غير صالح البلاد، حجة واهية، تمارسها نظم من عدة عقود، لم تقمها شعوبها، وتحتل مقاعد القيادة فيها شخوص (قفزت) إلى السلطة بفعل ظروف مختلة، ليس من بينها صندوق الانتخاب البعيد عن التزييف .

إنهم يتناسون أن الديموقراطية، عندما تصاب ممارستها بالسوء والخلل، فان دواءه لا يمكن أن يكون بأساليب مضادة النوعية، وإنما دواؤها هو مزيد من الديموقراطية . وإذا كانت دول الغرب الكبرى هى النموذج والمثال ومصدر الوحى والإلهام، فإن تاريخها يقول إنه لم تصل إلى ما وصلت إليه إلا بعد أن تحملت مشقة الممارسة الديموقراطية، فطريق هذه الممارسة لابد فيه من دماء تسيل، وشهداء يسقطون ، وتضحيات تبذل . وإذا حافظنا على السلاسل والأغلال، وظللنا نشرع الأسنة والرماح بدعوى الخوف من الديموقراطية، فسوف نظل فى الصفوف الخلفية لمسيرة الأمم، على طريق التاريخ، ليس لنا من دور نمارسه إلا دور الذيول والأتباع .. ذيول تتمرغ فى أوحال التخلف، وأتباع يغرقون فى مستنقع الاستهلاك .

«اللهم إنا لا نسألك رد» (الخصخصة) ..
وإنما نسألك اللطف فيها* !!

فى فترات زمنية ماضية، وفى بعض البلدان العربية جرى ماسمى فى حينه (الاشتراكية).. وبعيدا عن (التقليب) فى الدفاتر القديمة للكشف عن الأدلة والبراهين التى أريقت فيها أحبار مفكرين وعلماء مثقفين للتأكيد على (حتمية الحل الاشتراكى)، ومن هؤلاء من أصبح فى مواقع سياسية متقدمة، فيما بعد، ليشارك حاليا فى (التحول الرأسمالى)، وبراهينهم أيضا جاهزة ومبرراتهم أيضا حاضرة ...

وبغض النظر عما شاع فى بعض الكتابات (حاليا طبعا) من أن ما كان يحدث، لم يكن (اشتراكية)، بل كان (رأسمالية دولة) ...

فإن الفكرة الأساسية التى قام عليها منطق (التشريك)، أن المجتمع، عندما يصل إلى درجة من التخلف، نتيجة سنوات طويلة من النهب والاستغلال والاستعمار، فإنه من العسير أن يترك أمر الاقتصاد فيه الى (حرية) لن يستخدمها إلا قلة، كان لها تاريخها فى التحالف مع الاستعمار، وستعجز عن الاستفادة بها، كثرة تحت خط الفقر، مما سيجعل الأغنياء يزدادون غنى، والفقراء يزدادون فقرا، ومن ثم كان على الدولة، باعتبارها وكيلة المجتمع، أن تنهض هى بعبء القيادة السياسية والاقتصادية لتوجيه الأمور فى صالح الجميع .

وإذا قسنا هذه المقولة بمقاييس المنطق والعقل، فسوف نراها وجيهة ومعقولة، لكن السهم القاتل لها، كان فى توهم أن من تولوا أمور الدولة كانوا كلهم ودائما، بالفعل وكلاء المجتمع، إذ كانوا يصلون إلى السلطة إما عن طريق سطو الحزب الواحد، أو عن طريق الانقلاب العسكرى، لتظل سلطة الاحتكار: دائما، يبدأ (بجماعة) ثم ينتهى بعد ذلك إلى (فرد) يستظل بالشعار الفرعونى الشهير : (لا أريكم إلا ماأرى) !!

وإذا كان سقوط النظام الاشتراكى كواقع تاريخى معاصر يشير إلى (فشل) ، فإن هذا لا يعنى، بالضرورة (وجاهة) و (صحة) النظام الرأسمالى تماما وأبدا .

ومع ذلك فلابد من التسليم بأن حركة التاريخ المعاصر تتجه إلى (الرسملة) و(الخصخصة)، وبالتالى يصبح من واجبنا، ونحن فى كثير من بلداننا العربية فى بداياتها، أن

---

* الوفد فى ١٩٩٥/٨/٢٢ .

نخضع هذا التوجّه للفحص الميكروسكوبى الدائم متخلين عن وهم الظن بأنه خير كله، إذ لا يوجد نظام اجتماعى يبرأ من الأسقام والعلل التى يمكن أن تهدد الجسم الاجتماعى، إن لم يخضع دائما للتقويم وإعادة النظر والتطوير والتعديل : فهناك (الاحتكارات) ، وهناك (الاستغلال) .. وهناك (سطوة النفوذ السياسى)، وهناك .. وهناك، من عشرات الأخطار التى تمتلئ بها الكتب والبحوث والدراسات التى يمكن أن تجعل من (الرسملة) وحشا مفترسا .

قال محدثى - الاقتصادى المتخصص - المتحمس للخصخصة : إن الجسم الاجتماعى ، مثل الجسم الإنسانى، و(قوى السوق) فى الأول، تقوم بدور جهاز المناعة فى الثانى ، فلربما شهد المجتمع انحرافات وسرقات، واستغلالا ونهبا، كما يشهد الجسم هذا المرض أو ذاك . لكن هذه الانحرافات تنحسر بالتدريج، حيث ستلفظها (قوى السوق)، واستشهد محدثى بما حدث فى مصر فى السنوات الأولى لسياسة الانفتاح ، وكيف شهدت مظاهر غاية فى السوء، مثل تجارة العملة والنصب على البنوك، والمشروعات الوهمية، وشركات توظيف الأموال، ثم إذا بكثير من هذا ينحسر فى السنوات الأخيرة .

وأخذ محدثى يشرح بتفصيل اقتصادى هذه القضية، تفصيلا لا أزعم أننى قد استوعبته تماما، فأنا على درجة من القصور العلمى الاقتصادى، مما يضعف قدرتى على مواجهة هذا الاقتصادى المتخصص، ولكنى آثرت أن أستغل تشبيهه لأقول أن هذا الذى قاس عليه، إنما يكون بالنسبة لجسم صحى سليم، وبشرط أن يكون الهجوم الميكروبى المرضى فى حدود معينة، فإذا مازادت عن النسب المقررة، سقط الجسم مريضا، مما يستلزم تدخل طبيب، فلا يأكل الإنسان إلا بأوامره : نوعيا وكميا وتوقيتا : فضلا عن أدوية ... وربما جراحة !!

هكذا نحن فى مجتمعاتنا النامية : نحن لا نعيش الشروط الصحية المناسبة، سواء بالنسبة للمناخ، أو للتكوين الداخلى للجسم، أو لشربه ومأكله، ومن هنا يجئ التخوف بأن يكون جسمنا الاجتماعى ساحة يمكن أن ترتع فيها ميكروبات الرسملة : احتكارات .. استغلال نفوذ.. مضاربات .. استقطاب طبقى .. توجيه الثقافة والتعليم ليعيدا إنتاج كوادر تديم نفس النظام وتطيل حياته ...

ومن هنا يجئ دعاء أمثالى :

اللهم إنا لا نسألك رد (الخصخصة) .. وإنما نسألك اللطف فيها !!

هـــــــم .. والانبيـــاء* !!

حسنا فعلت (الأسبوع) عندما نشرت ذلك الرسم الاسرائيلى الوقح عن رسول الله (محمد) صلى لله عليه وسلم، وذلك حتى تعيد الوعى الصحيح إلى جماهير زيف وعيها سياسات توهمت إمكانية السلام مع القتلة، وإذا كان هذا الرسم قد صدم كثيرين، إلا أنه لم يصدمنى شخصيا، وذلك لظروف أكاديمية أتاحت لى فرصة أن أقف على أمثلة عدة، مفروض أنها (مقدسة)، لأنها من أسفارهم، لكنها تصور الأنبياء فى صور مزرية ولم يكن هؤلاء الأنبياء إلا أنبياؤهم هم لأن المسيحية والإسلام لم يكونا قد ظهرا بعد .

ومعذرة للقارئ مقدما لما قد أسببه له من ضيق صدر وثورة مشاعر، إذ لا سبيل لى غير هذا بعد ما راحت أجهزة إعلامنا تبث أحاديث عن (الصديق الاسرائيلى)، وأخذت أجهزة تعليمنا تحذف من تاريخنا ومن نصوص ديننا مايكشف حيقة هذا (الصديق) .

- فقد نسبت التوراة إلى سيدنا إبراهيم، أبو الأنبياء، والجد الأكبر لبنى اسرائيل الاستهانة بعرض زوجته فى سبيل النجاة بشخصه وطمعا فى مغنم أراد أن يناله، فقد روى سفر التكوين (الاصحاح ١٢، الآيات ١٢ - ١٤) كيف أن إبراهيم قال لامرأته (سارای) - سارة - «إنى قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون (عندما أتجه الى مصر) إذا رأك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك، قولى انك أختى ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك»

وحدث بالفعل ماتوقعه إبراهيم، إذ أعجب أعوان فرعون بجمال سارة وأخذوها له، ونال إبراهيم «خيرا بسببها»، لولا أن علم فرعون بالحقيقة فوبخ إبراهيم .

وكرر إبراهيم نفس الفعل عندما انتقل إلى أرض أخرى (جرار)، حيث أخذ ملكها (أبيمالك) سارة، لأن إبراهيم قدمها له كذلك على أنها أخته، لولا أن علم الملك بحقيقة وضعها فردها إليه (سفر التكوين، الاصحاح٢٠) .

لماذا يقامر إبراهيم بعرض امرأته، إذا كان يثق أن المصريين ينتهكون الأعراض ؟ ولماذا يعيد التجربة نفسها مع أبيمالك بعد فرعون ؟!

وتعرض نبى الله إسحق لعملية غش وخداع كان فاعلاها زوجته (رفقة) ويعقوب ابن

---

* الأسبوع، فى ١٩٩٧/٧/٢١

إسحق، فقد كان إسحق يخص ابنه الأكبر (عيسو) بالحب والرضى، وعزم أن يدعو له بالنبوة، لكن زوجته (رفقة) انتهزت فرصة كبر سنه وضعف بصره الشديد، واتفقت مع ابنها يعقوب على التنكر فى هيئة (عيسو) . ولم يستطع إسحق أن يميز بين الأخوين، فدعا ليعقوب ظنا منه أنه عيسو، ومن هنا أصبح يعقوب نبيا (سفر التكوين، الاصحاح٢٧) .

وهكذا يخدع يعقوب أباه ويخونه . ولكن السؤال هو : كيف انطلت تلك الخديعة على الله تعالى عما يرجفون ؟ وهل يكون يعقوب أمينا على النبوة إذا صح أنه حصل عليها بالخداع؟ وهل يمكن أن تكون النبوة، فى ظل هذا ، مصدر خير وهداية ؟

- وكلمة (إسرائيل) أطلقت أصلا على النبى يعقوب، وهى من مقطعين : (يسر) العبرية التى لم تكن قد استقرت أو اصطلح على قواعدها بعد، بمعنى (سار) أو (غلب)، و(ايل) ، وهو الإله القوى القاهر عندهم، فكأن المعنى «غلب الله القوى القادر» . وهذا يرجع إلى واقعة يرويها سفر التكوين (الإصحاح ٢٢ ، الآيات ٢٥ - ٢٩) ، صارع فيها يعقوب شخصا لا تصرح الآيات به، لكن السياق يشير الى أنه (الإله)، وكانت الغلبة ليعقوب، الذى لم يترك مصارعه إلا بعد أن منحه البركة، وأمر بأن يسمى يعقوب بعد ذلك بـ (إسرائيل) !!

- إن الذى يجذب الانتباه فى الأسفار أن يوصف الرسل، والأنبياء، الذين اصطفاهم الله من بين سائر الناس لحكمتهم وحسن أخلاقهم، بمثل هذه الأفعال الشنيعة . ولا يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما يصل إلى درجة أشد بشاعة وشناعة . فالمثال هنا يلصق تهمة (الزنا) بنبى عظيم، ففى سفر صموئيل الثانى (الإصحاح ١٢) يشير إلى أن داود قد زنا بزوجته أحد كبار قادته سرا .

وإذا كان داود قد فعل هذا، فمباذا عاقبه الرب؟ بفعل لا يقل شناعة، فقد أمر الرب - هكذا قالوا - ابن داود (ابشلون) أن يزنى بنساء أبيه، وأمام الناس !!

- وعلى الرغم من كل مافعله نبى الله موسى عليه السلام من أجل بنى قومه، فإنهم تمردوا عليه فى سيناء عدة مرات، وكان أبرزها أنهم شعروا بحرمانهم من طعام كانوا يحصلون عليه من مصر بقدر من الارتياح . وليس هناك من ريب فى أن ذلك إن دل على شئ، فإنما يدل على أن اليهود كانوا يفضلون الحياة الذليلة تحت سياط الرق والاستعباد ، بجوار قدور اللحوم على حياة الحرية والكرامة، فهم يصرخون فى موسى وهارون «ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا للشبع فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع » (سفر الخروج، أصحاح ١٦) ثم عادوا وبكوا «وقالوا من يطعمنا لحما . قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجانا والقثاء والبطيخ

والكرات والثور . والآن قد يبست أنفسنا» (سفر العدد، إصحاح ١١) .

الصورة الوقحة إذن، التى رسمها الاسرائيليون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليست أمرا غريبا عليهم، ومن هنا يجئ القرآن ليكشف حقيقة القوم : ففى سورة المائدة تصرح الآيتان الكريمتان (٧٠، ٧١) بأن بنى اسرائيل كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم وشهواتهم، قابلوه بالتكذيب والعناد تارة وبالقتل والاعتداء تارة أخرى،، يقول تعالى : «لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا، كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون . وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وصموا، ثم تاب الله عليهم، ثم عموا وصموا، كثير منهم والله بصير بما يعملون» .

هل يمكن ، أيها القارئ، أن تصدق بعد هذا أن هؤلاء يمكن أن يكونوا بالفعل أصدقاوءنا؟ قد يرد البعض بأن الأمثلة التى ذكرناها كانت منذ قرون طويلة . والرد ، سنجده هناك، فوق جبل أبو غنيم، كنموذج من مئات النماذج السابقة والحالية .. واللاحقة !!

.. واذا المـؤودة سـئلت* ؟!

فى كل كتب التاريخ السياسى، وفى كل كتب التاريخ الفلسفى، دائما نجد هذا التأكيد على أن (الديموقراطية)، كلمة يونانية تعنى حكم الشعب بالشعب وللشعب، وأن يونانىّ أثينا القدماء كانوا نموذج هذه الديموقراطية فى ممارستهم .

ولم يكن هذا صحيحا ..

لم يكن صحيحا أن الديموقراطية قد تشخصت فى ممارسة المجتمع الأتينى القديم، لأنك لو فتشت واقع هذا المجتمع، فسوف تجد أنه كان مكونا من قلة من الأحرار تملك وتحكم ولا تعمل، وكثرة من العبيد لا تملك ولا تحكم ، لكنها هى التى تعمل وهى التى تنتج، وكانت الممارسة الديموقراطية، خاصة بهذه القلة التى لا تعمل !!

وهكذا كانوا مثالا صارخا لاحتكار السلطة، وكانوا نموذجا مثاليا للاديموقراطية ..وطوال التاريخ، تتكرر صورة المأساة ..

تتكرر صورة تزييف هذه العملة (الديموقراطية) لتعنى شيئا عند الناس، بينما هى، فى حقيقتها لا تعنى هذا الذى زعموه ..

فى عام ١٨٨٢، غزت انجلترا مصر، وفعلت بها أبشع مايمكن تصوره من مظاهر القهر والاستغلال والنصب والخداع، وكان ذلك يحدث، والذين يحكمون فى لندن هم حزب (الأحرار)..!! ولم يشعر الغزاة الذين يمارسون القهر والاستغلال بأى تناقض فى سلوكهم بين ديموقراطية فى لندن، وقهر واستغلال فى القاهرة، ففى لندن يعيش أحرار أثينا، أما فى القاهرة، فالذين يعيشون فيها هم أحفاد عبيد أثينا !! وهكذا يصح المنطق فى نظر القاهرين والمستغلين .

ويزور (روزفلت) مصر سنة ١٩١٠، ويطلق شعارات غاية فى الوجاهة السياسية والفكرية عن الديموقراطية والحرية، لكنه لا يقول شيئا عن حقوق جموع الشعب من المصريين الذين كان يراهم يرسفون فى الأغلال !! ويجئ ويلسون خلفه بعد الحرب العالمية الأولى ويطلق مبادئ تنتزع التصفيق والإعجاب تغنيا بحق الشعوب فى تقرير مصيرها، فلما ذهب الوفد المصرى إلى باريس مطالبا بالحرية لمصر، كانت تلك المبادئ يهال عليها التراب، فقد كان المطلوب هو

---

* نشرت فى جريدة مصر الفتاة ولا أذكر التاريخ بالضبط للأسف

(تحرير) شعوب من مستعمر مغضوب عليه، لنقلها إلى مستعمر آخر مرغوب فيه !!

وتكررت نفس القصة بعد الحرب العالمية الثانية ..

وعندما استطاعت إرادة الشعوب أن تنتزع حريتها بعد طول كفاح، كان القاهرون لها بالمرصاد، يغيرون جلودهم، ويطورون فى وسائلهم وأسلحتهم، فكانت حركات التفاف وتطويق ليعيدوا السيرة الأولى .. ملحمة التاريخ البشرى، فهناك قاهرون يعيشون على امتصاص دماء الآخرين، فلابد أن يكون هناك مقهورون، لتظل الدماء فى حالة نزيف تغذى الذئاب والكلاب المنتشرة فى الغابة ..

يصطنع القاهرون أحزابا وتنظيمات كى تكون شخوصا فى مسرحية جديدة اتخذت الإسم القديم .. الديموقراطية، ويصدق مخلصون اللعبة، فكوّن بعضهم فى هذا البلد وذاك أحزابا وتنظيمات لتشارك فى اللعبة، وليقع فى وهم الجماهير، أن مايتخذ من قرارات وما يرسم من سياسات إنما هو عن طريق نواب الشعب، وماعلموا أن هؤلاء وهؤلاء إن هم إلا (عرائس مسرح) تحركها أيد وراء الستار ..

كانت العين الفاحصة، تستطيع أن تبصر الخيوط التى تحرك، وكانت العين الفاحصة ترصد باستمرار نفس الحدوتة : فلتجر اللعبة، على أن يكون الفائز هو (رجالهم) .. الوكلاء السياسيون لقوى القهر والاستغلال، فإذا ماغفل القوم لحظة من لحظات التاريخ، وأمكن لمن ليسوا من رجالهم أن ينجحوا، فلابد للأنياب أن تظهر ولابد من الوأد والاجهاض ..

قالوا كثيرا، أن الأحزاب الشيوعية أحزاب (انقلابية) لا تصل إلى السلطة إلا بالعنف .. وأراد جماعة من الرفاق فى شيلى أن يقولوا ها نحن نسير على النهج الذى تفضلون وتمدحون.. فى طريق الديموقراطية البرلمانية، وكانت النتيجة أن وصل الرفاق إلى كرسى الحكم.. وكأنها كانت الكارثة الكبرى، وكان لابد لشيطان العصر .. الولايات المتحدة الأمريكية أن تلتف وتدبر وتخطط لكى يسقط الرفاق بزعامة (الليندى)، بانقلاب .. هزموا الديموقراطية بانقلاب !!! .. زعماء الحرية والديموقراطية .. ارتضوا لأنفسهم هذا وفلسفوه وبرروه .. والكتبة جاهزون .. والخطباء يسنون ألسنتهم منذ فترة استعدادا للإنطلاق بما يقوله لهم السيد الكبير القابع فى بيته الأبيض .. وإن شئت الدقة بيته الأسود !!

ولن نعيب فقط على (الأغيار) ..

ففى بلدنا، وفى بلاد أخرى، كانت فيها نظم (ثورية)، انطلق فيها ذلك الشعار الشهير الذى هو قولة حق انتهت إلى باطل ..

الحرية للشعب، ولا حرية لأعداء الشعب !!

إذ شيئا فشيئا، كانت دائرة أعداء الشعب تتسع لتشمل كل صاحب رأى مخالف، ليسود الرأى الواحد والفكر الواحد، ويتنفس الناس خوفا، ويعيشون رعبا، فى الوقت الذى تنشأ فيه المدارس وترتفع مداخن المصانع، ثم إذا باختفاء الرأى الآخر يؤكد أنه هو (روح الأمة) وقوام الدولة، وبغيابه، تنهار وتندحر، ولا تنفعها قوة مسلحة ولا مداخن مصانع ولا أبنية مدارس !!

وفى إيران .. قام فريق من الناس، يرفعون شعارا بتوجّه خاص، وحوربوا وحوصروا، ثم شاءت إرادة الله، وسعت إرادة الجماهير، فكان انتصارها، ويجئ زعيمهم الذى كان منفيا فى الخارج، على أكتاف هذه الجماهير، ولم يجئ على دبابة، ولم يكن يحمل مدفعا ..

لكن الفزع الأكبر هز الدنيا، ومازال. لماذا؟ لأن التوجّه الذى يسير على طريقه هؤلاء الناس، حمل هذه الكلمة المفزعة المروعة (إسلامى) !!

ألستم تنادون بحكم الشعب ؟!

ألستم تقولون بإرادة الجماهير ؟!

ألستم تندون باغتصاب السلطة بالدبابة والمدفع ؟!

فهؤلاء جاءت بهم الجماهير، وبغير دبابة ولا مدفع .. أليست هذه الديموقراطية التى تعزفون على أنغامها ؟!

لكن التبرير جاهز .. والكتبة مستعدون .. والخطباء مستنفرون .. تحت الطلب .. خدمة ٢٤ ساعة !!

إن وكالات الأنباء الكبرى .. الأجهزة الأخطبوط، المسيطرة على الأخبار فى العالم أجمع، فى أيدى شياطين العصر، فلتطير الأنباء إلى كل أنحاء الدنيا عن قتل وذبح وسجن واعتقال وتخريب وتدمير يمارسه الايرانيون الجدد .. أنباء مزعومة، لتبرز المقولة : الإسلاميون إرهابيون، ولا يسمحون للرأى الآخر أن يوجد .. إنهم الديموقراطيون !!

وجرّوا العراق المسكين إلى حرب ضروس حتى يستنزفوا المارد الإيرانى الجديد . لم تكن إيران هى البادئة بالحرب، لكن قوى العالم (الحر) .. وقوى العروبة المختلفة هبت لتدارى وتنصر البادئ بالحرب وتمده بالمساعدات ثمانى سنوات كاملة بمئات المليارات التى كانت تكفى لإشباع كل جائع فى وطننا العربى وتكسو كل عريان، وتؤى كل شارد بلا مسكن، وتعلم كل جاهل، وتنبت القمح والذرة والشعير، وتقيم مداخن المصانع !!

وبدأت المبررات الجاهزة : بوابة العروبة الشرقية يهددها الخطر الفارسى !!

أين هم الفرس ياقوم؟ لقد اختفوا منذ قرون .. فالأمة لا تكون أمة بذواتها الآدمية التى على قيد الحياة، وإنما تكون الأمة أمة بما تحمل من ثقافة وبما تبشر من حضارة، ولقد اندثرت الحضارة الفارسية، ولقد ولت الثقافة الفارسية، والذين فى الساحة الآن هم مسلمون إيرانيون.. وكيف يمكن للإسلام أن يقف مناقضا للعروبة التى هى لغته التى نزل بها قرآنه على نبيه (العربى)، وكيف يتهددها الاسلام ؟ لكنها اللعبة القذرة، حتى تخفى الحقيقة وتصيب العالمين العربى والاسلامى بنزيف الدم وشرخ مصنوع بين الإسلام والعروبة !!

هنا : لا حرية للإسلاميين الايرانيين .. والحرية للبعثيين العراقيين !!

ثم تدور الدائرة، ويغزو العراق الكويت، فتنعكس الآية، وتهب نفس القوى التى ناصرت العراق طوال سنوات لتقف ضده !! ويرفع شيطان العصر شعارا هو قولة حق فى مكان وغير ذلك فى مكان آخر .. إدانة لغزو دولة لأخرى واعتبار هذا احتلالا واغتصابا . وتتنبه جماهير غفيرة إلى المأساة الكبرى .. فلسطين، أليست أرضا عربية هى الأخرى قد اغتصبت فلماذا لا تتضافرون كذلك لنجدتها وتخليصها ؟!

لكن، لا .. فالحرية تكون لشيطان العصر فى أن يهيمن ويحكم سيطرته على الطاقة الكبرى، ولا حرية لعرب فلسطين فى أن تعود اليهم أرضهم ..!!

وفى مصر .. طالما قرن الإخوان المسلمون بالإرهاب، ومنعوا عشرات السنين من ممارسة حقهم السياسى، وبح صوت قادتهم، عبر سنوات، بأن التوسل بالعنف، كان مرحلة لها ظروفها الماضية وقد ولت وانقضت، ونحن الآن نقف ضد العنف وننشد الحوار والمناقشة والتعبير بالرأى والمواجهة الفكرية . لكن، لا .. لابد أن تظل تهمة الإرهاب لاصقة بهم، ويمنعون من حقهم السياسى، حتى عندما سلكوا الطريق الديموقراطى وتعانوا مع حزب الوفد سنة ١٩٨٤ فى الانتخابات، شنت عليهم أقصى الحملات، مع أنهم سعوا إلى طريق رسمى شرعى تحكمه صناديق الانتخابات . ونفس الشئ تكرر فى انتخابات ١٩٨٧ عندما تعاونوا مع حزب العمل .

ليست المسألة إذن مسألة اتهام بالعنف، ولكنها معاداة لفكر !!

ويحاولون التبرير بأن الدولة لا ينبغى أن يحكمها حزب دينى، فى الوقت الذى نتعامل فيه بكل الترحاب مع دول غربية أوربية ديموقراطية تحكمها أحزاب دينية !!

إن هذا حلال فى الغرب .. لكنه حرام فى الشرق ..

ندير ظهورنا لإيران، ونلهث اليوم للتعاون والسلام مع إسرائيل .. إسرائيل التى قامت على فلسفة دينية يهودية متعصبة وتحكمها أحزاب دينية إرهابية وأحزاب دينية، واغتصبت أرضنا ويتمت أهلنا وخربت ديارنا واستنزفت طاقاتنا،

حلال هناك ... وحرام هنا !!

وفى السودان، تجئ انتفاضة شعبية على حكم عسكرى هو حكم النميرى، وتجرى انتخابات ديموقراطية، جاءت بحزب الأمة حاكما. ولوحظ فتور دائم فى تصرفات مصر مع السودان لأسباب لا محل لها هنا .. ثم حدث انقلاب بقيادة البشير :

انقلاب عسكرى على وضع شعبى !!

واذا بجميع أجهزة مصر تكرس لتأييد الانقلاب ومساندته

ولكن ..

شيئا فشيئا، تبدأ مصرتدير ظهرها للسودان، رفيق العمر، وشقيق الحياة .. لماذا ؟ هل تذكروا فجأة أنه حكم انقلابى وهم الذين شجعوه وساندوه وآزروه ؟! كلا .. وإنما هو (بعبع العصر) كان قد بدأ يظهر .. توجه إسلامى فى السودان غالب هو السبب . لا أقول ذلك تعاطفا مع حكم العسكر، فأنا لا أحبذه أبدا مهما كان الشعار، ولكنى فقط أذكّر بتلك المعايير المطاطية فى العلاقات، حتى مع رفيق العمر وشقيق الحياة .. السودان .

عشرات الأمثلة التى يمكن أن تستغرق عشرات الصفحات، كلها تشير إلى تلك المأساة : الحرية حلال لهم هم .. القاهرون، المستغلون .. حرية الاستبداد والاستغلال .. والحرية حرام على المقهورين !!

واليوم تصل فصول المأساة الى ذروتها فى الجزائر الحبيب ...

ينتظم فريق من الناس فى حزب سياسى شرعى علنى وفق الأصول المطلوبة، ووفقا لتقاليد اللعبة الديموقراطية .. لم يسلكوا عنفا ولا أرهبوا ولاقتلوا ولا ذبحوا . وعندما يحتجون، يسيرون مسيرات سلمية ..

ونظمت انتخابات، واحتكموا الى رجل الشارع، وإلى جماهير الناس بصناديق شفافة زجاجية فى انتخابات تحت إشراف الحكومة . ولما كانت انتخابات حرة، ظهرت الحقيقة الغائبة فى دول عالمنا المنكوب، سقط حزب الحكومة لينجح حزب المعارضة .. انحازت الجماهير لجبهة الانقاذ، وإذا بالدنيا تهتز والهلع يملأ الوجوه !!

وكانت مصر تتصدر قائمة الخائفين الهالعين ..

أليست الآن (ترسا) فى آلة المنظومة الأمريكية ؟!

وتمت اتصالات وتحركات، حتى حدث ماحدث ..

فملعونة هذه الديموقراطية التى تأتى بإسلاميين !!

ومرحبا بالانقلاب وبحكم العسكر ... وأهلا بالرأى الواحد ما دام يمكن أن يسير فى غير طريق هؤلاء الملاعين - والعياذ بالله - الإسلاميين !!

هذا هو سلوك زعماء العالم الحر ..

هذا هو رد فعل الذين يحاربون الإرهاب ..

هذا هو موقف دعاة الحرية والديموقراطية !!

أرأيتم من هم الذين يزرعون بذور العنف ؟

أرأيتم من هم الذين يهيئون مناخ العمل السرى ؟

أرأيتم من هم الذين يمسكون بالخناجر يخترقون بها الظهور وبالسيوف يخترقون بها الصدور ؟

إنهم هؤلاء .. الوكلاء السياسيون لشيطان العصر، الذين يتربعون على الكراسى العالية، فى مناطق كثيرة من عالمنا المنكود !!

إحباط يحيط بنا من كل جانب، يكاد يخنق أنفاسنا ..

لكننا، وسط هذا الحصار القاتل من الإحباط، نرى بصيص نور من بعيد .. من دول ماكان يسمى بمنظومة المعسكر الاشتراكى ..

كان هناك استبداد قد بلغ الذروة ..

وكان هناك قهر محيط غالب ..

كان (شاوسيسكو) نموذجا فريدا فى القهر والاستبداد، وكان (هونيكر) فى ألمانيا رفيقا مماثلا .. وغير هذا وذاك ..

ومع ذلك، استطاع رجل الشارع أن يدك الحصون ويهوى بالكراسى العالية ويحطم السجون ويحدث أكبر تحول فى التاريخ الحديث والمعاصر، بلا بندقية، وبلا مدفع، وبلا دبابة ..

عندما انصهرت جماهير الناس فى شخص واحد، ليواجهوا كل قوى البغى والاستغلال.. كان الانتصار، وكانت أعراس الحرية والديموقراطية ..

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» . الأعراف / ٩٦

« مفيش فايدة »* !!

على الرغم من مشاعر عداء شديدة الحرارة، لا استطيع أن أخفيها، فضلا عن أن أنكرها تجاه «سياسة» الولايات المتحدة الامريكية عموما، وسياستها تجاه العرب والمسلمين على وجه العموم، فإننى لا أستطيع فى الوقت نفسه أن أنكر مشاعر إعجاب وتقدير لتوجه معين من توجهات الحياة الامريكية

كان ذلك منذ عدة سنوات، تقرر وقتها أن أذهب إلى الولايات المتحدة فى مهمة علمية تستغرق عدة شهور، وكانت تلك هى المرة الأولى التى تتاح لى فيها فرصة زيارة هذا البلد العجيب حقا لا، بل لقد كانت هى المرة الأولى التى أسافر فيها إلى بلد من بلدان الحضارة الغربية الحديثة

أقول الحق، فعندما انتهيت من إجراءاتى فى مطار جون كيندى بنيويورك، وقفت مذهولا حائرا، لا أعرف بالضبط إلى أين المسير، حيث كان على أن أخذ طائرة أخرى تتوجه بى إلى (بوسطن) . التى كانت هدف المهمة العلمية، وزاد من (لبختى) أن أسرتى كانت معى، وولدى صغيران، لا يستطيعان شيئا !!

أشار لى أحد رجال المطار، بعد أن سألته، بأن على أن اذهب إلى مطار آخر اسمه (لاجواردیا)، لأستقل طائرة إلى بوسطن

لم يكن التحرك سهلا بالنسبة لمن ألف - منذ سنوات عدة - مطارا واحدا للدولة، لو وضع بجوار هذا الذى يرى فى نيويورك، لابد أن يصاب بالارتباك إلى أقصى مايمكن أن يتصوره، أحد .

وعندما وصلنا إلى مطار لاجواردیا، وسألت عن طائرة الشركة التى جئت عن طريقها، والتى تتجه إلى بوسطن، قيل لى إنها (طارت) !!

سيطرت على مشاعرى لحظتها مشاعر القروى المصرى منذ سنوات، عندما يذهب إلى محطة السكه الحديدية، فيجد أن القطار الذى حجز له قد قام ! فمعنى هذا، ضياع التذكرة، والانتظار عدة ساعات إلى حين أن ياتى قطار آخر !

لكن مسئولا بالشركة أجابنى على الفور NO Problem وبقروية ساذجة سألته عما يقصد، وهما منى بانه يقصد أن المبلغ (ثمن التذكرة) لا ينبغى أن أحزن من أجله «فرب ضارة نافعة »

---

* الاهرام فى ١٩٩١/١٢/٢٠

كما نقول، «وكل تاخيرة فيها خيرة»، كما نردد، لكن الرجل أسرع بالقول بأنه يمكن تحويل التذكرة إلى شركة أخرى ستقلع طائرتها بعد نصف ساعة فقط

كان هذا (منطقا) جديدا فى التفكير ألمسه لأول مرة، حيث قد ألفت أن خطوط الإنتاج عندنا والخدمات منفصل بعضها عن الآخر، وكأن كلا منها (جمهورية) مستقلة لا تستطيع أن تحول مثلا من تعليم إلى آخر، أو من شركة إلى أخرى

وبدأت سلسلة التجارب والخبرات تتوالى يوما بعد يوم وفق هذا المنطق الذى لم أكن قد ألفته، إذ فوجئت بأن الزميل الذى أوصيته، لم يحجز لى سكنا بالجامعة، وإذا المسئول يجيبنى على الفور NO, Proplem فهناك بدائل حاضرة وجاهزة وبنفس المميزات، دون أن يكون الحل هو فى أن هناك «أماكن» على جنب - محجوزة للحبايب والمعارف !!

وهكذا، إذا بكثير من المشكلات والعقبات تجد لها العديد من سبل الحل، والعديد من طرق العلاج، بحيث (يتعود) الانسان على أنه ما من موقف صعب إلا ويمكن التغلب عليه، فتزداد الثقة بالنفس، وتحقن الإرادة الذاتية بصفة خاصة والإرادة القومية بصفة عامة بالمقويات والمنشطات التى تقهر المستحيل

لست من هواة المقارنة، لعلمى بتباين الظروف واختلاف المتغيرات، ولكننى لا أستطيع أن أنسى عددا من الأقوال السائرة التى تكون هى الرد المميز فى مجتمعنا فى مواجهة أية مشكلة « كان غيرك أشطر» .. «لا يصلح العطار مافسده الدهر» «ابقى قابلنى» «لما تشوف حلمة ودنك».. «قيراط حظ ولا فدان شطارة» ، بل وكثير من المصريين يرددون تلك العبارة المشئومة التى تنسب إلى سعد زغلول قبل وفاته كانت لها مناسبتها، وهى «مفيش فائدة»، وكأن هذه العبارة أصبحت اللحن المميز والعلم المرفوع على السلوك فى مواجهة الصعاب والعقبات

ترى، لماذا يقولون هناك (لا مشكلة) و (لا تنزعج) وماشابه هذه وتلك من العبارات التى تدل على (الإقدام) و (الإيجابية) و(التفاؤل) ونقول غالبا، تلك العبارات التى تنم عن (القعود) و(اليأس) و (الإحباط) ؟

ليست المسألة هى مجرد أقوال عابرة، وإنما هى تلخص خبرة الشعوب ونمط تربيتها، وهى بهذا المعنى تدل على ما لقيته جماهيرنا طوال عهود طويلة ماضية من قهر واستغلال أقعد الهمم وأصاب الإرادة الذاتية للفرد والإرادة القومية للأمة فى فترات طويلة بالضعف وأحيانا بالشلل الوقتى، فشاع يأس مميت وانتشر خنوع مقيت، وعشش بوم الاستسلام فى أوكار النفوس والقلوب

إن نفض غبار القهر الذى استمر قرونا لن يتأتى بدروس أخلاقية بوجوب الشجاعة والإيجابية، ولن يتحقق بعدد من الخطب والشعارات التى تدعو إلى العزة الشخصية والقومية، ولكنه يتأتى بمزيد من المشاركة ومزيد من الديمقراطية حتى تتخلق من جديد إرادة ذاتية للمواطن تحقق الطموح الشخصى، وإرادة قومية للأمة تقهر المستحيل وترسم بيدها هى خريطة المستقبل وتحدد بنفسها هى طرق تنفيذه، وتسعى بنفسها هى لتشخيصه .

عصـــر التكفيـــر* !!

على الرغم من ارتباط كلمة (التكفير) بمعنى خاص يربطها بالدين، حيث تقال عادة تعبيرا عن انكار وجود إله أحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، إلا أنها قد عممت فأصبحت تطلق على عموم فقدان الإيمان بشئ ما، فنسمع من يقول : لقد كفرت بالاتجاه كذا... أو : لقد كفرت بالسياسة .. أو لقد كفرت بالحب ... الخ

لكن هذه الكلمة ارتبطت، منذ عدة سنوات فى أذهاننا، بنفر من الناس يحكمون على مجتمع بأسره، فى ظل نظام سياسى بعينه، بالكفر بالله .

وهذا الحكم بالتكفير إنما هو مظهر من مظاهر نمط من التفكير يقوم على نفى الآخر . إنه يعتقد أنه وحده على صواب، وغيره على خطأ، وأن هذا الخطأ الذى عليه الآخر، إنما هو (سرطان) خبيث، وخطر داهم لابد من القضاء عليه . إنه منطق : (إما أو) : إما أسود أو أبيض، وليس بين الطرفين درجات . وهو يضاد تماما المقولة الفقهية الرائعة، فى زمن القوة والعزة والازدهار الحضارى العربى الاسلامى، التى تقول: (رأينا صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيرنا خطأ يحتمل الصواب) .

ولأننا الآن نعيش زمن التراجع والانكسار وافتقاد الحلم الاجتماعى والاستسلام، وعلى حد قول هيكل، نعيش زمنا وكأن فيه وابو زلط قد مر على كل شئ فأصبح مسطحا، فقد شاع هذا النمط من التفكير (التكفير)، ولم يعد مقتصرا على الدائرة الدينية فقط، بل راح يمتد ليشمل مجالات أخرى، وخاصة ميدان السياسة .

ويخطئ من يظن أن أول من بدأ التكفير هو جماعة شكرى مصطفى . فلقد بدأتها الحكومة نفسها، عن طريق نفر من كتابها، الذين نعلم أنهم عندما يندفعون فى (هوجة) ما بالتحسين أو التقبيح، فإن ذلك إنما يكون بفعل (توجيهات) تكون قد صدرت من مصادر (عليا)، بل ولربما من أعلى المصادر !!

ولنحاول أن ننعش ذاكرتنا بعض الشئ ...

عندما أعلن عن قيام أحزاب فى مصر فى أواخر السبعينات، وقام حزب الأحرار ممثلا لليمين، والتجمع لليسار، و (مصر) للوسط، إذا بحملات محمومة، وخاصة على صفحات إحدى

---

* نشرت فى جريدة العربى ، غالبا عام ١٩٩٢.

الجرائد اليومية الكبرى (الحكومية) تشن على التجمع، واصمة إياه بأنه تجمع للشيوعيين الملحدين - مع أن الشيوعيين كانوا مجرد فصيل فيه -، وأن أمينة العام (خالد محيى الدين) هو الصاغ (الأحمر)، وجريدة الحزب (الأهالى) هى الجريدة (الحمراء) . بل وسيقت عبارات سخرية واستهزاء واستنكار، عندما أعلن عن (حج) خالد إلى بيت الله الحرام، وافتقدت هذه الحملة أبسط قواعد اللياقة والأدب، وكأن القوم قد اطلعوا على السرائر والنيات، وتساءلوا : كيف يجوز حج لماركسى لا يؤمن بالله؟! واصفين ذلك بأنه مكر وخداع ونفاق، والله هو الأعلم بالمنافقين المخادعين .

واستمرت الحملة سنوات ، وبضراوة ملحوظة، حتى شاع بين كثيرين من عامة الناس أن التجمعيين لا يؤمنون بالله، وأن عموم اليساريين هم خارج دائرة الإيمان الصحيح بالله !

بل لقد نال كاتب هذه السطور بعض رذاذ من هذا (الإفك) . ففى أواسط الثمانينات، كنت أكتب بكثرة على صفحات (الأهالى) ، ورغم إعلانى فى أكثر من مناسبة، أن هذا لا يعنى كونى (تجمعيا) إلا أننى لم أسلم من بعض مظاهر ريبة وشك، عبّر عنه البعض لى، وحدستها لدى بعض آخر، بأننى لابد وأن أكون ضعيف الإيمان، والعياذ بالله !! ومازلت أذكر جملة تسربت إلى أذنى، همس بها واحد إلى آخر، فى مؤتمر (إسلامى) كنت أحضره فى لندن عام ١٩٨٦ تساءل فيها : «مش ده الجدع اللى بيكتب فى الأهالى إيه اللى جابه هنا » ؟!

وحتى الآن، لم نقرأ ولم نسمع جملة واحدة تشير إلى تغيير جذرى فى الأسس الفكرية للتجمع، ومع ذلك، فقد سكتت أصوات التكفير، بل ونلمس تعاونا وترحيبا وتقديرا وتقريظا !! لماذا إذن كان ماسبق ؟ ولماذا ماهو حادث الآن ؟!

إن هذا إن دل على شئ فإنما يشير إلى أن المسألة لم تكن حرصا على إيمان بالله، وإنما هى صورة من صور اللعبة السياسية، عندما تتسخ إلى درجة الزج باسم الله، وكأنه - تعالى جل شأنه - قد أصبح أداة ووسيلة فى يدى مهرجى السياسة المصرية

أرأيتم من الذى أرسى التقليد وبدأ ؟

واليوم يمارسون نفس اللعبة فى المجال السياسى ..

فالرئيس مبارك، يستعد لكى يحصل على (الشرعية الستورية) لتى تمكنه من الاستمرار فى الحكم لست سنوات أخرى

من حقه هذا ..

ومن حق البعض أن يسانده ويؤيده فى ذلك ..

لكن من حق آخرين أن يرفضوا هذا ..

تلكم هى مقتضيات اللعبة الديموقراطية النظيفة، وفق قواعدها المعروفة .

لكن، هل تسير الأمور وفق القواعد المعروفة للعبة النظيفة ؟ كلا

انظر إلى موقف الكتبة الحكوميين وهم يعلقون على موقف من اعترضوا على استمرار مبارك للمرة الثالثة ..

إنهم لا ينظرون إلي هؤلاء الرافضين نظر صاحب رأى، إلى آخر، مخالف له، وإنما على أساس أن الرافضين (خونة) ومارقين، ويريدون لمصر الخراب والضياع !!

سبحان الله ..

فى كل الدول، التى نصفها بأنها متقدمة، هناك ما لايقل عن ثلث الناس، رفضوا مَنْ تولى الحكم. فهل رأيتم أو قرأتم أو سمعتم أحدا يشن عليهم الهجمات، مثل تلك التى تراها عندنا؟ فلماذا هذا الفزع والهجوم على اعتراض بعض، لم يؤثروا فى نتيجة الاستفتاء، المعروفة سلفا ؟

ألا يعنى هذا، أن مبارك ليس له مثيل بين حكام العالم السابقين والحاليين وأنه يفوقهم جميعا؟!

إن الله عز وجل، المهيمن، الجبار، جلتّ قدرته، لا تصل نسبة الاعتقاد فيه، بين من خلقهم، إلى ٩٠ أو ٨٠٪، إذ هناك مئات الملايين ممن لا يؤمنون بالله، فهل يريد حملة المباخر وكدابى الزفة أن يقولوا أيضا أن مبارك يجب أن يحظى بتأييد لم يحظ به الله ؟!!

إنهم يمارسون نفس النمط من (التفكير) الذى يؤدى الى (التكفير) ..

وإن شئت مزيدا من الصراحة، فإن القوم لم يتعودوا أن يقولوا (لا) . لقد بُرمجت عقولهم على تلك الكلمات التى يقولون فيها : نعم .. صحّ .. تمام ... عظيم .. الخ لمن يملكون أمر قوتهم ومراكزهم وجاههم وسلطانهم . فإذا مارأوا أحدا يقول عكس ذلك، استنكروه لأنه يكشف نفاقهم ويعرى أساليبهم :

ربنا لا تؤخذنا بما فعل السفهاء منا !!

تحيـــا القـــوة* !!

من الكلمات المشهورة للزعيم سعد زغلول : «الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة»، ولو فتش أبسط الملاحظين السياسيين علما فيما حوله، لوجد العكس، أى عكس مقولة سعد زغلول تماما، على الساحتين العالمية والعربية :

فعلى الساحة العالمية، سيجد أن القوة هى التى فوق الحق !

وعلى الساحة العربية، سوف يجد الحكومة فوق الأمة !

ولأن الأمة تحت أقدام الحكومة، فإنى اعتذر للقارئ عن عدم من مناقشة هذه المقولة، خوفا، وإيثارا للسلامة، وليقنع منى بمناقشة المقولة الأولى، إذ لن يشكل كاتب هذه السطور خطرا على القوى الكبرى المهيمنة على العالم، ومن ثم فسوف يتركوننا (نفضفض) عن أنفسنا !!

فلقد كثرت الشكوى بين الأفراد والحكومات فى عالمنا السعيد النامى، بأن النظام العالمى الجديد يكيل مكيالين، فامتلاك دولة لا ترضى عنها الولايات المتحدة الأمريكية قدرة نووية أمر يستوجب العقاب الجماعى الدولى، لكن امتلاك دولة غربية لهذه القدرة، أمر مباح ومشروع. وذبح آلاف من مسلمى البوسنة، أمر معقد يستوجب التفكير والتشاور عدة سنوات، لكن (الزعم) بأن ليبيا تسببت فى إسقاط طائرة أمريكية عليها ركاب، أمر يستوجب محاصرة الشعب الليبى كله وتجويعه عدة سنوات، علما بأن الولايات المتحدة نفسها سبق لها أن أسقطت طائرة ركاب إيرانية عام ٨٨، عليها أكثر من مائتى فرد، ولم يفكر أحد أبدا بأن هذه القوة العظمى قد أخطأت، وبالتالى تستحق العقاب !

أما إسرائيل، فحدث عنها ولا حرج . فقتلها العشرات من الفلسطينيين، وتشريد المئات، واستيلائها على الأراضى العربية، وامتلاك عشرات القنابل الذرية، فكل هذا يأتى تحت بند (مشروعية الدفاع عن النفس)، أما لو فعلت دولة أو جماعة عربية واحداعلى ألف من هذا، فلابد من الحكم عليها بأنها «إرهابية»!

وإذا كان قد شاع على ألستنا وأقلامنا هذا، فلابد من إعادة النظر فى منهج تفكيرنا لنقر بأن هذه التصرفات (منطقية) و(طبيعية)، ذلك أننا نمارس نفس ازدواجية المعايير بيننا داخل

---

* العربى فى ١٩٩٨/٢/٤

منظومة الدول العربية، كما نمارسه داخل الدولة الواحدة، بل وعلى المستوى الفردى، ومن هنا جاء قول القائل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبدى المساوئا

وإلى هذا وذاك ذهب المثل الشعبى القائل :

(حبيبك يبلع لك الظلط وعدوك يعدلك الغلط) .

قيل هذا وذاك قبل ظهور النظام العالمى الجديد، وقبل ظهور الولايات المتحدة ...

إنه صراع القوة ...

انظر إلى أى لجنة، أو أى إدارة، أو أى قسم، عندما يعقد اجتماع، فسوف تجد (الرئيس) - غالبا- هو صاحب (الرأى الوجيه) و (المنطق المعقول) و (الحكمة الثاقبة) .

ولهذا أيضا سخرت الحكمة الشعبية من هذا المنطق، معبرة عن ذلك بقولها : «لما كلب الأمير مات، راحت الناس تعزيه، ولما الأمير مات، ملقاش حد يعزى فيه» . فى الحالة الأولى كانت «السلطة » قائمة، إذا، فلابد من الهرولة حتى ولو كان الميت (كلبا)، أما فى الحالة الثانية، فقد اختفت «السلطة»، إذا فلا تعزية، حتى ولو كان الميت (أميرا) .

وانظر إلى (جيب) الإنسان، فسوف تجد أن مامعه من (الحق) إنما يتناسب مع مقدار رصيده المالى والعقارى .

وهكذا يحدد كل من (الكرسى) و (الجيب) درجة الحق والصدق .

لقد تشعبت اتجاهات المفكرين والفلاسفة إلى ثلاث، فى بحثهم عن المعيار الذى يجب أن يتوافر فى الفكر حتى يكون (حقا)، فذهب (العقليون) إلى أن المعيار هو فى (الاتساق المنطقى) بين أجزاء الفكر، واتساق النتائج مع المقدمات . وذهب (التجريبيون) إلى أنه : مدى التطابق بين المقولات النظرية، وبين ماتخبر عنه من معطيات الواقع . وذهب (البراجماتيون) إلى أنه فى (مدى الفائدة) و(النفع) الذى تحمله الفكرة .

وفى رأينا أنه لابد من إضافة معيار رابع، هو : مقدار ماتستند إليه الفكرة من (قوة) .. لا نقول قوة منطق وإقناع، وإنما قوة عسكرية، أو مالية، أو سلطوية ..

بطبيعة الحال، أتوقع استنكارا من كثيرين، مما يجعلنى أنبه إلى أننا - جميعا - قد نتفق على أن هذا الذى قلت «لا ينبغى أن يكون»، ولكنى أصف واقعا حادثا، لعلنا نكف عن لطم الخدود وشق الجيوب والعويل والنواح من ظلم «النظام العالمى الجديد»، ونوقن بأن هذا هو منطق الحياة طوال قرون عدة، وأن الأسى والأسف والبكاء والشكوى، لن تكسب الحق شرعيته،

ولكن تخلع عن الباطل زيفه، ومن ثم، فإن الحل الحتمى والوحيد، هو أن نكون أقوياء ... وتحت بند (القوة) هناك عشرات التفاصيل : امتلاك المعرفة، والقوة المسلحة، الديموقراطية، التنمية، الذات الثقافية .. وهكذا .

ولأن منطق الحياة نفسه يؤكد أن من يعطى، يملك أن يمنع ويسحب، فإن انتظار أن يمنحنا الغير مظاهر القوة هذه وغيرها، لن يغير من واقع الحال المزرى الذى نعيش فيه، وإنما يغيره ، أن يجئ امتلاك هذه القوة بجهد ذاتى، مع التسليم بأن هذا الطريق مفروش بالألغام والأشواك ...

قال صاحبى عندما قرأ مسودة هذا المقال : أنت تحلم .

قلت : أرجوك ، لا تحرمنى من حق الحلم ... فمن يدرى ؟

وهم السلام بين «المواجع» و «الفواجع»*!

لم يكن فى النية أبدا المشاركة فى الحديث عن تلك المهزلة التى مازالت فصولها تعرض على مسرح الشرق الأوسط باسم مايسمى «بالسلام» منذ عام ١٩٩٢ على مسرح مدريد، فقد كان التوقيت يعلن بذاته، عن النتيجة، فماذا يمكن أن تأخذ أمة سلمت مسئولية إدارة أزماتها إلى آكليها ومصاصى دمائها كما ظهر على مسرح أحداث حرب الخليج الثانية المشهورة باسم «غزو الكويت» ؟

لكن يبدو أنه لا مهرب من المشاركة وإن جاءت متأخرة، وأنه، بالفعل، قد كتب علينا القتال وهو كره لنا ....

فمنذ فترة، وأنا أشعر بأنه قد أصبح مطلوب منا أن نعيش بلبلة مفاهيمية، تجعل الأبيض أسودا والحرام حلالا، وتؤكد أن الأسود إنما هو أبيض، وأن مانتصوره حلالا إنما هو الحرام بعينه، فإذا ما رفع مثلى يده احتجاجا وصوته معترضا، سارع متطوعون يرموننا بالجمود والتخلف وأننا - فيما يبدو - قد تيبسنا، عجزا عن مسايرة ومعايشة «النظام العالمى الجديد»، الأمر الذى جعل مثلى - أيضا - لايجد مايدعو به الله فى صلاته إلا أن يرسل طيرا أبابيل ترمى هذا النظام العالمى الجديد بحجارة من سجيل لتجعله كعصف مأمول !

لقد هربت منذ فترة، من الوقوع فى فخ قناتنا التلفازية التسعة، بعد أن اقتنعت بأنها تبرهن على صحة نظرية الاستنساخ قبل ظهور النعجة الشهيرة، فأسرعت إلى (الطبق الفضائى)، فإذا بى أضع نفسى فى (جب) مأساة شبه يومية تبثها شاشات التلفاز إعلانا عن ممارسات يومية تنضح بالعدوانية والعنف والإرهاب والعنصرية، تصفع أعيننا وتوجب الاستنفار الفكرى، كشفا عن حقائق كانت قد بدأت تغيب عن أنظارنا فى السنوات الأخيرة، تسير كلها فى اتجاه واحد هو أننا لسنا أبدا أمام جار (صديق)، وإنما نحن بالفعل أمام (قاطع طريق) متربص، لايقنع أبدا بما أكل من لحم أمتنا، وإنما يريد أن يلتهم مستقبلنا كذلك

ولاشئ يصيبنى بالغثيان مثل تلك الأنباء التى أصبحت مقررا يوميا، عبر شهور طويلة، عما يسمى «بإنقاذ عملية السلام» .

---

* العربى فى ١٩٩٨/٣/٢٩

وأشد مايبعث على الغثيان أكثر هو استمرار المشاركة الفلسطينية فى هذا العبث السياسى، والحج إلى واشنطن من حين إلى آخر، أملا فى أن يساعد الذئب والحملَ !!

لقد فزع العرب عندما جاء نتياهو إلى الحكم، ثم تنادت أصوات تطالب بإعطائه فرصة للحكم عليه، وكلما مرت الشهور، تأكدنا جميعا أن الإسرائيليين يزدادون تعنتا لسبب بسيط، فما الذى يجبرهم على التنازل للسلطة الفلسطينية عن شئ ما ؟

نفس السلطة الفلسطينية، فى حيرة من أمرها، فقد تنازلت عن الكثير حتى لم يعد لديهم مانتنازل عنه إلا أن تعلن بصراحة عن الهدف من العملية كلها، وهو أن تتحول السلطة إلى ذراع للأمن الإسرائيلى لتغتال مابقى من روح المقاومة لدى حماس والجهاد .

هل أفتئت على بنى اسرائيل فيما أقول ؟ افتح العهد القديم، سفر اشعيا، الإصحاح الأول، فسوف تقرأ :

«اسمعى أيتها السموات واصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم، ربيت بنين ونشأتهم، أما هم فعصوا على .. شعب لا يفهم ... استهانوا بقدوس اسرائيل وارتدوا إلى وراء ... لماذا لى كثرة ذبائحكم؟ .. رؤوس شهوركم وأعيادكم تبغضها نفسى ... أيديكم ملآنة دما ..»

وبدون استطرادات أخرى، فلتسمحوا لى بتسجيل الملاحظات التالية* :

١- الحوار مع الآخر أمر لاينبغى أن يجادل فى أهميته أحد، فالمؤمن بفكرة، عندما يقوم إيمانه بهذه الفكرة علي أسس وطيدة من أدلة الواقع وبراهين المنطق واستنباطات العقل، لايخشى الحوار، فهو إن حاورز الآخر، فلربما قربه إليه، فإن لم يحدث هذا، ظل على إيمانه . أما الخوف من التأثر بالآخر، فإنما هو دليل ضعف منطقى ومظهر تشوش فكرى .

لكن (التفاوض) أمر مختلف ... التفاوض يكون بين أطراف تملك تغيير الواقع، بناء على ماتصل إليه من نتائج المفاوضات، ومن هنا كان (الحوار) مجالا للمثقفين، أما التفاوض، فهو مجال السياسيين و(ملعبهم) الذى يجيدون اللعب على أرضه . ومن بدهيات التفاوض التى يعلمنا إياها خبراء السياسة وعلماؤها أن المفاوضات التى تجرى على الموائد إنما تعكس حقائق وموازين القوة على الأرض . فإذا ألقينا نظرة سريعة على هذا الجانب، فسوف نجد أنفسنا للأسف الشديد فاقدين للكثير من الأوراق التى يمكن اللعب بها، وهو الأمر العكسى بالنسبة للطرف الآخر، فماذا إذن يمكن أن تكون نتيجة التفاوض إلا أن يملى علينا الآخر مايريد ؟

* كان ذلك بمناسبة ظهور مايسمى «بجماعة كوبنهاجن» .

٢- وهذا ينقلنا إلى الملاحظة الثانية، فالبعض يسارع إلى الرد علينا بقوله : إذن تريد لنا أن نحارب ؟ الحق أن هذه ليست النتيجة المنطقية للمقدمة السابقة، فرفض التفاوض لايعنى بالضرورة أن يكون البديل هو الحرب، لأن هذا الرفض، إذا كان مبنيا على الإقرار بافتقاد شروط القوة، فكيف يؤدى إذن إلى التفكير فى الحرب ؟ إن النتيجة المنطقية حقا للمقدمة السابقة، هى ضرورة استنفار القوى المجتمعية جميعها للأخذ بأسباب القوة، وعملية مثل هذه لا تتم فى أجواء حرب .

٣- إن السلام هنا يصبح ضرورة. لكن القول بالسلام مع الآخر، لايستلزم بالضرورة التعامل متعدد المجالات فيما يسمى بمصطلح العصر (التطبيع)، لأن المعاملات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، إنما هى صورة من صور التفاوض التطبيقى الذى من شأنه أن يكسب الآخر مزيدا من القوة . إن هناك عددا من الدول ليست بيننا وبينها حالة حرب، ومع ذلك فقد لا تكون بيننا وبينها معاملات اقتصادية وثقافية أبدا، وإن وجدت فهى طفيفة للغاية .

٤- إن الآخر الإسرائيلى يتحرك ويحيا «بالتاريخ» و «بالدين»، فما حدث منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد عند نشأة إبراهيم عليه السلام، يعيش حيا فى الحياة الإسرائيلية المعاصرة، وبالتالى لا مجال لديهم لمقولة «الزمن الذى يتغير»، ومن ثم قابلية تغيير الأحكام والمواقف . وفى المقابل فنحن أساتذة مقولة «اللى فات مات» و «عفا الله عما سلف» ، وآخر مصائبنا ألا نعلم تلاميذنا فى الثانوية تاريخ بلادهم إلزاما !!

وهم يسمحون بأحزاب دينية وتشارك فى الحكم، بل إن اسم الدولة نفسه له دواعيه الدينية، ومعظم القضايا المثارة يتعاملون معها من منطلقهم الدينى، ولكننا نفعل العكس، لا معهم فقط وإنما مع أنفسنا، فكيف إذن يستقيم أن تتعامل مع الآخر وأنت ترمى وراء ظهرك متغيرين أساسيين يتعامل الآخر معك وفقا لهما : التاريخ والدين ؟

٥- كيف يمكن لى أن آمن الاخر الاسرئيلى الذى يعيش تاريخه ودينه ليل نهار وأنا أقرأ فى الإصحاح الخامس عشر من سفر التكوين فى التوراة قوله على لسان (الرب) :

«فى ذلك اليوم قطع الرب مع (إبراهيم) ميثاقا قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ... »

لقد أصروا علي أن تحذف منظمة التحرير الفلسطينية من ميثاقها ماقيل إنه يعنى العمل على القضاء على إسرائيل، فماذا نقول أمام هذا النص المقدس الذى أوردناه، والذى

لايملك أحد تغييره، ولا حتى الوعد بذلك، وهو يعنى بصريح العبارة أن جارنا غير العزيز مطالب بألا يكتفى بالأرض التى هو عليها الآن ؟ لا ينبغى أن يقول أحد أن ذلك (تراث) مضى فالتراث اليهودى، كما كررنا، ليس ماضيا بقدر ماهو خريطة للمستقبل !

٦- وحين أشاهد ما أشاهد من عشرات الصور لجرارات تزيل بيوتا لفلسطينيين، منذ اتفاق أوسلو المشئوم، دون توقف، وحين أشاهد العنف المستمر والعدوانية المستعرة، والعنصرية البغيضة، كيف لى بعد ذلك أن أثق وأصدق هذا الآخر فى صداقة مزعومة ورغبة فى المشاركة والتعاون ؟ لماذا أطالب أنا برفع شعار (عفا الله عما سلف) ويظل الآخر مرددا نفس المقولات التى بدأت معه منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحتى الآن ؟

لعل القارئ قد فهم الآن ماقدمت به هذا المقال من تردد فى الحديث عن (الهم الفلسطينى) و (الغم الإسرائيلى)، ومع ذلك فها أنذا قد اضطررت إليه ، فمعذرة أيها القارئ إذ استحضرت لك «مواجع» الماضى وشددت انتباهك إلى «فواجع» الحاضر، حتى لا نحصر تفكيرنا فى «ذرائع» يمكن أن تغرقنا فى آمال متوهمة لمستقبل لا نملك خريطة واضحة للوصول إليه !!

الإمبريالية ... من بعد*!

نحن نعرف أن لكل عصر عملته اللفظية التى بها يتم تبادل الأفكار ، تماما كما يحدث فى عالم التجارة إذ تكون هناك عملة نقدية عن طريقها يمكن تبادل السلع المختلفة شراء وبيعا . وبطبيعة الحال فإن العملة النقدية التى كانت أساس التعامل فى العصور الإسلامية - مثلا - لاتصلح للتعامل بها فى وقتنا الحاضر مهما حملت جوانحنا الكثير من آيات التقدير والإعجاب بهذه الحقبة من الزمن . نفس الشئ إذن يمكن قوله بالنسبة للفكر حيث تشكل جملة الألفاظ والمصطلحات (عملة التداول الفكرى)، إذا صح التعبير، بمعنى أنه، إذا كان من العملة اللفظية المتداولة فى مصر فى القرن الماضى ألفاظ مثل : سعادتلو، وأفندينا، وإذا كان مما كان يتداول فى العهد الملكى ألفاظ مثل : حضرة صاحب المقام الرفيع، والشماشرجى، فلا ينبغى، بناء على هذا أن نستخدم مثل هذه الألفاظ . والمسألة ليست أن القانون يمنع مثل هذه الألفاظ وإنما لأن مسمياتها نفسها لم يعد لها وجود .

فهل ياترى نستطيع أن نقول شيئا مثل هذا على مصطلح (الإمبريالية)، حيث نلاحظ أنه قد بدأ يختفى منذ انهيار منظومة الدول الشتراكية (١٩٨٩ - ١٩٩١) ؟

الحق أننا لو سلمنا بذلك، فإن هذا معناه أن (الإمبريالية) كانت وهما روجت له الدول الاشتراكية من أجل اجتذاب دول العالم الثالث ومحاربة الدول الرأسمالية .

لكن استقراء الواقع يؤكد لنا أن الإمبرالية لم تكن وهما وإنما حقيقة مؤكدة، وأنها لم تختف حتى الآن، ولكنها تلبست ثوبا أو أثوابا أخرى، أما هذا الاختفاء للفظ فإنما لأن الولايات المتحدة الأمريكية، زعيمة الإمبريالية الجديدة هى القوة المنفردة بالعالم المعاصر، وهى المسيطرة أو الموجهة لكثير من القوى الإعلامية الكاسحة على المستوى الدولى، فضلا عما نعلمه من نواقص البشر عندما يخطبون ود (السيد) المهيمن فلا يستخدمون من الكلام مايغضبه فهل يأذن لنا القارئ أن نحدثه عن (الإمبريالية) ؟

فى التعليم .. لم يعد الأمر يقتصر بالضرورة، على أن يتخذ شكل قاعة يجلس فيها تلاميذ مع معلم، فى أوقات محددة يوميا، وانما دفعت الظروف المستجدة إلى ظهور صيغة جديدة تجعل بالإمكان أن يتعلم الإنسان وهو فى موقع عمله، أو فى بيته (ربات البيوت)،

---

* نشرت بجريدة العربى ١٩٩٧/١٢/٧

باستخدام أجهزة الاتصال الحديثة، فأصبح التعليم بهذه الصيغة يسمى : التعليم .. من بعد .

وفى المنزل، يستطيع الواحد منا، وهو مسترخ على الأريكة، أو على سرير نومه أن يضغط على أزرار جهاز صغيرة بيده، لينتقل، عبر مشاهدة قنوات التلفزيون، بين أنحاء مختلفة من العالم، لا من حيث المكان فقط، وإنما كذلك من حيث الزمان، وفقا للفترة التى يتحدث عنها موضوع المشاهدة ... من بعد .

وفى محطات مخصوصة، فى بعض البلدان المتقدمة، يجلس علماء، يحركون، من بعد، وهم جالسون فى أماكنهم سفن فضاء، خارج الكوكب الأرضى .. من .. وهكذا .

عشرات الأمثلة التى يمكن أن نسوقها مما يشير إلى أن التوجيه الآن لايتم بالمواجهة المباشرة، وإنما .. من بعد !

هذه الحقيقة المعاصرة تكشف لنا زيفا معاصرا يروج له كثيرون فى ذلك العالم الذى سوف نساير التسمية الشائعة له بأنه (العالم النامى)، فهم يشيرون - بقدر كبير من الفخر والاعتزاز - بأن زمن الاحتلال الأجنبى قد ولى، ولم يعد هناك (مندوب سامى) يملى على القيادات مايريد، فأصبحت الإرادة الوطنية هى وحدها صاحبة القرار !

لكن مزيدا من الفحص الميكروسكوبى للنسيج السياسى والاقتصادى والثقافى، يشير إلى أن الاستعمار الذى رحلت جنوده وضباطه، وولت دباباته وطائراته، وانطوت صفحة معسكراته وقواعده، قد عاد فى صورة عصرية، ليوجه .. من بعد، موهما السذج والغافلين أن الأمر قد أصبح بأيديهم، فالقرارات تصدرها القيادات الإقليمية، والدماء التى تسيل هنا وهناك، إنما تمسكها أيدى وطنية، والحكام والوزراء والرؤساء والمديرون .. هم من أبناء البلاد!

منذ سنوات ، كانت الأحداث تكشف، فى بعض الأحيان، عن شخصية كبيرة الموقع، تكون قوى البغى الخارجى قد زرعتها بجوار هذا الحاكم أو ذاك، لكن هذا كان عملا أقرب الى «التجسس»، أما الآن، فقد تطور الأمر ليصبح أمر «صناعة قيادات» وزرعها فى مواقع الصف الأول، وعلى قمة الهرم، بنفس الأسلوب المتدرج البطئ ذى الطريق الطويل ، الذى تستخدمه أجهزة المخابرات، عند تجنيد مواطن من غير دولتها، حتى تصل به إلى درجة أن يكون تحت السيطرة، فيصبح هو الذى يكتب، وهو الذى يتكلم، وهو الذى يعمل .. ولكن، من بعد!

فإذا ماوضعت (الرأس) تحت السيطرة، أمكن لهذه الرأس أن تقوم بنفس الدور الذى لعب معها، تجاه الاخرين، تصنعهم، وتختارهم ليحتلوا مواقع الصفوف التالية، فيتم الانسجام والتوافق فى الجهاز الحاكم ...

لكن، ماذا بالنسبة لملايين المواطنين ؟

هنا تبرز حقيقة مؤلمة، فكما أن هناك من يستثمر الطاقة الذرية فى التعمير والعلاج، هناك من يستثمرها فى القتل والتدمير .. كذلك معظم مستحدثات العلم والتكنولوجيا حتى ليصح لنا القول : « .. ومن العلم ماقتل » !!

فهذا التقدم المذهل فى وسائل الاتصال، أتاح الفرصة لقوى البغى والاستغلال أن تستثمر هذه المؤسسة الجهنمية الرهيبة (الإعلام) فى إعادة صياغة العقول وتكوين الاتجاهات ، وزرع المفاهيم، وتلوين الميول، وفقا لماتريد، عبر أشكال جذابة، مبهرة : تمثيلية : فيلم، أغنية، مسرحية، أخبار .. تعليقات، أحاديث، تحقيقات .. كل هذا، ببطء وتدرج، وبغير مباشرة، ليجد المواطنون أنفسهم، بعد سنوات، قد أصبحوا يفكرون بغير ماكانوا يفكرون بالأمس .. يصادقون أناسا ونظما ودولا، كانوا بالأمس، يعادونها، ويعادون أناسا ونظما كانوا بالأمس يصادقونها!!

ولأن سجلات التاريخ قائمة، فإن نفس الأجهزة تبرز المبرر العصرى الشهير : نعم كنا بالأمس، واليوم نحن غير ذلك، لأن هناك متغيرات عالمية جديدة !! وتحت هذه المظلة أصبح الانسان يخشى أن يجئ من يقول لنا : إذا كنا من قبل نحكم بأن ١+١ = ٢ ، فإن المتغيرات العالمية الجديدة تشير لنا بقول غير ذلك !

كان العدو بالأمس يلبس ملبسا عسكريا ويتشخص أمامنا جسدا وعتادا ومعسكرات، فسهل علينا أن نواجهه ونحاربه ونفك القيود ونكسر الأغلال ونتحرر .. أما اليوم، فقد تحول إلى خلايا فى نسيج جسمنا السياسى والاقتصادى والثقافى، لنحب ونكره ونحكم وفقا لنوع هذه الخلايا ووظائفهما، ومن هنا كانت حالة الاستسلام المشاهدة لدى كثيرين الآن .. كأننا قد أصبحنا أمام صورة أخرى من صور الإيدز ... فقدان المناعة القومية !!

شـــيطان العصـــر !!*

بينى وبين نفسى، أنا فخور بمرض عندى، لا أسعى لشفائه، وإنما هو - مع تتالى الأحداث وإيقاعها - يزداد استفحالا، وها أنذا أحاول اليوم أن أصيب بعدواه من لم يصب به من القراء، ذلك أن انتشاره ربما يبرز مدى خطورته فيتم التحرك لوقفه، ثم التداوى منه .

أما هذا المرض، فهو التشكيك فى كل رأى وفى كل إجراء وفى كل موقف للولايات المتحدة الأمريكية يتصل بعالمنا العربى، لاعتقاد راسخ لدى بأن فيه - بالضرورة والحتم - ماهو معرقل لمسيرتنا وما هو مسمار جديد فى نعش قوتنا .

إنه شريط طويل لابد أن جمهرة من القراء تعرفه جيدا، منذ بدء الصراع العربى الإسرائيلى، مما يعفينى من مجرد الإشارة العابرة لأهم معالمه، إنه يسطع بالبراهين العملية التى لابد أن ننتهى منها إلى حقيقة صارخة بأن الولايات المتحدة هى العدو الأول والرئيسى للأمة العربية، حتى بالنسبة لتلك الدول التى تعتبرها (صديقة) لها، إذ واقع الحال أن الصداقة المقصودة هنا، أن النظام الحاكم هو الصديق وأنه يتعاون ويتحالف معها لتحقيق مصالحها سواء كان ذلك بوعى أو بغير وعى .

كان صوت المذياع ينقل الى مسامعى أخبار الحشود العسكرية الأمريكية فى الخليج، وبيدى مذكرات المشير الجمسى عن حرب أكتوبر ٧٣ أقرأ فيها حقائق من إحصاءات وبيانات من تقرير مراقب عام الدولة الامريكى بخصوص الجسر الجوى الاسرائيل تظهر الدور الأمريكى القذر الذى (لهف) أو (مسخ) أحلى وأروع انتصار لنا فى العصر الحديث، بل أكاد أقول و «الوحيد»، ثم أسمع الآن أن الولايات المتحدة هى الآن التى تسعى لصالح الأمة العربية!!

فحتى يوم ١٠ اكتوبر ١٩٧٣كان التقدم المصرى كاسحا، ثم جاءت طائرة استطلاع أمريكية يومى ١٣ و١٥/١٠ لترصد الوضع الجديد للفرقة ٢١ مدرعة حيث استعدت اسرائيل لمرحلة تطوير الهجوم المصرى .

واستخدمت أمريكا لتنفيذ الجسر الجوى ٢٢٨ طائرة نفذت ٥٦٨ طلعة وصلت إلى إسرائيل تحمل ٢٢ ألف طن ونصف من الاحتياجات . واستمر الجسر الجوى الأمريكى مدة

---

*كتبت أثناء أزمة الغزو العراقى الكويتى، ولا أذكر للأسف إذا ماكانت قد نشرت أم لا ؟

٢٢ يوما اعتبارا من١٣ أكتوبر حتى ١٤ نوفمبر ٧٣ استخدم فيها حوالى ٢٤٪ من حجم طائرات النقل التابعة لقيادة النقل الجوى فى اليوم الواحد طول مدة عمل الجسر .

واستكمالا لإمداد إسرائيل بالأسلحة والمعدات أنشأت أمريكا جسرا بحريا خصص أساسا لنقل المعدات كبيرة الحجم، حيث وصلت أول سفينة إلى اسرائيل يوم ١١/٢ بحمولة ٢١٠و٣٣ طنا من الدبابات والمدافع والعربات، وبلغ إجمالى ماتم نقله بالجسر البحرى ٧٤٪ من إجمالى حجم خطة الإمداد، والمعونة العسكرية العاجلة، وكان الغرض من ذلك هو تعويض خسائر الحرب وسرعة رفع الكفاءة القتالية للقوات الإسرائيلية بعد توقف القتال !!

ولقد زاد الطين بلة منذ آخر الثمينات، هذا الانهيار والتفكك فى منظومة الدول الاشتراكية التى كانت تضبط وتحاصر هذا الفك المفترس .. الولايات المتحدة ومن دار فى فلكها، لتصبح أمريكا هى شيطان العصر وتحصل على البطولة المطلقة على مسرح العالم !

وكم يشعر الانسان بقدر غير قليل من الحزن والأسى وهو يرى الاتحاد السوفيتى نفسه، بفعل مظاهر ضعف وخلل ضخمة أصابت جسمه، قد أصبح الآن، ولابد من قولها بلا تزويق ولا مواربة، مضطرا ألا يواجه الولايات المتحدة، بل ويصل به الامر أحيانا لا إلى مجرد (المسايرة) بديلا عن (المغايرة)، وإنما المشاركة فى تحقيق ماتريده الولايات المتحدة بفعل ما أصبحت تملكه من قوة ضغط عليه .

وإذا كان الاتحاد السوفيتى قد استأثر بمشاعر غضب عربى كثيرة بفعل ما أصبح يمثله الآن من مصدر تغذية بشرية للجسم الصهيونى، تلك التغذية التى هى أشد فعالية من عشرات المليارات من الدولارات والمعدات، فإن علينا أيضا أن نتجه بمثل هذه المشاعر إلى المحرض الأكبر، إلى الدور الامريكى فى الضغط والتوجيه ومنع تأشيرات دخول أمريكا لليهود السوفيت المهاجرين، فكثير منهم، لولا هذا لما ذهبوا إلى إسرائيل ولتوجهوا إلى أمريكا نفسها .

فى الثانى من أغسطس ١٩٩٠ فجعت مثلما فجع غيرى بالقرصنة التى قام بها سفاح العراق صدام حسين وتمنيت لو أن الأمة العربية بأسرها: جماهيرها قبل حكوماتها تهب فى نفس اللحظة والتو، لتدفع عن أرض الكويت هذا السطو الإجرامى، مهما كانت أخطاء الكويت، لكن الولايات المتحدة سبقت، فهى فرصة، أصبح كثيرون الآن يضعون علامات استفهام شكا فى أن هذه الخطوة مرتب لها سلفا، وأن حدة المواجهة إنما بسبب الخروج عن النص .

وإذا كنت أتلهف أملا اختفاء العدوان على الكويت وعودتها حرة مستقلة،فأنا لا أمل خيرا أن يتم ذلك على يد الولايات المتحدة .

إن حجم النيران التى ستنهمر على العراق، لن تختص صدام وحده بالتدمير، وإنما ستحصد آلافا من عرب عراقيين وجزء رئيسيا من طاقة العراق الإنتاجية، ولن يسلم الطرف العربى المشارك من سعوديين ومصريين وسوريين وخليجيين .

إن الحادث الأن من حيث الاحتلال العراقى للكويت هو كارثة بغير شك، ولكننى أضع يدى على قلبى رهبة من حجم الكارثة القادمة والتى ستصيب الأمة العربية وتحدد مسار مستقبله إلى جيل كامل على أقل تقدير ، والذى لن يكون إلا فى صالح شيطان العصر : الولايات المتحدة ...

إن أحد أهم معايير النهج الصحيح لأمة من الأمم أن تكون لديها القدرة والبصيرة لأن تحدد، وبصدق ودقة: من هو العدو ومن هو الصديق ؟

ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا !!

من مصرى .. إلى حكام العرب !*

لا أظن أن هناك أدنى شك فى أن الجمهرة الكبرى من المواطنين العرب بصفة عامة، والمصريين بصفة خاصة، قد امتلأت قلوبهم بالامتنان والتقدير لهذا القرار الذى صدر عن قمة عمان خروجا من مأزق كلنا يعلم كم كلفنا من التفتت والتشرزم وجعل بلادنا رصيدا سهلا لقوى الامبريالية والصهيونية، تعبث فى جسمه وتنهش فى لحمه، ونحن نعاند أنفسنا رافضين مواجهة الحقيقة ..

هذه الحقيقة التى تؤكد أن حكومة مصر، إذا كانت قد أخطأت فى حق الأمة العربية بتوقيعها اتفاقية كامب دفيد، فإن قرار المقاطعة العربية لها، كان خطأ كذلك، وليس هناك ماهو أدل على ذلك من أنه حقق هدف الامبريالية والصهيونية الحقيقى من هذه الاتفاقية، ألا وهو زرع الألغام على طريق العلاقات المصرية العربية سعيا لنسفها، ودائما يسأل الانسان نفسه فى مثل هذه الأحوال : من المستفيد ؟ إن تحديدنا للمستفيد هنا هو الذى سيكشف القيمة الحقيقية لمثل هذا القرار أو ذاك .

صحيح أننا كنا نردد دائما أن العلاقات مع الشعب المصرى لم تنقطع أبدا، وهذا أمر لاشك فيه، لكن منطق العزل بين الشعب والحكومة فى العلاقات الدولية سلاح ذو حدين، فضلا عن أن الواقع يشهد أن (السلطة الرسمية) هى الباب الشرعى الذى يقنن لمظاهر وصور العلاقات .

ولست اليوم بسبيل إعادة الحديث تفصيلا فى تبرير هذه الوجهة من النظر أو تلك، فها هو قراركم الحكيم يقلب الصفحة القديمة، ويفتح أخرى جديدة، وعلى هذه الصفحة يجئ كاتب هذه السطور ليكتب إليكم من موقعه كمواطن مصرى عادى ممن يقفون فى الشارع السياسى يتطلعون إليكم كولاة أمر يحملون تلك الأمانة الثقيلة التى هى «تدبير أمر الرعية بما يتفق ومصالح جمهرتها ويحقق آمالها المستقبلية» :

ها قد دفعنا : نحن وأنتم ثمنا غاليا لايقاس بعمره الزمنى الذى استغرق ثمانى سنوات، وإنما يقاس بالآلاف من القتلى على أرض العراق وفلسطين لبنان ... بمئات الملايين من الدولارات، بل الآلاف، التى احترقت على هذه الصور المخزية من التقاتل .. دفعنا هذا الثمن

---

* نشرت بجريدة ٢٦ سبتمر اليمنية أواخر عام ١٩٨٧ .

حتى نصحو على تلك الحقيقة الأساسية : إن المحيط العربى، هو (رئة) مصر التى تتنفس بها، وأن مصر هى من الجسم العربى، بمنزلة القلب يمده بأسباب الحياة والحركة والفاعلية ...

ومن ثم، فإن العودة العربية لمصر، والعودة المصرية إلى العرب، لاينبغى لها أن تقف عند حدود أعلام ترفع هنا وهناك، وبيانات تمتلئ بحلو الكلام تصدر من هنا وهناك تشهد «بعمق الروابط» و «حرارة العلاقات»، فلقد فقدت هذه الكلمات مدلولاتها عندنا نحن جماهير الشارع العربى من كثرة ترديدها ومن قلة ترجمتها واقعا ينبض بالحركة والعمل، بل لقد أصبحنا ننظر إليها نظرتنا إلى «شيك» لا تكون له قيمة حقيقية تجعله صالحا للتداول والتعامل، إن لم يعكس مايساويه من رصيد فى بنك الواقع !

إننا نريد مسارعة إلى ترجمة هذه الكلمات إلى (بنية) أساسية تقوم عليها العلاقات المصرية العربية .. بنية أساسية تتمثل فى أراض تستصلح وأخرى تزرع .. فى مصانع تنشأ، ومؤسسات تقام ... فى أجهزة ومعدات تحضر وتستحدث .. فى مناهج تعليم مشتركة ونظم تعليم تتوحد . إن مثل هذه الصور هى التى ستفرز، (الوحدة) الحقيقية التى (مايغلبها غلاب)، وتفرز (أخوة) مصلحة وحياة تبث الحياة فى أخوة العرق والدم، لكن الوقوف عند حد الرؤى والأحلام .. والتغنى بحلو العبارات ومنمق الكلام، فهو الذى يجعل هذه العلاقات تتهاوى فور صدور تصريح غاضب من هنا أو هناك، أو عند كتابة مقال غير مسئول هنا أو هناك !

إننى أحاول بصعوبة بالغة أن أنسى بعض أخبار قرأتها بعينى فى صحف عربية فى أواسط السبعينات تشير إلى أن رئيس مصر فى ذلك الوقت سوف يقوم بجولة لزيارة دول الخليج، فيما أسمته هذه الصحف بـ (رحلة تسول وشحاذة) ! .. كلمات كالسكين فى قلب كل مصرى كان يقرأ أو يسمع مثل هذه العبارات التى كان من الطبيعى أن تستثير ردود فعل مساوية لها فى القوة ومضادة فى الاتجاه يتحدث فيها أصحابها عن (فضل مصر) على هذا البلد وذاك من البلدان العربية ...

وكلا الموقفين ينمان عن قصور نظر وسوء تفكير .. مواقف صبيانية غير مسئولة، لأن القوم الذين يؤمنون بإخوة حقيقية لاينظرون إلى مايطلبه أخ لهم من عون على أنه (تسول) ولا ينظرون إلى مايقدمونه لأخ لهم على أنه (فضل) .

إن كل درهم عربى ينفق دعما لمصر إنما هو دعم للعرب جميعا، وكل نقطة دم مصرى، فإنها لا تدفع خطرا عن بلد عربى آخر فحسب، وإنما هى حماية لمصر وأرضها أيضا ..

كم رأت عيناى عشرات من السلع الاستهلاكية البسيطة فى كثير من الدول العربية

تستوردها من بلدان أجنبية، وأعرف أن مصر تنتجها، وأتساءل بينى وبين نفسى : لماذا لا يتجهون إليها إذا كانت تعتبر بالفعل (الشقيقة الكبرى) و(قلب العروبة النابض) ؟ وإذا كان البعض يقول أن السلعة الأجنبية أكثر إتقانا، فإن الحل معروف ... هو أن يضع المستورد شروطا ومؤصفات لمايريد من المؤسسة الإنتاجية إذا وجدت فى مصر ويتفق على غرامات المخالفة وعدم الالتزام .. إن مثل هذا يدعم ويقوى ويطور الإنتاج العربى ويحفظ المال العربى حتى لايستفيد به من يقتلون أطفالنا ويشردون نساءنا ويحتلون أرضنا !

إن صناعة الغزل والنسج فى مصر لها من العمر مايصل إلى قرن من الزمان، وإذا كانت قد شهدت فى الآونة الأخيرة صور قصور كمى أو نوعى، فإنما لحاجتها إلى عمليات إحلال وتجديد وتوسيع تقصر عنها إمكانات البلاد المالية، فلم لا توجه إليها بعض الاستثمارات لتعود سيرتها الأولى صناعة عالمية تنافس مثيلاتها فى أرقى الدول فيزداد اعتمادنا على الذات العربية وتتوثق الثقة بالنفس العربية؟

إننا نعى جيدا أن الذى «يستورد خبزه»، لابد أن «يصدر إرادته ».. وهاقد بلغ الحال بمصر وبعض البلدان العربية الأخرى أن تستورد معظم خبزها .. يحدث هذا فى منطقة تمتلئ بالأراضى الصالحة للزراعة والخبرة الفنية والمال الوفير .. منطق عجيب .. لا بل هو خزى كبير، ومصيبة عظمى لا تقل فى نظرى عن مصائب ضياع الأرض واحتلالها ..

فإذا كانت المقومات قائمة، ألا يعنى هذا أنها تحتاج إلى (إرادة) وإلى (قرار) .. وأنتم .. ولاة أمورنا بغير شك تملكون (الإرادة) .. وتملكون (القرار) ونحن .. جماهير الشارع العربى، تملك (الأمل) فى تحويل (الإرادة) إلى (قرار) .. وسواعدنا فى شوق بالغ إلى العمل، وفى لهفة انتظار لحبات عرق الشغل !

ونحن نعى من غير شك أن (الحق) الذى لا تسنده (قوة السلاح) كاليتيم على مأدبة اللئام، ونعى فى الآن نفسه أن المصدر الذى يعطى السلاح، لابد أن تكون له كلمة عليا يلتزم بها مستهلك السلاح إن بصورة مباشرة أو غير مباشرة ..

ولقد قضى علينا قدرنا أن نعتمد على القوى العظمى كى تمدنا بالسلاح . ولو حللنا كثيرا من مظاهر صراعنا الأساسى مع الأعداء، فلن يصعب علينا أن ندرك أن هذه القوى نفسها، تلعب الدور الأكبر فى إشعال نار هذا الصراع وتحريكه . قد تكون بعض مظاهر هذا الدور السطحية عند هذه القوة أو تلك لصالحنا، ولكن مزيدا من البحث والتنقيب والتدقيق، يكشف لنا الحقيقة الأساسية : إنهم يسرقون عمرنا .. ودمنا .. لا يسمحون أن نعيش فى حالة بناء

وتعمير، وإنما يحرصون دائما على أن نعيش حالة حرب وتقتيل، وهم «على الأرائك ينظرون» .. فكيف نعتمد دائما عليهم فى التسليح ؟

لقد كنا قد بدأنا الخطوة الأولى بإنشاء الهيئة العربية للتصنيع الحربى، فلم لا نقتنص الفرصة الحالية ونسرع إلى إحيائها وتنشيطها؟ إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة !

إن مصر تئن الآن من الديون الخارجية، ولا شك أن هذه الديون تشل كثيرا من فعالياتها وحركتها، والدول الكبرى الدائنة التى طالما تغنت بالرغبة فى المساندة المالية لمصر إغراء لها بالابتعاد عن العرب، أصبحت الآن تدير ظهرها لكل رغبة مصرية فى جدولة الديون وتخفيض نسبة الفوائد وخاصة بالنسبة للديون العسكرية المستحقة للولايات المتحدة، تلك النسبة التى وصلت الى ١٤٪ ، مما جعل الولايات المتحدة تستنزف من الخزانة المصرية أكثر مما أعطت!

وليس مطلوبا من الدول العربية الغنية أن تدفع عن مصر هذه الديون، ولكن الحل المعقول هو أن (تشترى) هى هذه الديون بحيث يمكنها بالتالى أن تخفض نسبة الفائدة وتطيل فترة السداد وتفسد خطة القوى الكبرى لفرض إرادتها على (الأخ الأكبر)، ذلك أن الأخ الأكبر إذا شلت إرادته عجز من ثم عن حماية اخوته !

إن العلاقات الدولية كما نعلم جميعا تقوم على (المصلحة) بالدرجة الأولى وليس فيها (مَنّ) ولا (إحسان)، وانما هى كلها أمور لها حساباتها من المكسب والخسارة، وفى مجال العلاقات المصرية العربية، لا تكون صورة الحساب فى (كم) من المال يكسب من هنا وهناك، وإنما هو فى (نوع) آخر من العلاقات يذيب الشكوك ويكسر الحواجز وينبت الحب ويزرع الوحدة، تلك الوحدة التى لبناتها الوحيدة عمل مشترك على الأصعدة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية !

اللهم اهدنا جميعا إلى سواء السبيل .

مصر الاسلامية ... ليست بحاجة الى عودة .. ولا هى بحاجـــة الى دعـــوة !!*

نعم .. مصر الإسلامية ليست بحاجة إلى عودة إلى (الجامعة) الإسلامية، إنها بحكم التاريخ وبحكم الواقع، متصلة العطاء للثقافة الإسلامية، ومتصلة الوجود فى بذل كل جهد ممكن على طريق المسيرة الإسلامية من شأنه أن يدفع بالشعوب الإسلامية إلى المزيد من التحرك نحو آفاق التطور والتحرر ..

ومصر الإسلامية ليست كذلك بحاجة إلى دعوة ، لأنها ، منذ أن أنعم الله عليها بنعمة الإسلام، وهى تعتبر نفسها صاحبة بيت، وصاحب البيت - حتى لو افترضنا جدلا بعده فترة من الزمن - لايحتاج عادة إلى الدعوة لكى يستأنف عمله فى نفس البيت ..

نقول هذا، مع كل التقدير للجهود المشكورة التى صدرت عن عدد من القادة والحكام المسلمين المخلصين .. ونقول هذا مع كل العرفان والاعتزاز بمظاهرة الحب العظيم التى عبر عنها كل منصف فى منظمة المؤتمر الاسلامى، وفى مقدمتهم أحمد سيكوتورى وضياء الحق وياسر عرفات، وجعفر نميرى !

والحق أن العطاء المصرى للثقافة الاسلامية لم يكن فجائيا بدخوله الإسلام، فقد كانت مصر دائما تدور حياتها حول محور أساسى هو الدين بصوره المتعددة التى ظهر بها بطول التاريخ الماضى .. فى صورته البدائية .. وفى صورته الفرعونية .. وفى صورته اليهودية .. وفى صورته المسيحية .. وأخيرا توج كل هذا فى صورته الأخيرة .. الصورة الإسلامية، مصداقا لقوله تعالى فى سورة المائدة (آية ٣) : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ..» .

والدارس للتاريخ المصرى يستطيع أن يلمس بكل جلاء ووضوح أنه لم توجد قوة فى حياة الإنسان المصرى كان لها هذا التأثير الرهيب مثلما كان لقوة الدين . إنها كانت فى البداية ليست إلا محاولة فى تخيلات غامضة وساذجة لتفسير العالم حواليه والتحكم فيه . إن مخاوفه تصبح لها السيادة عليه فى كل ساعة، وآمالها، الناصح الدائم له، وأعيادها .. تقويمه

---

* أرسلت إلى مجلة المصور ولم تنشر، وكان ذلك بمناسبة قرار منظمة المؤتمر الاسلامى فى أواخر الثمانينات إنهاء مقاطعة مصر التى كانت بسبب اتفاقية كامب ديفيد سنه ١٩٧٩ .

وفرائضها الخارجية إلى حد بعيد، التعليم والدافع له صوب تطور الفن والأدب والعلوم . إن الحياة لم تمس الدين فى كل مرحلة وحسب، ولكن الحياة والفكر والدين امتزجا معا امتزاجا لا فكاك فيه فى تركيب معقد من المؤثرات الخارجية، ومن القوى الداخلية .

وإن دل ذلك على شئ، فإنما يدل على أن المصرى كان حريصا على طبع الدين بطابعه بحيث لايقف عند مجرد التلقى السلبى، وإنما يعطى تأثيراته وخصائصه، فإذا بالفكر الدينى لديه مصرى يختلف فى طبعته المصرية عنه فى أى مجتمع فى العالم . وعندما نفحص الدين المصرى فى أقدم وثائقه التى وصلت إلينا، يتضح أن ظاهرتين طبيعتيين عظيمتين قد أثرتا أعمق تأثير فى سكان وادى النيل، وأن الإلهين اللذين يمكن تبينهما فى هاتين الظاهرتين سيطرا على التطور الدينى والعقلى منذ أقدم العصور، إنهما الشمس والنيل : رع، وحوريس، وفى النيل : اوزوريس، نجد الآلهة العظام فى الحياة والفكر المصرى الذين - منذ البداية على وجه التقريب - ولجوا منافسة للوصول إلى أعلى مكانة فى دين مصر، وهى منافسة انقطعت فقط بتبدد الدين المصرى فى ختام القرن الخامس من العهد الميلادى . إن ذاك الذى يعرف العناصر الجوهرية فى قصة هذه المنافسة الطويلة، سيعلم النهج الأصلى الذى سار عليه تاريخ الدين المصرى، إذا لم نقل أحد الفصول التى لها أعظم اهمية فى تاريخ الشرق القديم .

ومن المهم أن نلاحظ أن (موسى) عليه السلام، كان اسمه مصريا، بل هو نفس الكلمة المصرية القديمة (مُس) ومعناها (طفل) وهى مختصرة من اسم مركب كامل لأسماء (امن مس) ومعناه «أمون الطفل» أو (بتاح مس) ومعناه «بتاح طفل» . وهذه الأسماء المركبة نفسها هى الأخرى مختصرات للتركيب الكامل «أمن» (أعطى) طفلا أو «بتاح (أعطى) طفلا» . وقد لقى اختصار الاسم إلى كلمة «طفل» قبولا منذ زمن مبكر، إذ كان سريع التداول والتناول بدلا من الاسم الكامل الثقيل .

على أن الاسم «مس» (طفل) نجده كثير الانتشار على الآثار المصرية القديمة، ولا شك فى أن والد «موسى» كان قد وضع قبل اسم ابنه اسم إله مصر مثل (أمون) أو (بتاح) ثم زال الاسم الإلهى تدريجيا بكثرة التداول حتى صار الولد يسمى (موسى) .

ولابد أن النشأة المصرية القديمة التى يرجع إليها الفضل فى جعل موسى قائدا قوميا عظيما، قد ساهمت فى بعض ما كان يدعو إليه، فإننا نرى مثلا أنه يحث على شعيرة (الختان) وهى عادة مصرية قديمة جدا كانت مراعاتها عامة فى أيامه بين سكان وادى النيل ويرجع عهدها، أى مالا يقل عن ثلاثة آلاف سنة أو يزيد من عصره .

وعندما بشر عيسى بن مريم عليه السلام بدين جديد، وجد المصريون فى المسيحية محورا روحيا كبيرا يلتفون حوله لتوقظ فيهم شعورهم القومى، وتبرز شخصيتهم وترفع روحهم المعنوية وخاصة إزاء اضطهاد الرومان، فعبروا عن حماستهم الدينية التى اشتهروا بها منذ أقدم العصور تعبيرا صادقا فى ظل المسيحية، وأقبلوا على هذه الديانة الجديدة إقبالا يتفق مع وصف هيرودوت لهم بأنهم قوم يخافون الله، ولم يبالوا بالاضطهاد العنيف الذى تعرضوا له من جانب الأباطرة الوثنيين، وهو الاضطهاد الذى بلغ ذروته على عصر الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥)م . ولكن المصريين تحملوا ذلك الاضطهاد وبنفس الشجاعة التى يواجه بها كل مؤمن جبروت الطغاة، فأطلقوا على الفترة الأخيرة من حكم دقلديانوس اسم عصر الشهداء واختارو سنة ولايته الحكم وهى سنة ٢٨٤م بداية التقويم القبطى إشارة لما عاناه الأقباط منذ تلك النسبة المشئومة من أذى وجور .

وتحت نير الاضطهاد الدينى من ناحية، وفى ظل المقاومة بين مثل المسيحية ومبادئها الكريمة وبين ما كان عليه المجتمع الرومانى من ناحية أخرى، اختار كثير من الأقباط الفرار إلى الصحراء وأماكن العزلة النائية لينقطعوا لعبادة الرب بعيدين عن فساد المجتمع الحضرى فضلا عن تجنب قسوة الحكام وغلظتهم .. وهكذا كانت مصر أول بلد فى العالم شهد مولد الحياة الرهبانية والديرى وأسهم بهذه الحياة الجديدة إسهاما خطيرا فى تاريخ المسيحية وحضارتها .

وعندما اشتد الخلاف فى المعسكر المسيحى فى حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى حول تفسير طبيعة المسيح، مالت الكنيسة المصرية الى المذهب المونوفيزينى القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة، فى حين قال الفريق الآخر والذى تبنت الدولة الرومانية رأيه، بأن للمسيح طبيعتان إحداهما إلهية والأخرى بشرية وهو المذهب الملكانى حتى لقد اتخذ المصريون لأنفسهم لقب الأرثوذكس بمعنى أصحاب العقيدة الصحيحة .

وعندما بدأت مصر مسيرتها الإسلامية بفتح عمرو بن العاص لها، أرسى قواعد حرية العقيدة والتسامح الفكرى وعدم التعصب ، فوقف يخطب قائلا : «حدثنى أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطه خيرا، فإن لهم فيكم صهرا وذمة» ، كذلك قال : «حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر، فاتخذوا فيها جندا كثيفا، فذلك خير أجناد الارض . فقال له أبو بكر رضى الله عنه : ولم يارسول الله ؟ قال: لأنهم وأزواجهم

فى رباط إلى يوم القيامة» .

ويعتبر عبد الله بن عمرو بن العاص بحق مؤسس مدرسة مصر الدينية، إذ أخذ منه كثير من أهلها وكانوا يكتبون عنه ما يُحَدِّث . وإن كان عبد الله هو المعلم الأول فى مصر، فقد أخذت مصر دروسا دينية أيضا عن غيره فى الصحابة وسمعت أحاديث نبوية من مختلف الصحابة الذين وفدوا إليها عقب الفتح، وسرعان ماأصبحت مصر بعد الفتح مركزا علميا دينيا فى الدولة الإسلامية .

ومن علماء مصر ومحدثيها وفقهائها أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمى الغافقى المصرى الفقيه (٩٧ هـ ١٧٠)، والليث بن سعد بن عبد الرحمن، ولد بمصر فى بلدة قرقشندة = قلقشندة بالقليوبية سنة ٩٤هـ ، وكان ثقة كثير الحديث صحيحه . وقبلهما اشتهر أيضا يزيد بن حبيب فقيه مصر وشيخها، ولد سنة ٥٢ بمصر، وهو أحد ثلاثة فوض إليهم عمر ابن عبد العزيز أمر الفتيا بمصر .

ومن المعروف أن الإمام الشافعى قد أتى إلى مصر سنة ١٩٨هـ وصنف بها كتبه وكون بها مذهبه الجديد وتوفى بها سنة ٢٠٤هـ، وكان مركز الحركة العلمية فى مصر وقلبها النابض فى ذلك العهد، جامع عمرو بن العاص، إذ كان ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة، وإليه يلجأ الناس للاستفادة، وإليه وفد العلماء لتلقى العلوم التى كانت تدرس فى ذلك الحين، ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء .

ومن أدباء العهد الإخشيدى (سيبويه) المصرى الذى ولد بمصر سنة ٢٨٤هـ، وقد كتب المؤرخ ابن زولاق أن سيبويه كانت فيه صفات تشبه المتقدمين والمتصدرين، كان يحفظ القرآن ويعلم كثيرا من معانيه وقراءاته وغريبه وإعرابه وأحكامه عالما بالحديث وبغريبه ومعانيه وبالرواة.. ويعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه بسيبويه .

وقد يكون أكبر نصيب لمصر فى الثقافة الإسلامية ما كتبه أبناؤها فى التاريخ، وقد نبغ من المؤرخين المصريين فى فجر الاسلام فى مصر ابن عبد الحكم . أما فى العهد الإخشيدى فقد أخرج من المؤرخين: ابن يونس والكندى وابن زولاق .

أما عن الأدب فى العصر الفاطمى، فقد شهد طفرة كبيرة يدل عليها رقى مستوى الشعر والنثر، وفى الحق أن الشعر فى العصر الفاطمى فى مصر كان أول شعر مصرى قيم من عهد فتح العرب لمصر، إذ كان قبل ذلك ليس له من قيمة إلا للوافدين على مصر من الخارج، أما شعر المصريين أنفسهم، فكان محاولات أولية .

أما النحو وعلوم اللغة فقد وفد على الخلفاء الفاطميين كثير من النحويين الذين حظوا بتشجيعهم مثل أبو عبد الله القيروانى الذى وفد على العزيز، وأبو عبد الله الفضل جعفر الذى وفد على الحاكم فأعجب به وأقطعه إقطاعا، وكان يجلس فى دار العلم لتدريس اللغة والنحو . ومن المصريين اشتهر أبو بكر الإدفوى الذى برع فى علوم القرآن والنحو .

ولقد وجد الفاتحون العرب فى مصر فنانين مهرة ولاسيما فى النسج والحفر فى الخشب وصناعة الزجاج، وكانت للمعماريين المصريين شهرة واسعة فى فجر الإسلام، فقد وجدت أوراق بردى على مقربة من سوهاج ثبت من نصوصه أن فريقا من مهرة البنائين المصريين استخدموا فى المسجد الجامع بدمشق، وفى المسجد الأقصى فى بيت المقدس - والمعروف أن أول محراب مجوف بنى فى الإسلام شيده بناءون من القبط كانوا يعملون فى الحرم النبوى بالمدينة ، هذا فضلا عن أن كثيرا من الموضوعات الزخرفية التى استخدمها المسلمون فى مصر مشتقة من الموضوعات الزخرفية القبطية والإغريقية والرومانية فى وادى النيل .

وكانت المنسوجات المصرية الإسلامية والتحف المصنوعة من البلور الصخرى ذات شهرة عالمية فى العصور الوسطى . هذا ويتيسر الاهتداء إلى معلومات قيمة فى تاريخ صناعة النسيج وتطورها فى مصر تبعا لأعمال التنقيب والبحث في الفسطاط وغيرها من المدن الإسلامية .

واتصلت العلاقات الثقافية الإسلامية بين مصر وغيرها من دول العالم الإسلامى، فاضت من خلالها على هذه البلاد تعطيها من إنتاج علمائها ومن أظلتهم بظلها حتى لايحبس العلم فيصبح كهنوتا فهكذا أمر الإسلام. ولا يتسع المقام لتفصيل هذا الجانب ، ويكفى أن نسوق مثالا مما كان بين مصر وتونس لنرى مصداق ذلك .

فقد طلع فجر القرن السابع والمدارس قد ظهرت بمصر واتسع إليها نطاق التدريس بعد أن كان مقصورا على المساجد . وكان إنشاء المدارس الأولى بمصر فى الفسطاط حول جامع عمرو، فهنالك أنشئت المدرسة الصلاحية والمدرسة القمحية فكان فيها مدارس أنشئت للفقهاء المالكية مثل القمحية، وكانت الدراسة فيها بالاعتماد على أمهات المذهب المالكى المشهورة . فلما ظهرت المدارس بتونس فى أوائل القرن السابع، كانت الدروس فيها وفى حلق جامع الزيتونة، سائرة على نفس ذلك النهج .

وعندما ظهر فى مصر العلامة ابن دقيق العيد، والإمام عز الدين بن عبد السلام والحافظ المنذرى، ضربت سمعتهم إلى تونس، وأخذ عنهم من رجال الزيتونة مشاهير منهم أبو يحيى بن جماعة التونسى، أخذ عن ابن دقيق العيد، والقاضى أبو القاسم بن زيتون أخذ عن

المنذرى وعن ابن عبد السلام، والقاضى عبد الحميد بن أبى الدنيا، أخذ عن ابن عبد السلام أيضا.

وقد زار مصر سنة ٧٣٧هـ الرحالة البلوى المغربى (١٣٣٦م) فأبدى إعجابه الشديد بالنشاط العلمى فى البلاد وقال إن مصر منبع العلم. والحق أن مصر واصلت مسيرة عطائها بمهارة قوية فى عصر المماليك فأصبحت سوقا يعج بالعديد من صور النشاط الثقافى يدل عليه ذلك التراث الضخم من الموسوعات الأدبية والكتب التاريخية والمؤلفات الدينية التى تركها علماء ذلك العصر . ويربط السيوطى بين هذا النشاط العلمى الواسع فى مصر بالذات على عصر المماليك وبين إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة بعد أن سقطت فى بغداد، ويقول إنه منذ إحياء الخلافة العباسية فى مصر، غدت هذه البلد «محل سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء». أما ابن حجر فيقول عن بعض علماء الشام وغيرها من البلاد الاسلامية إنهم قالوا عن بلادهم «هذا بلد يضيق عن علمى» وهجروها الى مصر .

ولعل أعظم الخدمات التى أدتها مصر للثقافة الاسلامية، هى أن إسلامها كان بلا تعصب ولا طائفية فكرية، ونحب أن نرد هذا إلى خصلة أصلية لمصر، وطبع لها مألوف، فمصر القوية التمدين، الواسعة الأفق الدينى، المستشفة لجوهر الدين الذى تؤمن به وروحه، مصر التى هذا شأنها، لم تهش كثيرا للجدل العقائدى فى الإسلام ولم تفسح صدرها كثيرا لأصحاب النحل وأرباب المقالات الإسلامية مهما اشتدت عناية المسلمين بها فى غير مصر .. ومهما ينصبوا للتأليف فيها والخصومة حولها، ومهما تظفر فعلا بشئ من ذلك تحت تأثير العوامل المختلفة، فإنها لا تلبث أن تفتر، ولا تترك من الانفعال بها ما يسم مصر بسمة خاصة فى المقالات الإسلامية أو يجعلها وطنا خاصا لفرقة من الفرق، كما كانت إيران مثلا مركز التشيع قديما وحديثا، أو كانت اليمن موطنا للزيدية .. أو ما إلى ذلك .. بل لا تلبث مصر أن تلوذ بالمعنى الجامع والكلمة الشاملة. أى بالجوهر الخالص، واللباب من الدين .

وهكذا كان فيضا من الشخصية المصرية على ماجاورها من الأقاليم الإسلامية، فمصر كلما أحست شيئا من القوة الفعلية، اتجهت بأنظارها إلى ما جاورها من الأقطار الإسلامية فبسطت عليها شيئا من النفوذ السياسى أو الروحى أو الثقافى، وقد كان ذلك يتم فى العصور السابقة ربما بطريق العنف، ولكن ذلك أصبح يتم فى العصور الحديثة بطريق أخرى، وهى طريقة الوحدة أو الألفة . والنتيجة واحدة فى الحالتين، وهى أن مصر كانت لا تشعر بكيانها ولا تثق بوجودها ولا تستكمل مقوماتها إلا إذا انضمت اليها هذه الأقطار العربية المجاورة، بل إن

هذه الأقطار المجاورة كانت هى الأخرى تستشعر القوة الحقيقية بانضمامها لأختها الكبرى مصر، وبذلك تأمن هذه الأقطار المجاورة جميع الأخطار التى تتعرض لها من العدو الأجنبى، ومصر فى أثناء ذلك كله تدرك بأن عليها واجبا لا يمكنها أن تتخلى عنه بحال من الأحوال، وهذا الواجب هو حماية البلدان الاسلامية من الأخطار التى تتهددها، وهذا الواجب هو المشاركة القومية فى بناء الحضارة الإسلامية بجميع مقوماتها من علم وأدب وفن ودين وخلق، وهذا الواجب مرة ثالثة هو القيام بدور الوسيط الثقافى بين العصور المختلفة والشعوب المختلفة ، وهل لقطر آخر ما لهذا القطر المصرى من موقع جغرافى يساعده على القيام بهذه الوساطة ؟

حقيقة سياسة عبد الحميد الإسلامية وموقف المتخاذلين من الثورة العرابية*

لابد لنا فى مستهل هذا المقال من أن نفرق بين الرابطة الإسلامية كمبدأ وكفكرة، وبينها كسياسة معينة تتصل بحاكم معين ومدى إخلاصه وأمانته فى تطبيقها،ذلك أن كاتب هذه السطور لايخفى إنحيازه إلى أصحاب الرأى القائل بأن الرابطة العقيدية أشد رسوخا وأوثق من غيرها من الروابط، خاصة ونحن نعلم أن مبدأ الاسلام الأساسى، هو أنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى، فمعيار التفاضل والتمييز بين المسلمين، هو مقدار إخلاصهم ووفائهم وعملهم بالشريعة عقيدة ومعاملات .

وإذا كنا نؤكد على أولوية هذه الرابطة، إلا أنه لايجب أن نلزم الجميع بشكل معين من الأشكال السياسية التى تعبر عن الوحدة الإسلامية . صحيح إنه أمل كبير وغرض عظيم ان نرى العالم الاسلامى دولة واحدة، إلا أنه- فى ظل متغيرات العصر - يمكن الاستعاضة عن ذلك بالعديد من صور التعاون والترابط، والأهم من ذلك، إن حاكما ما لو رفع شعار (الجامعة الإسلامية) كسياسة له، فإن نقدنا له إنما ينصرف إلى (دوافعه) وإلى (ممارساته) لا إلى الرابطة نفسها كمبدأ وكفكرة .

لو أننا وعينا هذه التفرقة جيدا فسوف نتجنب الكثير من المزالق ..

فالذين هاجموا وانتقدوا سياسة السلطان عبد الحميد، لم يقصدوا أن يهاجموا فكرة الرابطة الاسلامية، وإنما كانوا يهاجمون اتخاذه لها ستارا يخفى بها أمورا أخرى غاية فى السوء ..

والذين يدافعون فى الآونة الأخيرة عن هذا السلطان ويحاولون رد الاعتبار له وتصويره بأنه كان مظلوما إنما يفعلون ذلك بدافع الحرص على تلك الرابطة الدينية الشريفة التى دعا إليها ..

ومن أشد الظواهر مدعاة للأسى حقا، أن يندفع بعض الباحثين إلى الهجوم على الثورة العرابية لهجومها على نظام الحكم الذى كان قائما فى مصر استنادا الى الرابطة العثمانية، إنهم ينتقدونها بدعوى أنها قد أدت الى إخراج مصر من مظلة (الجامعة الاسلامية) التى دعا

---

* مجلة الهلال، في فبراير، ١٩٨٧

إليها السلطان العثمانى، ومن هنا فإن هدفنا من هذا المقال هو الكشف عن حقيقة سياسة السلطان عبد الحميد هذه حتى يتبين لنا إلى أى حد أخطأت أم أصابت الثورة العرابية فى هجومها على حكم الخديوى توفيق وممارسات السلطان نحو مصر .

ويرتبط بهذا أيضا، الكشف عن ذلك الموقف المتخاذل للبعض من الثورة العرابية حيث إن هذا الموقف، اتخذ،، ضمن الشواهد والمبررات التى سيقت، تهوينا من شأن هذه الثورة ونقدا لها .

ولعلنا بعد ذلك نستطيع ان نبدأ بعض وجهة نظرنا فى حقيقة هذه السياسة التى رفع رايتها عبد الحميد، آملين ألا يخطئ القارئ فهم مانقصد إليه، وهو : نقد الممارسات .. وتعرية الدوافع والغايات ..

هل تخلف المسلمون فى العهد العثمانى ؟

حرص الإسلام أشد على أن يبعد العصبيات الإقليمية والنعرات الجنسية عن البناء السياسى الذى أقامه، ولذلك نجد أنه على الرغم من تولى حكام من جنسيات مختلفة قيادة الدولة أو الدول الاسلامية، إلا أنهم جميعا ذابوا فى الثقافة الاسلامية، فكانت اللغة العربية هى اللغة الأساسية .. لكن هذا لم يحدث للدولة العثمانية، فالأتراك وإن كانوا مسلمين إلا أنهم لم يتعلموا اللغة العربية فبقوا بعيدين عن روح الثقافة الإسلامية لأنها كانت باللغة العربية، ولعل هذا يفسر بعض الشى السبب الذى جعل هذه الثقافة تتخلف فى هذا العهد، على عكس العادة التى جرت طوال العصور الإسلامية، فكلما نهض حكم جديد قوى يلم أطراف العالم الاسلامى كلما شهدت الثقافة الاسلامية ازدهارا وقوة .. إلا فى العهد العثمانى .

أضف إلى هذا أن سلاطين آل عثمان مافتئوا ينقلون العلماء ومهرة الصناع والفنانين إلى قصبة ملكهم حتى أفقروا العالم العربى من أفذاذ رجاله فى مختلف الميادين، لذلك لا نعجب إذا سجل التاريخ هبوطا فى مستوى المدنية الاسلامية فى هذه الفترة حتى زحفت العجمة على اللغة، واختفت البحوث العلمية والفلسفية، وأغلق باب الاجتهاد فى الفقه، وانعدم التأليف إلا من الملخصات والمختصرات للمؤلفات التى ألفت فى العصر الذهبى السالف، وانحط الفن الحربى وانحصر فى مجرد مهارات اللعب بالسيف والكر و الفر على ظهور الخيل، وانعزل العرب عن مجرد المدنية الانسانية فجهلوا حتى مجرد وجود أمم خطت في مضمار المدنية خطوات فسيحة، ولولا الأزهر الشريف لأصيبت اللغة العربية والعلوم الدينية بأضرار ولغلبت عليها اللغة التركية (أبو الفتوح رضوان : القومية العربية، القاهرة، ١٩٦٨، ٥١) .

وليس عجيبا أن تقوم دولة الأتراك على السيف، ذلك لأنه لم تكن بينهم وبين الشعوب التى حكموها وشائج من القربى أو صلات تجمعهم من حيث الجنس أو اللغة أو التاريخ، فقد كان الأتراك أقلية دينية بين الشعوب المسيحية التى أخضعوها فى البلقان وشرقى اوربا. وكانوا أقلية جنسية أمام الشعوب العربية التى أخضعوها فى الشرق، فلم يكن عدد الأتراك فى القرن التاسع عشر ليزيد على سبعة ملايين ونصف مليون نفس ، على حين كان العرب عددهم نحو عشرة ملايين ونصف مليون، يقول محمد رفعت المؤرخ الكبير : «وإنك حين تقرأ أنباء تلك العصور وأحداثها ليهولنك مدى الركود والخمول الذى ران على بصائر الناس حتى لكأن الإمبراطورية العثمانية حين كانت تنشر سلطانها على الناس فى الشرق والغرب، إنما كانت تخدرهم بمخدر فيستنيمون لها ويغشاهم الجهل والظلم والفقر وتتناوبهم الأمراض والمجاعات وهم لايكادون يتحركون» . (تاريخ حوض البحر المتوسطة القاهرة، ١٩٥٩، ص ٣٢٨)

ثم اتخذ العثمانيون أسلوبا آخر لتأكيد نفوذهم فى الولايات العربية ظهر بشكل خاص فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ألا وهو تبنى هذا السلطان فكرة الجامعة الاسلامية لتحقيق عدة أهداف :

اولا - باعتبارها أداة تضمن التفاف العالم العربى حول الخلافة العثمانية فتتأكد السيطرة العثمانية على الولايات العربية فى وقت كانت الدولة العثمانية تفقد أملاكها فى البلقان بسرعة .

ثانيا - أن السلطان عبد الحميد - وهو المعروف باستبداده - كان يبغى من تأييده لحركة الجامعة الاسلامية تأكيد هذا الاستبداد اعتقادا منه أن فكرة الجامعة الاسلامية تعنى الحكم الاستبدادى للخليفة فيطارد بذلك الحركة الدستورية التى أخذت تلح فى الدولة العثمانية فى ذلك الوقت .

ثالثا - كما كان عبد الحميد يهدف من وراء الجامعة الاسلامية إلى اتخاذها أداة للضغط على الدول الأوربية إذا التفت حوله الشعوب الإسلامية العربية وغير العربية ، الخارجة عن الإمبراطورية العثمانية والتى كانت تسيطر عليها الدول الأوربية، وبالذات الشعوب العربية فى المغرب العربى والمسلمون فى الهند والتتر فى روسيا القيصرية . (محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى، القاهرة الأنجلو المصرية، ص ٢٤٠) .

فساد الحكم الحميدى :

لم يكن الاسلام أبدا فى يوم من الأيام مجرد كلمات أو شعارات أو لافتات، وإنما هو

سلوك وعمل وقدوة، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد عرف الدين بأنه (المعاملة)، فإن هذا إنما يعنى أن السلوك والعمل والقدرة بالنسبة للإسلام، تقع فى المكان الرئيسى، وتشكل الأساس الضرورى ...

ومن هنا فإن الحاكم الذى يستظل براية الإسلام ويدعو الناس أن يقفوا معه تحتها، لابد له من أن يقيم حكمه على الشورى والعدل .. لابد أن يشيع الأمن والأمان بين الرعية ... لابد له أن يتخذ أقصى الجهود وأمضاها فى سبيل (التنمية) لأنها هى السبيل الوحيد لكى تحصل البلاد على أسباب القوة الحقيقية الداخلية ...

أما إذا أشاع الخوف والرعب بين العباد ... أما إذا ترك الرشوة والفساد يضربان فى أرض المجتمع .. أما إذا انصرف إلى شأنه الخاص هو وما يملك وترك البلاد واهنة تنخفض فيها مستويات المعيشة ويشيع فيها الجهل والمرض .. أما إذا استبد بالرأى واعتقد أنه هو وحده دون خلق الله الملهم العبقرى الذى يبصر الحق ناصعا واضحا لايأتيه الشك من قريب أو من بعيد ... إذا كان كل هذا وأكثر منه ثم راح يملأ الدنيا خطبا وخطابات ومقالات ومنشورات بأنه حامى حمى الاسلام، فلابد أن نحكم عليه بأنه منافق، وأنه ليس صادق الوعد، بل إنه أشد خطرا من ذلك الذى يجهر بالعداء لأن هذا الثانى صادق، وينبهنا إلى ضرورة مقاومته والاستعداد له، أما الآخر فهو يضحك على الجميع، يكذب على التاريخ .. يبطن غير مايظهر ..

وإذا كانت حركة الإصلاح فى الدولة العثمانية قد استطاعت أن تفرض مبدأ التمثيل الشعبى سنة ١٨٧٦، إلا أن ذلك لم يستمر طويلا إذ ما لبث السلطان عبد الحميد أن حل مجلس المبعوثان وعلق العمل بالدستور فى ١٤ فبراير ١٨٧٨، وكانت النتيجة عودة الدولة العثمانية إلى نظام (الحكم المطلق) والذى تحول فى آخر عهد عبد الحميد إلى حكم استبدادى زاد فى حدته الشكوك التى ساورت عبد الحميد نتيجة توليه العرش إثر عمليتى خلع متعاقبتين حدثتا فى سنة واحدة ، كانت الأولى ضد عمه السلطان عبد العزيز الذى مات منتحرا بعد خلعه بأيام وأثيرت بعض الشكوك حول انتحاره، وكانت الثانية ضد أخيه السلطان مراد الذى خلع بسبب اختلال قواه العقلية .

كان لهاتين الحادثتين بالغ الأثر فى مسلك عبدالحميد خلال سنى حكمه الطويل، فأكثر من تعيين الجواسيس لرصد حركات الموظفين ومراقبتهم، ولم يستثن من المراقبة أحدا حتى الصدر الأعظم. وكلف هؤلاء الجواسيس بكتابة التقارير ورفعها إليه. وتشدد السلطان فى اضطهاد أحرار الدولة فاضطر هؤلاء إلى اتخاذ السفارات والقنصليات الأجنبية ملجأ لهم من

استبداده، كما اضطر بعضهم إلى مغادرة البلاد متخفيا هربا من القهر والاضطهاد . (عبد العزيز محمد عوض : الادارة العثمانية فى ولاية سورية، القاهرة ١٩٦٩، ص ٤٦) .

وهكذا نجد أنه من أجل حماية العرش من احتمالات الخطر المتوقعة، أحاط السلطان نفسه بشبكة من الجاسوسية المنظمة نوعا ضمت عددا ضخما من المرتزقة، أغدق عليهم السلطان من أموال الدولة فتضخمت نفقات القصور والعاصمة على حساب الولايات ونتج عن سياسة الكبت والضغط على الحريات التى اتبعها السلطان رد فعل فى أوساط المثقفين، فعمدوا إلى تشكيل جمعيات سرية فى داخل الامبراطورية وأخرى علنية فى أوربا، وتضافرت جهود هذه الجمعيات على مكافحة استبداد عبد الحميد ...

ولعلنا بعد ذلك نقف لنتساءل : من هو المسئول عن ظهور دعوات (الانقلاب) ؟ هل هم الذين شعروا بالظلم والقهر فأبوا أن يستسلموا وراحوا يطالبون بحقوق الإنسان الأساسية، أم هؤلاء الذين استبدوا فى الأرض وعاثوا فيها فسادا وظلما وبغيا ؟ واذا خير الإنسان بين (وحدة سياسية) تقوم على القهر والاستعباد والظلم، وبين كيان إقليمى يشعر فيه بالعزة وأن له رأيا يحترم، أفلا يختار البديل الثانى ؟ ومرة أخرى أكرر أن الأمل الأكبر هو تلك الوحدة الكبرى، على أن تقوم على ماسبق أن أشرنا به مرارا فى ثنايا المقالات .

ومن ثم لم يرتكب عرابى ورفاقه جرما بثورتهم، فضلا عما أكدته الوقائع من أنهم ظلوا على ولائهم لدولة الخلافة . لقد أكد عرابى مرارا وتكرارا أنه إذ يشكو من تظلم الأتراك إلا أنه سيظل على ولائه للسلطان ما دام هو الخليفة، ذلك أن الظلم مكروه، فلو وقع من سلطة من أهل البلد نفسها فلابد من مواجتها، وبالتالى فإذا كان الظلم واقعا من الأتراك، حيث تمثل بلدهم دولة الخلافة، فإن هذا لايعنى الرضوخ والاستسلام ..

جاء فى تقرير هام لـ (كولفن) عن حديث بينه وبين عرابى :

«استهل عرابى حديثه بعرض تاريخى طويل للحكم التركى فى مصر، فوصف حكومة المماليك وحكومة الأسرة الحالية (أسرة محمد على) بأنهما تتساويان فى استبدادهما بأهالى العرب . وهو يريد أن يبرز أن المصريين لم يشعروا حتى الآن بالأمان على أرواحهم وممتلكاتهم، فقد كانوا يسجنون أو ينفوف أو يخنقون ويلقى بهم فى النيل، أو يتضورون جوعا أو يسرقون حسب إرادة سادتهم، فكان العبد المعتق أكثر تمتعا بالحرية من العربى الذى ولد حرا. وكان أكثر الأتراك جهلا يُفضَّل ويُقَدَّم على أحسن المصريين .. واستطرد بعد ذلك فى شرح مقولة أن الناس الذين خُلقوا من أصل واحد يجب أن يتساووا فى حقوق الشخصية والأمن (الكسندر شولش : مصر للمصريين، ترجمة: رؤف عباس، ص ٢٣٦) .

وفى حديث مع (بلنت) أكد عرابى أنه لا يحب الأتراك ويرفض تدخلهم فى الشئون الداخلية للبلاد، ولكنه يحترم السلطان باعتباره أمير المؤمنين . أضف الى ذلك أن مصير تونس بين أن من الضرورى الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع الخليفة .

عبد الحميد وتوفيق يتواطآن مع الإنجليز ضد الشعب المصرى :

على الرغم من أن النوايا المعلنة لبعثة (نظامى باشا) التى أرسلها السلطان إلى مصر هى العمل على بث الأمن، إلا أنها لم تقم بشئ يذكر فى هذا الشأن، بل إن الرأى العام المصرى فى مجموعه كان يشك فى نوايا البعثة التى أدت إقامتها فى مصر إلى إثارة القلق الشديد بسبب خشية الناس أن تتدخل تركيا فى شئون البلاد أو تعمد إلى احتلالها .

وإلى جانب ما أذيع عن أهداف البعثة ونشاطها، هناك مايدل على أنها أقامت اتصالات سرية بكل من توفيق والأعيان . ويبدو أنها نصحت الخديو برفض الدستور الذى طالب به زعماء الثورة بحجة أنه لا يمكن منح مصر دستورا يخالف النظم السارية فى باقى الإمبراطورية، كما نصحته بأن يطلب إرسال قوة عسكرية عثمانية فى حالة تجدد القلاقل فى البلاد - وهنا سلم توفيق باستحالة تنفيذ ذلك . وطلبت من الأعيان أن يعلنوا حماستهم لتقسيم مصر إلى ثلاث ولايات - أو مقاطعات - متميزة، وهو المشروع الذى كان السلطان متحمسا له، ويفكر فى تنفيذه على مسئوليته الخاصة حتى يؤدى هذا إلى إضعاف الولايات الثلاث جميعا . ويبدو أن الأعيان الذين احتكوا بالمندوبين العثمانيين قابلوا هذا الاقتراح ببرود . (احمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية، ص ١٥٨)

وسندت انجلترا نشاطها العسكرى بمفاوضة الباب العالى حول توقيع اتفاق حربى بين البلدين، فقد كانت دوائر لندن تعتقد أن التعاون مع الباب العالى - أو مجرد الظهور بمظهر التعاون معه - مما يخفف حدة التوتر فى العالم الإسلامى فى الهند، ويقنع عرابى بالتسليم . ولما كانت بعض الدول الأوربية، وبخاصة ألمانيا، تميل إلى توقيع الاتفاق، فإن انجلترا كانت على استعداد لإبداء احترامها لسيادة السلطان على مصر . ومما يدل على مهارة دوفرين أنه طوال المفاوضات التى كان القصد الأساسى منها هو كسب الوقت حتى تتم هزيمة عرابى، ظل يحتفظ لحكومته بحرية العمل ويتجنب إثارة أية دولة أخرى وأنه بحذره ومهارته استطاع أن يحول دون تملص الأتراك من الشروط والقيود التى رأت الحكومة الإنجليزية ضرورة فرضها عليهم . (المرجع السابق ، ص ٢٨٥)

بالإضافة إلى حرج موقف السلطان إزاء مصر، انزعج حين تلقى تحذيرات من العلماء

وأنصار حركة الجامعة الاسلامية مفادها أن تعاونه مع انجلترا ضد حماة الإسلام سيثير الاستياء لدى عامة المصريين والسوريين والعرب، وقد يمكن عرابى من الحصول على فتوى تنص على خلع الخليفة . وقد ألقيت الخطب الملتهبة ضد انجلترا فى مساجد الأستانة ودعا الخطباء الناس إلى حمل السلاح دفاعا عن الإسلام . وأرسل ثلاثون من مشايخ الأزهر تحذيرا إلى السلطان الذى كان قد عبر لهم عن رغبته فى امتناع المصريين عن إرسال الإمدادات إلى عرابى، وطلب منهم أن يقنعوا عرابى بإلقاء السلاح باسم الشريعة . ورد المشايخ بعد أن بحثوا الموقف مع الأعيان بأن عليهم طاعة أوامر السلطان والخليفة طالما تتمشى أعماله مع الشريعة، وأن المصريين لن يلقوا السلاح إلا إذا أخلى الانجليز الإسكندرية والأراضى الأخرى التى احتلوها ، على أن ترسل شروط الصلح مقدما إلى «العلماء» والأعيان، ثم طالبوا بالإجماع بخلع توفيق، كما وجهوا التحذير إلى السلطان وأفهموه أن المصريين سيحتكمون إلى القرآن لو أرسل قواته إلى مصر وأشاروا عليه بعدم إرسال درويش من جديد إلى مصر لئلا يكرر أخطاءه السابقة ويعرض مصر للدمار . وانتهى خطاب المشايخ بالقول بأن المسألة لا تتعلق بشخص عرابى بقدر ماتتعلق بخلاص مصر . (المرجع السابق ص / ٢٨٧) .

أما موقف الخديو توفيق الذى اتسم بالجبن والخيانة، فتزخر به مئات من صفحات الكتب مما يصعب تلخيصه فى مثل هذا المقال، ومن هنا فإننا نسوق مثالا أو اثنين لنتبين كيف كانت الثورة العرابية ضرورية لاقتلاع أمثاله :

فقبل ضرب الأسطول الانجليزى لمدينة الاسكندرية بساعات قال أحد الاميرالايات الذين كانوا فى معية الخديو له : (محمد رشيد رضا : تاريخ الإستاذ الامام ، ص ٢٥١ - ٢٥٢)

- ما مصير الاسكندرية لو ضربها الانجليز ؟ فأجاب الخديو :

- ستين سنة وهز كتفيه، فقال الضابط :

- لكن السكان سيحرقونها، فأرجو أن تتوسط لدى الأميرال سيمور والوقت لم يزل يسمح بذلك، استدع ذو الفقار وامره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية . فأجاب الخديو :

- فلتحرق المدينة جميعها ولايبقى منها طوبة على طوبة . حرب بحرب، كل ذلك يقع على رأس عرابى وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين، وسيذوق الأوربيون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الأرانب .

وفى ١٤ اغسطس أصدر الخديو توفيق أمرا يرخص فيه للإنجليز احتلال القناة :

«ليكن معلوما عند السلطات الملكية والعسكرية فى منطقة قناة السويس، أن أميرال الأسطول الانجليزى وقائد الجيوش البريطانية العام، إنما أتيا الى مصر لإعادة الأمن والنظام إليها، ومن ثم فقد سمحنا لهما باحتلال جميع الأمكنة التى يريان فى احتلالها مايساعد على قمع العصيان، وعلى هذه السلطات أن يبلغوا هذا الأمر إلى كافة سكان منطقة قناة السويس وبخاصة إلى موظفى وعمال القناة البحرية، ومن يخالف أمرنا هذا يعد خارجا على إرادتنا وينزل به أشد العقاب» (وزارة الحربية : الحملة لاستعمارية على مصر ، ١٩٥٦، ص ٨٥) .

وكان فى حوزة الأميرال الانجليزى اعتبارا من أول اغسطس، التفويض التالى الذى يخوله الاستيلاء على جميع النقط الضرورية على طول القناة واحتلالها باسم الخديو :

«سيدى الكونتر ادميرال :

الإسكندرية فى أول أغسطس سنة ١٨٨٢ .

لكم السلطة التى تخولكم احتلال ماتجدونه مفيدا من نقط فى منطقة قناة السويس لتأمين حرية الملاحة فى القناة، وحماية المدن والأهلين على طول مجرى القناة وطرد كل قوة لاتعترف بسلطتى . ولكم أيضا ياسيدى الكونتر أدميرال سلطة اتخاذ الاجراءات اللازمة لانتزا ع الخط الحديدي بين السويس والاسماعيلية من يد الثوار» (المرجع السابق، ص ٨٦)

مواكب المتخاذلين :

من الأمثال الشعبية المصرية المعروفة : «الثور لمايقع، تكتر عليه السكاكين» ، فعندما فشلت الثورة العرابية، بدأت مواقف المتخاذلين تتقدم، هذا بخطبة، وهذا بمقال، وهذا بقصيدة شعر وهكذا، نفاقا للسلطة الجديدة، وتقديما لفروض الولاء للسادة الجدد. إنهم إذا يعلقون أسباب الفشل كلها فى رقبة هذا الجندى الفلاح، يظنون أنهم يعفون أنفسهم من المشاركة فى المسئولية ويتغاضون عن الأسباب الحقيقية، إذ كيف بالله وهذا هو موقف (الخليفة الأعظم)، وهذا هو موقف حاكم مصر، ووراءهما قوات بريطانيا، أقوى دول العالم فى ذلك الوقت، ويقال أن عرابى هو الذى جلب الاحتلال إلى مصر .. ؟!

فهذا رجل من علماء الدين لم يفهم الرسالة الحقيقية للإسلام فى تحرير الإنسان من كل صور الاستغلال والقهر البشرى، يصور مقاومة الوطنيين بأسلحتهم البدائية للانجليز بأسلحتهم الحديثة، بأنها تدخل فى باب معصية أوامر الله عز وجل « .. بلغ من تضلع البغاة الجهال من الفنن الحربية وخبرتهم بطرق النكاية للعدو أن يقابلوا الآلات الانجليزية الحديثة العهد المصنوعة منذ شهور أو أسابيع بآلات عتيقة مضى عليها من الأجيال ما أكلها به الصدأ .. فلو أننا

فرضنا المستحيل من كون هذه الحرب دينية، والحالة هذه وأنها بأمر الخليفة الأعظم أو نائبه الخديو الأكرم، لوجب شرعا مخالفة أربابها لأنها عندئذ عبارة عن المخاطرة بالبلاد والعباد، وقد نهانا الله عن أن نلقى بأيدينا الى التهلكة» ، وصاحب هذه الفتوى هو الشيخ حمزة فتح الله (سليم نقاش : مصر للمصريين، ج٥، ص ١٨٤) .

وكانت طلائع جيش عرابى مؤلفة من متطوعى العربان الذين لايهمهم من الحرب إلا أن تتاح لهم فرصة النهب والسلب، وكان منهم جماعة من المنتمين لسلطان باشا، فاستمال أفرادا منهم إلى جانبه، وعهد إليهم بتوزيع إعلان الباب العالى الخاص بعصيان عرابى مع المنشورات الخديوية، والتجسس على العرابيين والحصول على أخبارهم وتعريف سلطان باشا بها لإرسالها بالبرق إلى سراى رأس التين، فاندسوا بين الضباط العرابيين خفية وقاموا بمهمتهم مما أدى الى أن يستولى الوهن على عزائم الكثيرين، ويذكر البعض أن سلطان باشا عندما رقد على فراش الموت قال بأن المرض ليس هو الذى أرقده على فراش الموت، وإنما اعتقاده بأنه قد باع بلاده للانجليز» .

ويروى عرابى لأعضاء القومسيون العسكرى أثناء سجنه أنه فى «الساعة تسعة ونصف افرنكى (يوم الاحد ٥ ذو القعدة سنة ١٢٩٩هـ) فتح باب الأوضة التى أنا فيها فكنت نائما وقتها، وإذ دخل أناس كثيرون لا أعلم عددهم لكون الأودة مظلمة وليس فيها نور، ثم قال قائل منهم : يا عرابى، بصوت مزعج، فقمت من نومى فزعان، وقلت: ماذا تريد ؟ فقال لى : أما تدرى من أنا ؟ فقلت له : لا ، أعلمنى باسمك وماذا تريده منى فى هذا الوقت، فقال : أنا إبراهيم أغا ياابن الكلب ياخنزير، ثم تفل على ثلاث مرات بصورة قبيحة وكلام قبيح ..» (محاضر التحقيقات، الطليعة ، ص ١٦٠) . وتستعجل جريدة الاهرام الحكم على عرابى فتقول «يستلفت الرأى العام مجلس التحقيق العسكرى والمجلس الحربى إلى إصدار الحكم على العصاة بالوجه السريع لأن الوقت ثمين فلا يضاع بإطالة التفحص فى ماهو واضح من جميع الوجوه ..»، وهى تقول فى نفس المكان : «فما عرابى ورفاقه إلا عصاة كما تشهد أعمالهم .. وماعقاب العصاة فى جميع القوانين العسكرية إلا الإعدام ..» (الاهرام فى ١٨٨٢/١٠/٩، العدد ١٤٦٦)

أما الشيخ محمد عبده، فقد كان لايقر الثوار على خططهم، واختلافه مع أستاذه الأفغانى معروف لأن الثانى كان لايرى علاجا لمشكلات الشرق إلا بالثورة، أما هو فهو يرتضى منطق الإصلاح والتطور التدريجى ومن هنا فقد قال له الأفغانى : (اذهب إنما انت مثبط) ... ومن هنا

أيضا فقد كان تعليقه على مظاهرة عابدين العسكرية يتمثل فى قوله أسفا على مافعله الثوار :

قامـــت عصابات جنـــد فينا لعزل خير رئيس كنت راجيه

ذاك الذى أنعش الآمال غيرته وخلص القطر فارتاحت أهاليه

والذى يقصده هنا هو (رياض باشا) .

.. ومن بعيد تأتى كلمات الأغانى تقطر منها الحسرة والألم ، فيعلق على ما صارت إليه الأمور فى مصر عقب الاحتلال :

« ... وأسفا على حالة الأهالى بعد هذا ..

حكم من لا دافع لحكمه بطرد آلاف من الوطنيين الموظفين فى دوائر الحكومة، وما منهم احد إلا ويتبعه عائلة وأولاد ..

ألم يمس الفقر هؤلاء ؟

ألم يعضهم ناب الجوع ؟ ألم يهتك مستورهم ؟

ألم يصبحوا كساة بسرابيل الكآبة عراة من أكسية المسرة ؟

أفعمت السجون بأعيان الرعية، ورفعت أذناب الكرابيج لتشريح أبدانهم، واستعملت آلات التعذيب ...»

هل نستطيع أن نعلق بعد كلمات هذا الثائر العظيم ؟ لا أظن .

ماهكذا ينقد التاريخ العثمانى*!

مقال الدكتور سعيد اسماعيل على، المنشور فى عدد فبراير ١٩٨٥** من الهلال، بعنوان السلطان عبد الحميد والثورة العربية، مقال طويل، احتوى على عدة قضايا، تحتاج كل منها لمقال كامل للرد، وزاد الأمر طولا، قضية أخرى هى ماقدمت به الهلال المقال . ورغم أنى لا أستطيع - وأنا خارج مصر - تتبع النشرات المصرية . فإنى فهمت من تقديم الهلال بأن مقالا أو ربما كتابا صدر فى مصر، فى اتهام الحركة العربية .

وفى البدء أقول، إننى أتردد فى قبول مقولة الهلال : «من أكثر الأفكار غرابة ومدعاة للدهشة، القول بأن الزعيم احمد عرابى كان بداية الانحراف فى التاريخ المصرى الحديث عندما تمرد على السلطان عبد الحميد»

والذى قال ببداية الانحراف، مقولته صحيحة، إلا أن الكتاب فى مصر، وخاصة الذين يدينون بالقومية منهم، يتصدون للدفاع عن قضاياهم، دون ترو، لفرط حساسيتهم القومية. وأرجو ألا يفهم من كلامى هذا أننى ضدهم ، فلا أحد بإمكانه إلغاء انتمائه لقومه الذى هو منهم، ولا إبطال أحاسيسه الجميلة تجاههم .

إن حركة عرابى باشا، كانت أول حركة قومية عربية فى مصر، ولعلها كانت الأولى فى العالم العربى، ولاتجاهها القومى العربى تكون بالفعل قد انحرفت عن المفهوم السائد فى القرن التاسع عشر الميلادى فى منطقة البلدان الاسلامية، وهو مفهوم الولاء للسلطة الدينية، وأقصد بالسلطة : الانتماء . ولعل المثال الآتى يوضح المسألة بعض الشئ : فى إيران اليوم دولة دينية بمفهومها الخاص، وإيران دولة تضم عدة أجناس : عرب، فرس، أكراد، تركمان .. فلو قام الأكراد الآن بالمناداة بالقومية الكردية ويطالبون بدولة مستقلة، سيقوم الحكم فى إيران باعتبار الاتجاه القومى الكردى انحرافا، لكن هذا الاتجاه قد يكون بالنسبة للأكراد، أمرا طبيعيا، وفطريا، وحتمية تاريخية، بالنسبة للمفهوم القومى لكنه أيضا يكون الاتجاه الصحيح لدى الأكراد، فى تفكيرهم .

لماذا يفترض «الهلال» أن الاتجاه الصحيح هو ماخطته حركة عرابى باشا، وهو شخصية تاريخية تقدر ويقدر دورها، وإسهامها التاريخى. لكن الاتجاه الصحيح كتعبير أيضا لا يمكن فرضه على كل الناس، وهو يختلف من مجموعة فكرية إلى مجموعة فكرية أخرى .

---

* للدكتور محمد حرب، الهلال، مايو ١٩٨٧

** الصحيح فبراير ١٩٨٧

حماس التيار الدينى

إن انتصار الفكرة القومية فى العالم الاسلامى، على الفكرة الدينية، منذ القرن الماضى هو الذى جعل البعض يعتبر أن الاتجاه الصحيح هو الفكر القومى، ولكن السوال الأن : ترى هل كان يمكن أن يلتزم هذا لو كان الفكر القومى فى العالم الإسلامى، قد انهزم أمام الفكر الاسلامى - سياسيا - وأرجو ألا يفهم من هذا أننى أؤيد صاحب المقولة الأولى إذا كان تصويرى عنه صحيحا، وأكاد أخمن أنه ينتمى إلى التيار الدينى، وهذا التيار قد يكون فيه حماس يبدو معقولا حينا، ويبدو زائدا عن حده أحيانا . على كل حال، ليس للاتجاهات الفكرية محل فى ردى هذا، وفى مقالى الثانى المكمل لهذا، سانشر فيه وثائق جديدة وهامة عن حركة أحمد عرابى باشا، وستتضح رؤيتى لها .

لكنى عندما نظرت فى مقال الدكتور سعيد اسماعيل على، نظرت فيها بوصفى باحثا فى التاريخ . تساءلت أولا فى نفسى : ربما الدكتو صاحب المقال، باحث فى التاريخ، لكنه قد يكون دكتورا فى الدراسات الانسانية عامة، أو لعله محب فقط لدراسة التاريخ، ودراسة التاريخ عند أصحابها، معاناة . لأنها تفرض عليهم أمورا كثيرة أبسطها متابعة الجديد من النشريات، فى ميدانهم . لكن صاحب المقال - وبكل احترام لشخصه - أراه «يغامر» بوضع آرائه فى المقال، وباحث التاريخ ليس كذلك، فمهمته أن يبحث فى التاريخ ليخرجه لنا نتعلم منه، ثم إذا أردنا أن نكون فكرة أو أردنا تأويلا لأحداثه، أمكننا ذلك، لكن تعال إلى مسألة عبد الحميد بمفردها : وثائقنا عنها نادرة . ولم نعرف بعد واقعها إلا فى ضوء مامعنا . فإذا جئنا إلى قضية أحمد عرابى باشا، فأين نحن من موادها التاريخية بعد !!

يعتمد الدكتور سعيد اسماعيل على على مراجع، فى مقاله هذا، قدمت مع تطور أبحاث التاريخ، كما اعتمد على مصادر ليست من أصل الموضوع، إن نظرة إلى مصادر سيادته لتؤكد لنا هذا، كتاب القومية العربية لأبى الفتوح رضوان، القاهرة ١٩٦٨ (نحن الآن فى عام ١٩٨٧، والكتاب وصفى تنظيرى) معلوماته أولية، إن كنا صدقناها قبل عشرين سنة قبل الآن، فإننا نقابلها اليوم بدهشة ، وفقرة هذا الكتاب التى استشهد واسترشد بها كاتب المقال المذكور تقول: (ولولا الأزهر الشريف لأصيبت اللغة العربية، والعلوم الدينية، بأضرار، ولغلبت عليها اللغة التركية) .

هذه مقولة مجافية تماما لتاريخ التربية والتعليم «يادكتو اسماعيل» .

من قال إن العثمانين تدخلوا فى مقررات الأزهر، ولا فى دراساته ؟! ومن قال أنهم وقفوا

ضد اللغة العربية ؟! بل من يستطيع هنا أن يقول ذلك ونحن نشتغل بالتاريخ ؟! من يستطيع أن يقول ذلك فى الدولة العثمانية التى حمت اللغة العربية ودافعت عنها، وكانت اللغة العربية هى اللغة الرسمية فى مؤسسات التعليم العثمانية كلها، فى أوربا الشرقية (بلاد الروملى) وفى الأناضول وفى بلاد الأكراد (التابعة للدولة) وفى بلاد الغرب : فى بلفراد وبودابست وبوخارست وصفيا واستانبول وقونية وحلب وبغداد وصنعاء والقاهرة والحجاز والقائمة طويلة ! ثم أن إنتاج العثمانيين باللغة العربية، إنتاج هائل وعميق وقائمة الأمثلة طويلة أيضا . حاجى خليفة صاحب كشف الظنون، ومنجم باشى صاحب جامع الدول، وجنابى صاحب العلم الزاخر، وخليل فوزى صاحب السيوف القواطع، ومعلم جودت صاحب ذيل على ابن بطوطة والشيخ أبو السعود وتفسيره، والبيضاوى وتفسيره، ومصطفى صبرى وكتابه موقف العقل .

وأشير هنا إشارة إلى جهود العثمانيين فى التأليف فى نحو وصرف اللغة العربية وإلى ابن كمال باشا، الذى وصفه صاحب الفوائد البهية بقوله (وأقر له علماء القاهرة بالفضل) و(يكاد يكون إبن كمال باشا» والسيوطى، نجمى عصرهما)و (ان كمال باشا أدق نظرا من السيوطى وأحسن فهما) . لابن كمال باشا، هذا، رسائل لغوية عربية كثيرة منها (رسالة فى تحقيق معنى كاد) و (رسالة فى رفع مايتعلق بالضمائر من الأوهام) و (دقائق الحقائق فى اللغة) و (رسالة الكلمات العربية) .

ونظرة إلى المقررات الدراسية فى مساجد ومدارس وكليات الدولة العثمانية على كل مراحل تطورها تشهد بالاهتمام البالغ الرفيع المستوى، ليس باللغة العربية فقط بل وبآداب العربية أيضا . ثم أوجه لكم هذا السؤال : متى فرض العثمانيون اللغة التركية كلغة علم أو حتى تحدث فى مدارس مصر ؟!

ومن مصادر الدكتور صاحب المقال المذكور أيضا كتاب الدكتور محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى، وإن لم يذكر الكاتب سنة طبع الكتاب لكننا كنا نقرؤه فى أوائل الستينيات، ومعروفة مصادر الدكتور محمد أنيس فى هذا الكتاب لدى المتخصصين، والكتاب يحتاج الى نقد مصادره .

فكرة الجامعة الاسلامية

من قضايا مقال السلطان عبد الحميد والثورة العرابية، قضية السلطان عبد الحميد نفسه. والحديث عن عبد الحميد طويل، وليس هنا محله، لكنى سأستخدم من الإشارات بعضها، يقول كاتب المقال المذكور (.. فالذين هاجموا وانتقدوا سياسة السلطان عبد الحميد، لم

يقصدوا أن يهاجموا فكرة الرابطة الاسلامية، وإنما كانوا يهاجمون اتخاذه لها ستارا يخفى أمورا أخرى غاية فى السوء) ..

أى سوء يادكتور ؟! فكرة الجامعة الاسلامية كانت لمقاومة الاستعمار الغربى وإعادة ثقة العالم الاسلامى بنفسه، وعبد الحميد بشر قد يخطئ وقد يصيب لكنه كان حريصا على وحدة العالم الاسلامى الشعورية وليست السياسية كما تصورت سيادتك فى مقالك . ولم يكن للجامعة الإسلامية مطامع شخصية للسلطان، لكنها مصلحة عامة للمسلمين . من الجامعة الإسلامية التمسك بالقدس وتمسك بها، وقاومه اليهود وقاومهم مع معرفته بأن المقاومة - إن كانت مطعما- ستؤدى إلى عزله عن العرش، مع معرفته بهذا فقد قاوم رافعا لواء هذه الجامعة، التى لم تدر عليه إلا تكاتف أعدائه عليه هو شخصيا . فأى مطامع وأى سوء يادكتور سعيد ؟! وتعبير من هذا : (جاء نيولنسكى وقال لى أنه تحدث مع السلطان عبد الحميد» وأن السلطان قال إنه لن يتخلى (!) أبدا عن القدس، ويجب أن يبقى جامع عمر (= المسجد الاقصى) بيد المسلمين دائما) و (لا يجرؤ أى رئيس للحكومة البريطانية أن يساند السلطان، ذلك لأنه يثير بذلك الرأى العام ضده)، ولأن السلطان عبدالحميد ماكر جدا، خبيث جدا، ولايثق بأحد) . إن قائل كل هذا الذى بين قوسين إنما هو هرتزل ياكتور، وبالطبع معروف من هو هرتزل!أما عن أعداء عبد الحميد، فكانوا : كل المخالفين للوحدة الاسلامية، القوميون، الذين رأوا أن الجامعة الإسلامية ضد المصالح القومية، وهؤلاء لم يكونوا فى البلاد العربية فقط، بل كان الأكراد والألبانيون والعرب والترك واليهود والأرمن والشركس وغيرهم، فالثورة الفرنسية - كما نعلم - كانت كالطوفان العظيم، اجتاح الأفكار وأثر على الشخصيات وأعطى الأمال الكبار فى أن تفتيت الدولة العثمانية يعنى تحرر الشعوب إلى قوميات، والقومية الحادة والاسلام، لا يتفقان وكان رأى عبد الحميد أن وحدة الدولة فى ظل الاسلام أفضل من تفتته إلى دول قومية صغيرة . لذلك تجد يا دكتور أن صورة عبد الحميد عند القوميين - ليس العرب فقط - بل كل القوميين صورة مشوهة مبالغ فيها . تقول مخابرات عبد الحميد، وأين هى فى دولة ضمت أغلب منطقة الشرق الأوسط وغيرها، من مخابرات دولة واحدة من دول الشرق الاوسط، عقب سقوط الجامعة الإسلامية وقيام الجامعة القومية ودولها، صورة عبد الحميد اليوم، فى الكتب الدراسية فى تركيا - على سبيل المثال - إنه السلطان المزعج الذى تعقب القوميين وشل حركتهم، وهو - فى تركيا - السلطان الذى ظهرت على يده وبنشاطه فكرة الجامعة الاسلامية، وهو - فى تركيا أيضا - الحاكم الذى اهتم بالعرب، أكثر من اهتمامه بالأتراك، والذى عمر بلاد العرب، وأهمل

الأناضول، وهو عند القوميين الأكراد السلطان الفظ الذى أفشل أول محاولة للتجمع القومى الكردى المتمثل فى محاولة توحيد ثلاثين عشيرة كردية متنافرة .

وعبد الحميد، فى الكتب الدراسية فى إسرائيل هو السلطان الذى وقف بقوة وغطرسة أمام محاولة اليهود تحقيق أحلامهم فى إقامة دولة قومية لهم فى فلسطين، صورته سيئة كذلك فى مناهج الدراسة فى العالم العربى، ولا أدرى ماذا يقول الفلسطينيون ويكتبون عنه عندما تقوم لهم دولتهم . ولو لم يكن عبد الحميد صاحبا حقيقيا لوحدة العالم الاسلامى ماهاجمه أحد : لا اليهود، ولا القوميون، ولا الأوربيون .

ميـزان الحقيقـة

إذا كان أنصار الوحدة الاسلامية يحاولون رد الاعتبار للسلطان عبد الحميد وتصويره – كما تقول – بأنه كان مظلوما، فكذلك يفعل الفلسطينيون . ويفعلون مايتصورونه لكننا نحن أصحاب الدراسات التاريخية ينبغى أن نكون منصفين للحقيقة بقدر ماتسعفنا به أدواتنا من وثائق وغيرها . فإذا مال ميزان الحقيقة لإنصاف مظلوم، مادامت الحيثيات صحيحة وموجودة أمامنا ، ومع ذلك فإنى من مدرسة تقول أن على باحث التاريخ، أن يكتب التاريخ كما يجده فى مادته الأصلية، والمؤرخ عليه أن يبحث عن الحقيقة وليس عليه أن ينصب نفسه قاضيا، ولعل الذى يقرأ تقديمى لمذكرات السلطان عبد الحميد (كتاب الهلال العدد ٤١٨ فى أكتوبر ١٩٨٥) يجد أننى أقول : (أريد أن اقدم شخصية السلطان عبد الحميد الثانى إلى المثقف العربى العام، وإلى المتخصص الباحث العربى فى التاريخ، تقديما يعتمد على المصادر العثمانية والتركية، وهى مصادر ناقصة فى ذاكرة العرب غالبا ، ولعل هذا راجع إلى أن المثقف عندنا قد استقى معلوماته – حتى الآن – من المصادر الأوربية، ومن الكتب التى صدرت بهذه اللغات) .

وعبد الحميد كان حاكما واقعيا، يعترف بأنه صاحب بلاد ضعيفة، تتحين أوربا الفرصة لإلتهامها، ولابد للضعيف من عمل شئ حكيم تجاه القوى المقابلة له . لم يكن أمامه المال ولا السلاح، وإنما إسلام دولة إسلامية، ووجد أن سياسة من سبقه من حكام الدولة العثمانية، قد اتجهوا لتجديد دولتهم وإصلاح ضعفها، اتجهوا إلى الأخذ عن الغرب أى إلى العدو المتربص ببلادهم. وكانت النتيجة كما رآها هو : الارتماء فى أحضان الغرب، ولم يجر هذا على بلاده الخير، لكنه جر عليها الفساد الأخلاقى العام، وكثرة الديون، فعمل هو على سياسة (الاتجاه إلى الذات) للإصلاح وتقوية دولته، ووجد أن هذا لايكون إلا بربط المسلمين الذين يحكمهم بالمسلمين خارجهم بحيث ينضم الضعيف فيقوى الإثنان وهو الجامعة الإسلامية . أما الذى

خلف هذه الجامعة من سوء - كما يقول الدكتور صاحب مقال السلطان عبد الحميد والجامعة الاسلامية - فليس فى التاريخ الذى درسناه من مصادره الأولى شاهد واحد حتى الآن على إساءة عبد الحميد لاستخدام ماأسماه هو (سلاح الخلافة) فى مأرب شخصى له . وحسب علمى أنه نجح فى إبراز هذه الوحدة الدينية، وحسب علمى أيضا نال السلطان عبد الحميد احترام المسلمين فى كل بقاع العالم .

أذكر جيدا أن زارنى فى بيتى فى استانبول فى نهاية الستينيات، زائر من جنوب إفريقيا، كان قد قصد زيارة جار لى فلم يجده، فاستضفته بعض ساعات حتى حضر جارى، وأثناء تأمله فى مكتبتى وجد كتابا عن عبد الحميد فقال لى : إننا نذكر بكل الخير خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد، فى مساجدنا فى جنوب إفريقيا، فى خطبة الجمعة ! وقال لى الأستاذ يوسف قراجا وهو تركى تلقى دراسته بالهند، وهو زميل فاضل، قال لى أن خطبة الجمعة فى بعض مناطق الهند النائية مازالت، باسم خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثانى! .

هذا ما أعلمه، أما إذا كان الدكتور سعيد يعلم شاهدا واحدا على سوء استخدام عبد الحميد لسلاح الجامعة الاسلامية، أو مثالا واحدا على استغلاله لحركة هذه الجامعة، لصالحه الشخصى، فليقل لنا لنتعلم منه، بل إنى بالتاكيد سأكون له من الشاكرين إن استطاع، أن يدلنى على شئ ثابت يوافق العلم والتاريخ، يعنى وثيقة أو مصدرا أصليا موثقا . وبالطبع يادكتور لابد أن أستبعد - من الآن - تقديم سيادتك - الوثائق اليهودية أو، بيانات جمعية الاتحاد والترقى وكذلك بيانات الجمعيات الماسونية فى عهده وأجنحتها العسكرية .

عدم تجانس الامة

يقول مؤلف كتاب (حقائق الأخبار) فى مسألة الحكم الدستورى فى عهد عبد الحميد (ولما كان بعض دول أوربا لا تحب أن ترى اتفاق الأمة العثمانية وأن يكون لها مجالس نيابية شورية أخذت تدس الدسائس من يوم ظهور هذا المجلس إلى عالم الوجود، ولما خافت الدولة من رواج الدسائس الأجنبية بين بعض الأعضاء الذى يؤدى بلا شك إلى المشاكل والاختلالات التى أرادت الدولة التخلص منها بتشكيل هذا المجلس فتكون جلبت على نفسها الضرر من حيث أرادت المنفعة ، صدر أمر سلطانى بعد اتفاق وزراء الدولة وأعيانها بإرجاء اجتماعه إلى أجل غير محدد (١٠ صفر ١٢٩٥) ، وقد قال كثير من عقلاء الأمة الذين خبروا أحوال الدولة العثمانية وأحوال شعوبها، ووافقهم على قولهم هذا من تنزهوا عن الأغراض من رجال سياسة الدول

الأجنبية بعدم إمكان تأليف مجلس كهذا للأمة العثمانية فى ذلك الوقت لأسباب عديدة أهمها عدم تجانس الأمة العثمانية وميل جميع الطوائف الغير مسلمة بها إلى ترويج مصلحة الدولة الأورباوية التى تستند عليها تلك الطائفة ، لأنه من المصائب التى ابتليت بها هذه الدولة أن مالت كل طائفة غير مسلمة إلى دولة أوروباوية، ومنها عدم بلوغ الأمم العثمانية درجة التعليم التى تؤهلها إلى تفضيل مصلحة الوطن علي غيرها، ومنها سعى كثير من دول أوربا فى تفريق الجامعة العثمانية لينالوا بذلك مآربهم الخصوصية) .

أوقف عبد الحميد العمل بالمجلس النيابى المتعدد الولاءات للدول الأجنبية للأغراض التى ذكرها إسماعيل سرهنك. وثار عليه ضباط الاتحاد والترقى، ومن أهم أسباب ثورتهم - أقصد الأسباب المعلنة - ضرورة إعادة المجلس النيابى، وبالفعل أعادوه، فماذا كانت النتيجة ؟ حركات انفصالية عن الدولة، غذاها أعضاء هذا المجلس النيابى، كل واحد ساند عرقه وساندته دولة أوربية. ثم انقضت الدول الغربية على الدولة العثمانية، فى هجمة أنهت بها الوجود العثمانى من التاريخ ، وباسم الحياة الدستورية، تم تطبيق سياسة الطورانية، وباسم المجلس النيابى دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى وهى حرب لم تكن لها فيها ناقة ولا جمل أدت إلى انهيارها، وهروب ثلاثى الاتحاد والترقى من البلاد : أنور وطلعت وجمال .

من غذى هذه الحركة الدستورية يادكتور ؟! اليهود العثمانيون ويهود الخارج بكتابات مونيز كوهين، ودراسات المستشرقين اليهود فى أوربا. غذاها أيضا أقطاب الفكر القومى المتطرف من الكتاب الأتراك الذين درسوا على أساتذة وكتاب وفلاسفة يهود .

وبالطبع، لايقف كاتب هذا المقال، فى رده هذا ضد الديمقراطية، لكنى أحاول أن أضع المحاولة الدستورية التى وقف ضدها عبد الحميد فكرا وعملا، فى مكانها حسب وقتها، ذاكرا دوافعها وظروفها. وعبد الحميد يقول أنه يحاول النظر للمسائل السياسية نظرة تعقل وليس نظرة اندفاع .

وفيما كتبه الدكتور صاحب مقال عبد الحميد والثورة العرابية تحت عنوانه الفرعى (هل تخلف المسلمون فى العهد العثمانى؟) أقول له : من أين أتيت سيادتكم بالادعاء الذى تقوله : (نجد أنه على الرغم من تولى حكام من جنسيات مختلفة قيادة الدولة أو الدولة الاسلامية فإنهم جميعا ذابوا فى الثقافة الاسلامية .. فكانت اللغة العربية هى اللغة الاسلامية .. لكن هذا لم يحدث للدولة العثمانية، فالأتراك وإن كانوا مسلمين فإنهم لم يتعلموا اللغة العربية، فبقوا بعيدين عن روح الثقافة الاسلامية، لأنها كانت باللغة العربية، ولعل هذا يفسر بعض الشئ السبب الذى

جعل هذه الثقافة تتخلف فى هذا العهد، على عكس العادة التى جرت طوال العصور الإسلامية.. فكلما نهض حكم جديد قوى يلم أطراف العالم الاسلامى شهدت الثقافة الاسلامية ازدهارا وقوة .. إلا فى العهد العثمانى ..) ويمضى الدكتور سعيد اسماعيل فيقول (إن سلاطين آل عثمان مافتئوا ينقلون من العلماء ومهرة الصناع والفنانين إلى قصبة ملكهم حتى أفقروا العالم العربى من أفذاذ رجاله فى مختلف الميادين، لذلك لا نعجب إذا سجل التاريخ هبوطا فى مستوى المدنية الإسلامية فى هذه الفترة حتى زحفت العجمة على اللغة، واختفت البحوث العلمية والفلسفية، وأغلق باب الاجتهاد فى الفقه، وانعدم التأليف إلا من الملخصات والمختصرات للمؤلفات التى ألفت فى العصر الذهبى السالف، وانحط الفن الحربى .. وانعزل العرب عن مجرى المدنية الانسانية ..)

ما كل هذا التحامل يادكتور ؟ لنأخذ أقوال سيادتكم من البداية فنقول إن المدنية الإسلامية قد بلغت أوجها فى عهد العثمانيين، فالحضارة العثمانية - المتجاهلة عن عمد فى أوربا والعالم العربى - هى الحلقة الأخيرة من حلقات تطور هذه الحضارة، وجمع العثمانيون فى عهدهم كل مكاسب حلقات الحضارة الإسلامية السابقة عليهم وأضافوا إليها العديد مما جلبوه معهم من آسيا الوسطى، ومن البلاد المفتوحة فى أوربا، وحققت الدراسات العربية دراسات متقدمة فى مختلف فروعها فى العهد العثمانى، ولم تختنق البحوث العلمية بل إن للعثمانيين مكانة فى العلوم بلغت أوجا كبيرا، وباب الاجتهاد فى الفقه لم يغلقه العثمانيون، وإنما حدث هذا قبلهم بكثير . ولم ينعدم التأليف، لكن هذا لم يمنع من استمرار تدريس الحواشى لأهميتها، مع العلم بأن جامعات العالم الاسلامى حتى اليوم تدرس الحواشى لأنها غير مرفوضة، بل إن الدراسات الإسلامية مازالت فى حاجة إليها، ومن ذا الذى يقول بانعدام التأليف ؟! ومن ذا الذى يقول بانحطاط الفن الحربى عند العثمانيين ؟! إن هذا كلام لا أجد له سندا واحدا من الحقيقة المدروسة . ومن ذا الذى يقول بأن العرب فى مصر أو سوريا أو المغرب قد انعزلوا عن مجرى المدنية الإنسانية بفعل العثمانين ؟ ومن قال إن العثمانيين منعوا اتصال العرب بأوربا ؟ من يقول كل هذا لم يفهم بعد طبيعة الحكم العثمانى . ومن هم - يادكتور - علماء العالم العربى الأفذاذ الذين أخذهم العثمانيون إلى بلادهم ؟ إذا كنت تقصد ما قاله ابن إياس من أن سليم الأول أخذ بعض أصحاب الفنون من مصر، فهؤلاء عادوا بعد موت سليم الأول وهو موت مبكر، عادوا مباشرة، بل إن بعضهم رفض العودة. وغير هذا المثال الجزئى الذى أورده ابن اياس .

اعطنا يادكتور مايؤيد قولتك من التاريخ ، وبالمناسبة، لم يظهر لمن أخذهم سليم من البنائين، أى أثر فى الحضارة والمدنية العثمانية، ولم يمكثوا فى استانبول أكثر من ثلاث سنوات، ثم عادوا .

أرجو أن يلاحظ القارئ هنا، والدكتور سعيد على خاصة، أنه كان للعثمانيين سياسة تسمى التهجير وذلك بأنهم كانوا عندما يفتحون بلدا ما يهجرون بعض قطاعات من الناس من أماكنهم الاصلية إلى المناطق المفتوحة وبالعكس أحيانا، نوعا من الوحدة والاختلاط ولم يطبق العثمانيون - فيما أعلم حتى الآن - نظام التهجير على البلدان العربية .

ثم من قال أن دولة العثمانيين قامت على السيف ؟ مثلما يرد فى مقالتك يادكتور سعيد ؟ هل من المعقول أن هذه الدولة الحضارية ذات الستمائة سنة وأكثر فى التاريخ تقوم على السيف؟ إن أصحاب الدراسات التاريخية يعرفون أن طول عهد دولة ما فى التاريخ إنما يعتمد على حضارتها، والعكس صحيح . فالدولة الرومانية ذات الأربعة قرون ونيف فى التاريخ طالت لحضارتها القوية، والدولة العثمانية استمرت أكثر منها، والسيف إن أقام دولة فإنه لا يقيم حضارة ولا تستمرالدولة طويلا .

وتعبير دولة الأتراك الذى يرد فى مقال «السلطان عبد الحميد والثورة العربية» تعبير، أرجو أن تراجعه، فالمعروف أنك تقصد العثمانيين. لكن التعبير الذى استخدم فى المقال، لايقصد به تاريخيا، إلا دولة المماليك فى مصر، فهى الدولة التركية وإذا لم تصدقنى فيمكن الرجوع إلى المصادر المملوكية نفسها وابن إياس وغيره حتى يمكن الاطمئنان إلى صحة قولى .

وأذكر على سبيل المثال على عدم التروى الذى يصاحب العاطفة السياسة أن صاحب المقال الذى نرد عليه هنا أصابته حساسيته القومية فأطلق تعبير دولة الأتراك على العثمانيين، المثال الذى أورده أن كاتبا إسلاميا أيضا طغت عليه حساسيته الإسلامية فأطلق على كتاب ألفه لنصرة العثمانيين، أطلق عليه اسم أو عنوان «صفحات مضيئة من تاريخ الأتراك العثمانيين»، وهو «زياد أبو غنيمة»، والدولة العثمانية لم تكن أبدا تركية، فهى دولة لم تعتمد على الايديولجية التركية ولا على الشرائع التركية السابقة للإسلام ولم تكن ثقافتها تركية، بل إنها لم تستخدم اللغة التركية وكانت لغتها تسمى اللغة العثمانية، وهى لغة مشتركة بين شعوب العالم الإسلامى أكثر من ٨٠٪ من كلماتها لم تكن تركية وأدواتها التركية قليلة ونحوها يغلب عليه النحو العربى والفارسى، والسلطة فيها لم يكن للترك فيها إلا منصب السلطان لكن الذى يهيمن على الدولة جناحان: الأول مشيخة الإسلام والآخر الصدارة العظمى .

الاولى تشريعية والأخرى تنفيذية بالشرع الذى تتمسك به الدولة وليس للترك فضل فى الدولة العثمانية إلا فضل تكوين الدولة على نهج إسلامى ملتزم بالشريعة الاسلامية بعيدا عن التأثير التركى . ومشيخة الإسلام والصدارة كانتا دولة بين كل شعوب الدولة .

بهذه المناسبة أقول إن نظام الحكم العثمانى . لم يكن استبدادا كما هو شائع فى المصادر الأوربية التى تنقل عنها، والفقرة السابقة، لعلها أعطت الضوء على هذا، إلا أن السلطان العثمانى يرأس جناحى الحكم فى الدولة، وهو مقيد بالشرع، وهو نفسه أجبر منذ أن كان أميرا، على دراسة الفقه الاسلامى ودراسة اللغة العربية دراسة متخصصة ، بالإضافة إلى العلوم العربية الأخرى : التفسير والحديث مثلا، وكل سلطان عثمانى مر بمرحلة الدراسة الإجبارية هذه .

إحياء فكرة مواجهة الغرب

تبنى السلطان عبد الحميد لفكرة الجامعة الاسلامية - يا دكتور سعيد - لم يكن كما تفضلت (لتحقيق أهداف هى : ضمان التفاف العالم العربى .وتأكيد استبداده اعتقادا منه أن فكرة الجامعة الإسلامية تعنى الحكم الاستبدادى، وثالثا : اتخاذها أداة للضغط على الدول الأوروبية)!

ليس الأمر كذلك يادكتور، فلقد التف العالم العربى حول الحكم العثمانى منذ قرون قبل ظهور عبد الحميد، ولم يكن عبدالحميد مستبدا، بل كان حاكما شوريا، نموذجا رائعا لاحترام كلمة القضاء أثناء حكمه . يعيبه أنه كان يرفض العمل بالفكرة الغربية فى الديمقراطية . لم تكن الجامعة الاسلامية عنده أداة ضغط فقط، بل إحياء لفكرة لمواجهة الغرب بها، ولم يكن العالم العربى يشكل إلا جزءا من عالم إسلامى واسع الأرجاء .

اشتكى عبد الحميد من أن قصره وحكومته يسيطر عليهما اليهود والدونمة والماسونية، وأن ذلك يعرقل سعيه إلى الجامعة الاسلامية . كما اشتكى من أن السفارات الأجنبية - بحكم امتيازات سابقة - كانت مأوى للمناهضين له، وبلغت به الشكوى إلى تصريحه بأن صدره الأعظم مدحت باشا وقائد جيشه حسين عونى باشا، يخونانه بالتعامل مع بريطانيا، من خلف ظهره اى ظهر السلطان .

ان تعبير دفع (المثقفين إلى تشكيل جمعيات سرية فى داخل الإمبراطورية وأخرى علنية فى أوربا) نتيجة لسياسة عبد الحميد، تعبير غير صحيح .

إن تشكيل جمعيات سرية داخل الدولة العثمانية لم يكن فى عهد عبد الحميد ولا من جراء

سياسته، وإنما هى جمعيات تشكلت قبله بزمن، منذ بدأ الصراع بين الفكرتين الإسلامية والقومية فى السيطرة على الدولة العثمانية، منذ أن قام المثقفون بمحاولة إحلال الفكر الغربى محل الشريعة الإسلامية فى حكم الدولة، إيمانا من هؤلاء الثوار أن الإنقاذ الوحيد لبلادهم يكمن فى التغريب ، وهى قصة طويلة، بدأت منذ عهد عبد المجيد وولده محمود وانتهت بقيام الحركة الكمالية والجمهورية التركية محل دولة آل عثمان، وهذه الجمعيات نجحت واتسعت فى عهد عبد الحميد نتيجة لحماية الغرب واليهود لها، لاختلاف عبد الحميد مع الحركة اليهودية العالمية وقتها، وقام اليهود بعمل الدعاية اللازمة لصالح هذه الجمعيات فى أوروبا بحيث كونت لها رأيا عاما عالميا، لصالحها، بالإضافة إلى تقديم المعونات المختلفة للحركات السرية عند عبد الحميد، وهذا أمر أصبح معلوما اليوم ومشاعا . ومذكرات هرتزل مازالت موجودة، ويمكن الرجوع إليها.

إن تعبير الوحدة السياسية للعالم الاسلامى الذى استخدمه الدكتور سعيد يكاد يكون فى غير محله، لأن عبد الحميد لم تكن له مناداة بوحدة سياسية شاملة للعالم الاسلامى - فيما أعلم - وليس بين أيدينا مايفيد بأنه يؤيدها أو يرفضها لكننا لا نجد مايثبت أنه نادى بها ؟ وأغلب الظن أنها كانت بعيدة عن ذهنه ونظرته العاقلة لمجريات الأمور فى العالم وقتها .

أعود فأقول أن مقال الدكتور سعيد طويل جدا، واشتمل على عدة نقاط، كلها تحتاج للمناقشة وكل نقطة تحتاج فى ردها إلى مقال، وهذا أمر يحتاج إلى وقت ومساحة، لذلك رددت المقال فى إشارات، كما أننى لم أستطع الرد إلا على الشطر الأول من المقال وهو الشطر الخاص بالدولة العثمانية والعثمانيين وعبد الحميد . أما كلام الدكتور فى الثورة العرابية، فله وقفة أخرى، خاصة فبين يدى وثائق لم تنشر بعد عن حركة أحمد عرابى باشا .

... ما هكذا يكتب التاريخ العثمانى!! ★

ردا على مقال د. محمد حرب «ما هكذا ينقد التاريخ العثمانى»

كم يشعر المسلم بكثير من الزهو والفخار، إذ يقرأ فى تراث تاريخ الدولة الإسلامية الأولى فى المدينة المنورة، فى بداياتها، كيف وقف واحد من جماهير المسلمين يقول فى وجه الخليفة العادل، أنهم لو وجدوا فيه اعوجاجا لقوموه ولو بحد السيف. وكان لهذا الخليفة العظيم ما له من مكانة فى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، دون أن يغضب من القائل وينزل به العقاب، وإنما على العكس، يظهر ارتياحا وطمأنينة لتوفر الوعى بين جماهير المسلمين، والجرأة فى التصريح بالحق أمام أعلى المقامات دون وجل أو تردد حيث أن الساكت عن الحق «شيطان أخرس» .

وكم يشعر المسلم بقدر غير قليل من الأسى، حين يرى بعضا منا - ربما بحسن نية- يضفون هالات التقديس على نظام حكم أقامه بشر وأداروه بعد ذلك بقرون عدة، وبعد أن تعددت الآراء واختلفت الاجتهادات وتباينت المذاهب والاتجاهات ، وصار كل منها يتصور أنه وحده المبصر بالحق، وأن غيره منحرفون عنه .. حتى إذا حاول باحث أن يكشف عن أخطاء هذا النظام الحاكم، هب هذا البعض غاضبين، دون ان يدروا أن غضبتهم تلك إنما تعنى مطابقة لديهم بين نظام الحكم هذا وبين رابطة العقيدة الاسلامية !

ولقد حرصت على أن أحدد بوضوح كامل المنطلق الفكرى الذى تصدر كتابتى عنه فى مقالى عن موقف السلطان عبد الحميد من الثورة العرابية (الهلال، فبراير ١٩٨٧)، ومع ذلك فقد هب د. محمد حرب ناقدا (الهلال، مايو ١٩٨٧) .

وعلى الرغم من حرصى الغالب على عدم الرد على ماقد يثار نقدا لبعض ما أكتب، لما يشوب الكثرة الغالبة من الكتابات النقدية عندنا من انحراف عن (الموضوع) إلى هجوم على (الشخص)، لكننى اليوم أتخلى عن العزوف عن الرد، لأننى حقيقة لمست فى نقد د. حرب حرصه أن يحصر نفسه فى (الموضوع) بنسبة أكبر، معبرا عن روح تتسم بالتهذيب وعفة القلم.

وأرجو ألا يقدح فى وصفى هذا، الإشارة إلى أن هذا النقد لم يخل من شائبة (شخصية)

★ مجلة الهلال فى يونية ١٩٨٧ .

بدت من خلال بعض ظلال حامت أطيافها على « أهلية» كاتب هذه السطور فى الكتابة التاريخية، وفى المقابل، قدر قليل من روح «التعالى» .

ولا أريد ان أقف عند هذه القضية طويلا .. فقط أريد أن أطمئن د. حرب بأن درجة الدكتوراه التى يحملها كاتب هذه السطور، هى فى تاريخ الفكر التربوى فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى، وبالتالى، فقد كانت علاقة مصر بالدولة العثمانية، أحد الأركان الهامة فى الدراسة .

ومقالى اليوم سأقصره على بعض النقاط التى وردت بمقال الدكتور حرب عن الدولة العثمانية فقط، أما علاقتها بالثورة العرابية، فقد نفرد لها مقالا آخر .

وأول النقاط التى أثارها الدكتور حرب، هى مايتصل ببعض المصادر التى استعنت بها ونقص بعض بياناتها . وأود أن ألفت النظر هنا إلى أن حجم المقالات التى نكتبها للهلال، فضلا عن طبيعتها كمجلة ثقافية موجهة لمختلف شرائح المثقفين وتخصصاتهم، تغل القلم عن أن يسترسل ويفيض فى ذكر المصادر كلها ومايتصل بها من تقاليد معروفة فى عمليات «التهميش» و« الإحالة» ، ومن ثم نحاول أن نحصر أنفسنا فى «نماذج» و «أمثلة» من المصادر .

وأكاد أعجب لدهشة الدكتور حرب من استعانتى بكتاب الدكتور أبو الفتوح رضوان المنشورعام ١٩٦٨، على أساس أننا الآن فى سنة ١٩٨٧، إذ لاأظن – وهو الباحث التاريخى المدقق – يغفل عن أن قِدَم المصدر، لايقلل من قيمته، وفى كثير من الأحوال، قد يكون القِدَم ميزة، على عكس الأمر فى كثير من أبحاث العلوم الاخرى .

ولا أدرى كيف يقلل الدكتور حرب من قيمة مرجع كبير موضوعه كله هو (القومية العربية)، وبالتالى، كان من الضرورى أن تكون الدولة العثمانية و (الجامعة الاسلامية) ركنا أساسيا فيه، فتتوفر فرصة الوقوف على الرأى (المغاير) . ونضيف إلى ذلك أن مؤلف الكتاب، خريج قسم التاريخ بآداب القاهرة فى أوائل الثلاثينات ، وحصل على درجتين للماجستير، أولاهما فى (تدريس التاريخ)، والثانية عن (تاريخ مطبعة بولاق)، وهى رسالة ضخمة فى موضوع وعر، معظم مصادرها، عن عهد الدولة العثمانية، ورسالته للدكتوراه كانت بعنوان Old and New Forces In Egyptian Education، وهى دراسة تاريخية تمت فى جامعة كولومبيا بنيويورك، وصدرت فى كتاب معروف ومتداول هناك .

أما كتاب الدكتور محمد أنيس عن الدولة العثمانية والشرق العربى، فعدم ذكر تاريخ طبعته ليس سهوا، لانه بالفعل (بدون تاريخ) . وللدكتور حرب أن يشكك فى قيمة هذا المصدر

لهذا المؤرخ الكبير، أما كاتب هذه السطور، فيحمل له - الدكتور أنيس - الكثير من التقدير والاحترام، وهذه قضية اخرى .

وإذ نقول «لولا الأزهر، لأصيبت اللغة العربية والعلوم الدينية بأضرار، ولغلبت اللغة التركية» ، يبادر الدكتور حرب بأن هذه مقولة «مجافية تماما لتاريخ التربية والتعليم»، ومعذرة إذ نستخدم نفس أسلوب الدكتور لنقول بتأكيد هذه المقولة من منطلق تخصصنا فى تاريخ التربية والتعليم، ونحيله إلى كتابينا «تاريخ التربية والتعليم فى مصر، عالم الكتب، ١٩٨٥» و «دور الأزهر فى السياسة المصرية، كتاب الهلال، نوفمبر ١٩٨٦»

وندهش لتساؤل الدكتور : «من قال أن العثمانيين تدخلوا فى مقررات الأزهر ولا فى دراساته ؟ « .. بل إننا نكرر معه هذا التساؤل، لأننا لم نقل بتدخلهم فى الأزهر، ولكن مقولتنا أن النظام الحاكم، إذا كانت لغته مغايرة للغة المحكومين، كما هو الحال بالنسبة للدولة العثمانية، فإنه، حتى ولو لم يقصد، من الناحية العملية، يؤدى، بالتعامل معه، إلى «تسييد» لغته هو، فتضعف بالتبعية لغة المحكومين المغايرة .

وبغض النظر عما قاله الدكتور حرب، فإننا نحيله إلى دراسات أساتذة اللغة العربية وآدابها ليقولوا هم كيف أن اللغة العربية وآدابها فى مصر لم تشهد تدهورا مثل ذلك الذى شهدته إبان الحكم العثمانى، فهذا محمد عبد الغنى حسن، فى كتابه عن حسن العطار (دار المعارف، ١٩٦٨، ص ١٦) يقول إن اللغة التركية فى العهد العثمانى «استطاعت أن تفسد ملكة اللسان العربى عند أصحابه .. فقد رأينا ملكة التعبير هبطت عند كثير من الأدباء والمؤلفين، كما رأينا الاصالة الفكرية قد استحالت إلى ضحالة، ورأينا القرائح العربية قد جمدت ولم يعد لها ذلك الخصب الذى عهدناه فى عهود القوة العربية، وهبط مستوى التأليف الخالق المبتكر إلى درك من الجدل العقيم والتعليق السقيم والحواشى المرذولة التى لا ترتفع إلى مستوى الأصلاء فى التفكير» .

أما الدكتور شوقى ضيف فى كتابه (الأدب العربى المعاصر فى مصر) - دار المعارف، ١٩٧١ فيقول فى ص ١٧٠ : «كان الحاكم يقدم عليها (العربية) اللغة التركية فى دواوينه ومنشوراته وما يطبع من كتب وآثار فى مطبعة بولاق، بل لقد كان التحدث بها من طلاب المدارس سبة حتى عهد عباس الأول، فالشيخ المهدى يقول فى (مذكرات الأدب) التى طبعها لتلامذة القضاء الشرعى فى مطلع هذا القرن «كانت اللغة العربية مضطهدة فى عهد عباس الأول إلى حد أن من يتكلم بها من طلبة المدارس الحربية، توضع فيه العقلة التى توضع فى فم

الحمار حين يقص ، ويبقى كذلك نهارا كاملا عقوبة له على تحريك لسانه بلغة القرآن فى أثناء فسحته » .

وفي دراسة علمية هامة لعبد السميع الهراوى بعنوان (لغة الادارة العامة فى مصر فى القرن التاسع عشر) نشرها المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦١، ص ٨ «عانت اللغة العربية محنة قاسية تخرمتها بالإعياء والوهن، فانحط أسلوبها وزاحمتها اللغة التركية فى دواوين الحكومة بوصفها اللغة الرسمية الأولى، بل إنها زاحمت العربية فى المعاملات العامة كذلك، بحكم الغلبة والسلطان، والناس على دين ملوكهم .

ولقد عمد الأتراك الى وأد اللغة العربية فى دواوين الحكومة الرئيسية بإلغاء ديوان الإنشاء الذى كان قائما منذ عهد أحمد بن طولون، وكان إذ ذاك مثابة تستقيم فيها اللغة الديوانية، ومدرسة يتخرج فيها جهابذة الأدباء وحذاق كتاب الدواوين، فكان إلغاؤه جناية على العربية، ومحنة قاصمة حزبتها وصوحت عن نضرتها ..» .

ويقول نفس الباحث (ص ١٣٠) أن الدولة العثمانية أضفت على الإدارة المصرية صبغتها التركية «أداتها ولغتها، فأرست قواعدها على أسس تركية، وفرضت التركية لغة لها، واستبقت العربية اللغة القومية - رسميا فيما له اتصال مباشر بأفراد الرعية، وفى شئون الضرائب خاصة تيسيرا لجبايتها وضبط حسابتها ..» .

وهناك شواهد أخرى كثيرة، نحن على استعداد للمزيد منها لمن اراد .

أما ما أورده الدكتور حرب عن الجامعة الاسلامية، فلن أقف عنده طويلا. فقط أرجو أن يعيد قراءة الفقرات الأولى من مقالى السابق ليتأكد أن كاتب هذه السطور يضع الرابطة الدينية فى المقام الأول، ومن ثم فإن مانسوقه من نقد، إنما هو «لممارسات» هذاالنظام السياسى أو ذاك، واننا لنعيد إلى الأذهان كيف رفع حاكم مثل (جعفر نميرى) فى السودان الشعار الدينى نفاقا وكذبا، ومارس من وراء ستاره أبشع أساليب الاستبداد والفساد والاستغلال .

وإذا كان كاتب هذه السطور يحتفى فى سطوره (بالعروبة)، فلأنه يتعامل معها كحضارة وثقافة، لا كجنس وعرق، وبالتالى، فلا يراها دائرة تقع خارج الدائرة الاسلامية، وإنما هى ركن أساسى فيها. وكذلك إذا كنا نفخر (بالوطنية)، فليس باعتبارها أيضا بديلا أو مقابلا للإسلام أو العروبة، وإنما هى أيضا دائرة أصغر تقع داخل دائرة العروبة .

إننا لا نستطيع أن ننكر الدور التاريخى الكبير الذى قامت به الدولة العثمانية فى جانبين

يستحقان كل التقدير والاعزاز :

الاول : جمعها البلدان الاسلامية فى وحدة سياسية استمرت عدة قرون .

الثانى: وقوفها بالمرصاد ضد محاولات الاستعمار الغربى .

لكن هذا لايجعلنا أيضا ننسى أن مثل ذلك إنما كان حتى نهاية القرن الثامن عشر، أما فى القرن التاسع عشر، وأوائل العشرين، فقد كانت تلك لدولة تعانى من أمراض الشيخوخة الحضارية، شأنها فى ذلك شأن كثير من الامبراطوريات الكبرى طوال التاريخ . وكما ساعدت قوتها ووحدتها على حماية العالم الاسلامى من الوقوع تحت سيطرة الغرب الاستعمارى، إذا بضعفها وشيخوختها يمكنانه فى القرن التاسع عشر أن (يأكل) معظم العالم العربى تحت سمع وبصر سلاطينها وخلفائها .

كذلك فإننا نعترف بموقف عبد الحميد المشرف من محاولات إقامة الدولة الصهيونية فى فلسطين، لكننا نرجو أن ننبه إلى أنه إذا كان قد رفض فكرة الدولة والوطن القومى، إلا أن الصهاينة فى ظل حكمه أيضا قد أقاموا العديد من المستوطنات وبذروا العديد من البذور التى جعلت قيام هذه الدولة فيما بعد مسألة وقت ومسألة إجراءات .

ثم نأتى لمسألة (تهجير) السلطان سليم لكم ضخم من أحسن الكفاءات العلمية والعملية المصرية إلى العاصمة العثمانية من مصر، ومحاولة الدكتور حرب التهوين من آثار ذلك على الطاقة الإنتاجية لمصر، حيث ذكر أنهم عادوا إلى مصر بعد ثلاث سنوات فقط، فحتى إذا سلمنا بذلك، فهناك مما لا يمكن أن يعاد إلى شعب مصر، فهاهو ابن إياس فى مؤلفه المعروف (بدائع الزهور)، طبعة الشعب، ص ١١١١ يقول :

«إن ابن عثمان هتك حريم مصر، وما خرج منها حتى غنم أموالها، وقتل أبطالها ويتم أطفالها، وأسر رجالها، وبدد أحوالها، وأظهر أهوالها، فلم يدخل إليها أحد .. ولا ملكها قط أحد، ولا جرى مثل ماجرى عليها من ابن عثمان إلا أن كان فى زمان بختنصر البابلى، .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم» . وقال أيضا:

«إن ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل، ما بين ذهب وفضة، هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح والصينى والنحاس .. والخيول والبغال والجمال وغير ذلك، حتى نقل منها الرخام الفاخر، وأخذ منها من كل شئ أحسنه، مما لم يفرح به أباؤه ولا أجداده من قبله أبدا، وكذلك ماغنمه وزراؤه من الأموال الجزيلة، وكذلك عسكره، فإنهم غنموا من النهب ما لايحصى، وصار أقل ما فيهم، أعظم من أمير مائة ومقدم ألف مما غنمه من مال وسلاح وخيول وغير ذلك .. **فما رحلوا من الديار المصرية إلا والناس فى غاية البلية.**

وفى مدة إقامة ابن عثمان بالقاهرة، حصل لأهلها الضرر الشامل وبطل منها نحو خمسين صنعة، وتعطلت منها أصحابها ..» .

ترى، أكان ابن إياس هو الآخر متأثرا فى ذلك بكتابات الغربيين لأنه انتقد الدولة العثمانية ؟

ويذكر الجبرتى فى حادث سنة ١٧٨٤م «.. وانقضت هذه السنة - كالتى قبلها - فى الشدة والغلاء» ، ثم يقول «وصار بيت المال من جملة المناصب التى يتولاها أشرار الناس بجملة من المال يقوم بدفعه فى كل شهر .. فحل بالناس ما لايوصف من أنواع البلاء» .

ثم اقرأ معنا هذه الصورة التفصيلية التى تقشعر منها الأبدان :

«وفسدت النيات وتغيرت القلوب، ونفرت الطباع، وكثر الحسد والحقد فى الناس لبعضهم البعض، فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدلى بها إلى الظالم .. حتى خرب الإقليم، وانقطعت الطرق وعربدت أولاد الحرام، وفقد الأمن ومنعت السبل إلا بالخفارة وركوب الضرر ،

وجلا الفلاحون من بلادهم من الشراقى والظلم، وانتشروا فى المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع، ويأكلون مايتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره، فلا يجد الزبال شيئا يكنسه .

واشتد بهم الحال حتى أكلوا الميتات من الخيل والحمير والجمال، فإذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه وقطعوه وأخذوه، ومنهم من يأكله نيئا من شدة الجوع» (ص١٢٩، طبعة الشعب)

هل كان الجبرتى يستمد معلوماته من كتب الغربيين، أم يسجل ماشاهدته عيناه ؟

ويسجل على مبارك فى الجزء الأول من الخطط التوفيقية قوله : «ابتداء من القرن الثانى عشر، يعنى مدة ثلاثة قرون، قد أهمل أمر المدارس، وامتدت أيدى الأطماع إلى أوقافها، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة، فأخذوا فى مفارقتها، وصار ذلك يزيد كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد، حتى انقطع التدريس فيها بالكلية، وبيعت كتبها وانتهبت، ثم أخذت تتشتت وتتحزب من عدم الالتفات إلى عمارتها ومرمتها، فامتدت أيدى الناس والظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها، حتى أن بعض تلك المدارس الفخمة والمبانى الجليلة إلى زاوية صغيرة، تراها مغلقة فى أغلب الأيام، وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشا أو غير ذلك، ولله عاقبة الأمور» .

وهذا هو الشيخ السادات يكتب عام ١٨٠٠ إلى عثمان كتخدا الدولة يقول : « .. ألزمتم الغنى والفقير إطعام عسكركم الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات، وبلغ فى النهب والفساد

غاية الغايات، فكان جهادكم فى أماكن الموبقات والملاهى حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهى، فاستحكم الدمار والخراب، ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب، فبذلك كان عسكركم مخذولا، وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا»، ص ٣٦٠

.. هكذا خربو مصر وامتصوا دماء شعبها وأذلوا أهلها وأفقروا جيوبهم .. جفت الأوراق وسالت أنهر البؤس فى كل مكان .. وصارت مصر بذلك (صيدا) جاهزا .. فريسة سهلة لأفاعى الاستعمار الجديد الآتية من الغرب الرأسمالى !!

ومعذرة للقارئ حيث أتخمناه بهذه النصوص، ومافعلنا ذلك إلا ليعلم من لايعلم أن المسألة ليست رأيا لنا أو لغيرنا ابتدعناه، وليس الرأى دائما فيه متابعة وترديد لما يقوله الغربيون، فنحن نعى تماما العداء التاريخى الغربى للدولة الاسلامية، ولكن : هل يدعونا هذا أن نغمض العينين عما فى (ممارسات) النظام الحاكم لهذه الدولة من سيئات ؟ وهل يمكن أن نصدق حكاما هذه حال مصر فى عهودهم، أنهم يعملون لصالح الإسلام ؟ أليس صالح المسلمين من صالح الإسلام؟ فإذا كان هذا هو ما آل اليه حال مسلمى مصر (وغيرها مثلها بطبيعة الحال، ولكننا نقصر الكلام على مصر التى تخصصنا فى دراسة تاريخها) فهل يمكن أن نثق بالشعار المرفوع ؟

بل إن هذه الدولة (الاسلامية) هى التى حاربت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة، التى أراد بها أن يخلص مسلمى الجزيرة من مظاهر لاتعد ولا تحصى، جعلتهم يرتدون عمليا إلى الوثنية !!

ونأتى أخيرا إلى قضية وصفنا للدولة العثمانية بأنها (تركية) ، إذ ينكر الدكتور حرب علينا ذلك، ويرى أن دولة المماليك هى فقط الدولة التركية .. وليس ذلك دقيقا كل الدقة، وها هو الدكتور محمود رزق سليم فى الجزء الأول من موسوعته التاريخية الضخمة عن عصر سلاطين المماليك (ص١٧) يقول : «ويظن المرء لأول وهلة أن مماليك مصر هؤلاء كلهم من الجنس التركى أو الجركسى، والواقع أن فيهم من أجناس أخرى عددا»، ومن الأمثلة التى يبرهن بها على ذلك أن منهم التركى كالظاهر بيبرس والجركسى كالأشرف قايتباى، والتترى كالعادل كتبغا، والقبجاقى كالمنصور قلاوون، والهندى كالأمير جوهر التركمانى اليشبكى، والرومى كالظاهر تمربغا، ولكن الجنس التركى والجركسى كانا غالبين .. كان للجنس التركى السيادة فى الدولة الأولى (الدولة البحرية)، وللجنس الجركسى السيادة فى الدولة الثانية (الدولة البرجية) أو الجركسية .. وكان من الأجناس الأخرى طائفة من المغول استقدمها إلى مصر العادل كتبغا

المنصورى، وكان منها طوائف من التركمان والكرد واللاظ والأرمن، وكثرت أنواعهم وتعددت فى الجزء الأخير من الدولة الجركسية» .

وتتعدد أقوال المؤرخين فى الأصول الجنسية للعثمانيين، وتحيط بعض الروايات الأساطير، ولا ندعى قولا فصلا فى هذا الموضوع، لكن المتواتر أن العثمانيين منتسبون إلى إحدى قبائل الغز **التركية** التى دفعها تقدم المغول فى أوائل القرن الثالث عشر إلى الهرب غربا صوب الأناضول تحت قيادة أرضغرل . وانتساب الدولة إلى عثمان راجع الى كونه قد أكد استقلاله التام على إثر انهيار دولة سلاجقة الروم . ومن ناحية أخرى فهى دولة تركية بشكل ما ، وليس بصفة مطلقة، فالأسرة الحاكمة إنما هى أسرة تركية تدعى الانتساب إلى قبيلة أوغوز التى انتسب اليها السلاجقة، وكان بإمكانها ان تستثير التضامن الجنسى لدى رجال القبائل الأتراك (احمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى، دار الشروق، ١٩٨٢، ص٣١) .

وهكذا لم يكن لاصطلاح (عثمانى) مدلول قومى، بل إنه يرتبط بأسرة حاكمة منه فى ذلك مثل مصطلحات (الأمويين) و (العباسيين) و(السلاجقة) .. الخ .إن هناك نقاطا أخرى تتصل بسياسة عبد الحميد وعلاقة العرب بالدولة العثمانية، تحتاج إلى نقاش آخر، فضلا عن علاقتها بالثورة العرابية مما خشينا مناقشته فى هذا المقال حتى لايجور الاختصار على كثير من القضايا التى نعتبر تفصيلها بعض الشئ ضروريا من أجل تحديد المواقف وتجلية الأفكار وكشف الاتجاهات .

ولايسعنا فى النهاية إلا أن نقول أننا نعتز بالدولة الأموية وخاصة تلك الجهود التى قامت بها من أجل توسيع رقعة الدولة الاسلامية ونشر راية الاسلام، وموقفها من دولة الروم ولكن هذا لايمكن أن يجعلنا نقف موقف الدفاع إزاء أخطائها وسلبياتها .

إننا نعتز بالدولة العباسية حيث بلغت الحضارة الاسلامية ذروتها فى عهدها، لكن لهذه الدولة أخطاءها وسلبياتها التى لاينبغى أن تحتجب عن المناقشة والنقد تحت ستار التقدير والاعتزاز ..

إن الكتابة التاريخية بحاجة إلى حذر شديد من تغلب ما تثيره العقيدة الدينية من عواطف، قد تحيد بالباحث عن رؤية الأخطاء الناتجة عن الممارسات والتطبيق، وَهْمَاً منه أن الحديث عن هذه الأخطاء فيه مساس بهذه العقيدة، فيخلط بذلك بين (الإلهى) و (البشرى)، بين (المطلق) و(النسبى) .. ونحن لا ندعى لأنفسنا العصمة تماما من مثل هذا الخطأ المنهجى،

وإنما يكفينا الوعى بهذه الحقيقة مما لا يجعلنا نتهم الآخرين ونبرئ أنفسنا، إذ لا نملك إلا أن نقول ما قاله أحد تلاميذ أبى حنيفة عندما لوحظ اختلاف بعض آرائه عن رأى أستاذه، فلما سئل عن ذلك، كان رده: «إن أبا حنيفة قد أوتى مالم نؤت، فأدرك فهمه مالم ندركه، ونحن لم نؤت من الفهم إلا ما أوتينا، ولايسعنا أن نفتى بقولٍ مالم نفهم من أين قال» .

هل خططت الصهيونية للاحتلال الانجليزى لمصر* ؟

إنه لأمر يدعو إلى الغبطة والتقدير حقا أن ينشط الباحثون للتنقيب فى تاريخنا الحديث للكشف عن ذلك الدور القذر الذى لعبه **الاستعمار بكل صوره وأشكاله** للهيمنة على مقدرات بلادنا، ووأد أية حركة ثورية، والقضاء على أية جهود للتطوير والتغيير .

ومن أهم ما بدأ بعض الباحثين يشيرون إليه أخيرا، التأكيد على أن المؤامرة الصهيونية على العالم العربى، قد بدأت منذ وقت مبكر للغاية، يرجع إلى القرن الثامن عشر .

ولكن الأمر الذى لا يدعو إلى الغبطة حقا هو أن نشهد حاولة جديدة لإلقاء مسحة من التشكيك، وظل من الشبهات على ثورة جليلة عظيمة نعتز بها، بل ونفخر بقيامها، على الرغم من أنها انتهت بالفشل والخذلان، ألا وهى الثورة العرابية، فمسكينة حقا هذه الثورة التى ظلوا يلطخون صفحاتها البيضاء منذ انتهائها عام ١٨٨٢ وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، فطوال هذه الفترة، كانت مصر تحكمها الأسرة العلوية التى حاربتها الثورة ، وكانت ترزح تحت نير الاستعمار البريطانى الذى تصدت له الثورة العرابية، فكان طبيعيا أن يصوروها بأنها (فتنة) وأنها (هوجة) .. إلى غير ذلك من الصفات الظالمة، حتى أنصفتها ثورة يوليو وأعادتها إلى مكانها الطبيعى كثورة وطنية تحررية .

إنه بقدر فرحتنا بالجانب الأول، بقدر حزننا من الثانى حيث يربط البعض بين قيام الثورة العرابية، وبداية التآمر الصهيونى على العالم العربى، بالايحاء بأن حركة عرابى قد استخدمت كأداة فى هذا التآمر. لقد أكد هؤلاء على اتهام عرابى بأنه هو الذى تسبب فى احتلال انجلترا لمصر سنة ١٨٨٢، تماما مثلما ذهب البعض إلى اتهام جمال عبد الناصر بأنه هو الذى تسبب فى الاحتلال الصهيونى لمناطق جديدة سنة ١٩٦٧ تفوق مساحة إسرائيل، ونسى هؤلاء وهؤلاء، أن كلا من الزعيمين قد حاول تطوير مصر ودفعها على طريق التقدم والقوة، فأبت عليهما ذلك القوى الاستعمارية، ذلك لأن تحقق هذا يعنى زوال هذه القوى وزوال القوى الأخرى المحلية التى ترتبط مصالحها بها، فألقى هؤلاء بكل ثقلهم لضرب هذا الجهد الثورى الوطنى، فكان ما كان..

المحاولات الأولى لليهودية الدولية :

فمن العوامل التى مهدت للاحتلال البريطانى، عامل هام لايجوز إهماله عند تقدير الواقع

* مجلة الهلال، سبتمبر ١٩٨٨ .

فى كل مسألة خطيرة ولاسيما المسألة المصرية، وهو عامل (الصهيونية) التى تسمى أحيانا باليهودية الدولية، وقد رأينا طائفة من المؤرخين يتكلمون عن هذا العامل الهام فى سياسة العالم وكأنه (هيئة منظمة) تتألف من شيوخ محنكين يجتمعون فى عواصم مختلفة ويصدرون فى كل اجتماع قرارا يتبع إلى موعد الاجتماع التالى، ويوشك أن تنطبق الحوادث فى هذه الفترة على مارسموه ورتبوه . (سعيد اسماعيل علي : المجتمع المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى، الأنجلو المصرية ، ١٩٧٢، ص٣١٢)

ونحن لم نعرف دليلا قاطعا يثبت وجود هذه الهيئة من الشيوخ المحنكين والرؤساء والطاعنين الذى لايعلم أحد كيف يقع الاختيار عليهم، وكيف تنعقد لهم طاعة الملايين فى أقطار الأرض، ولكننا نحسب أن الحوادث التى يذكرها أولئك المؤرخون لاتستلزم تفسيرها بوجود تلك الهيئة المختارة، وأن التدبير المقصود يمكن أن يتم بما بين أقطاب الصهيونية من وحدة الغرض والقدرة على اغتنام الفرص والانتشار فى جميع جهات العالم التى تفتح لهم منافذ الفرصة فى أمكنة متعددة مع اشتغالهم جميعا بأسواق المال والتجارة التى تتصل سرا وجهرا بمسائل السياسة . (عباس محمود العقاد : ١١ يوليو وضرب الاسكندرية، كتاب اليوم، يوليو ١٩٥٢، ص٨٠) .

وسنرى فيما يلى مثالا (للتدبير) الذى يتم فى حينه خطوة بعد خطوة على غير تفاهم سابق، فيظهر بعد حين كأنه خطة مرسومة وضعها أناس متفاهمون وأملوها على أتباع يدينون لهم بصدق الطاعة وإخلاص النية، ولا تفاهم هناك فى الحقيقة ولا إملاء :

فقد اتفق فى سنة ١٧٩٨، سنة الحملة الفرنسية على مصر، أن يهوديا فرنسيا أذاع فى باريس خطابا إلى قومه يدعوهم فيه إلى تأليف مجلس عام يضم إليه مندوبين من اليهود المنتشرين فى أنحاء العالم ويكون اجتماعه الأول فى باريس لتقديم طلب إلى الحكومة الفرنسية يسألونها أن تساعدهم على رد وطنهم القديم ويشفعون هذا الطلب بالسعى فى الأستانة لإقناع السلطان العثمانى بقبوله، وقد جاء فى ذلك الخطاب أن البلاد التى يريدونها تشمل الوجه البحرى فى مصر إلى عكا والبحر الميت وشواطئ البحر الأحمر، وهى رقعة من الأرض تجعلهم سادة التجارة الهندية والفارسية والعربية. نقل سوكولوف Sokolow هذا الخطاب فى كتابه عن تاريخ الصهيونية منذ سنة ١٦٠٠ الى سنة ١٩١٨، ونقل معه التصريح الذى أعلنه نابليون فى الصحيفة الرسمية بعد ذلك بسنة واحدة ودعا فيه يهود إفريقيا وآسيا إلى موافاة جيشه ليدخل بهم فى ظل رايته إلى مملكة (اورشليم) (العقاد : ص٨١) .

وكما اتفق فى سنة الاحتلال الفرنسى توجيه تلك الدعوة، اتفق كذلك فى سنة الاحتلال البريطانى ١٨٨٢، أن جماعة باسم «بيت يعقوب تعالوا نذهب» تألفت فى الآستانة لاستئناف المساعى حيث انتهى بها «موسى مونتفيور»، وهو يهودى تجنس بالجنسية الإنجليزية اشتغل بالتجارة فى الشرق، وكانت له معرفة بمحمد على، وقد كتب فى مذكراته فى ١٨٣٩/٥/٢٤ «إنه سيطلب من محمد على أن يؤجر له إقليما يزرعه من أرض فلسطين ويؤلف لاستغلاله شركة إنجليزية تؤدى أجرته مدة خمسين سنة» ، وكان إثنان من الإنجليز المسيحيين، هما اللورد شافتسبرى، والمستر لورنس اولفانت يبذلان المال لتوسيع الأرض التى يزرعها اليهود فى فلسطين .

آل روتشيلد، يساندون دزرائيلى فى اقتناص الصيد المصرى الثمين :

وتتعدد محاولات أساطين اليهودية العالمية فى إيقاع مصر فى شباك الاستعمار والرأسمالية العالمية، وقصة الديون التى جر الخديوى إسماعيل إلى اقتراضها، طويلة يضيق المقام عن ذكرها، ويكفينا الإشارة إلى ما انتهت إليه لندرك ما الهدف الذى كان مقصودا منها، ومن هم المستفيدون من ذلك ؟ ولم يستطع إسماعيل ان يمضى فى طريق الاقتراض إلى ما لا نهاية، فإمكانيات الوفاء بسد الديون محدودة، والمرابون والرأسماليون الأجانب لايلقون بأموالهم عبثا دون تقدير لمدى الوفاء بها وماعسى أن تؤدى إليه الظروف السياسية من ضياع فرص السداد، خاصة وأن الخزانة المصرية قد استنفذت حتى الثمالة، وأثقال الديون قد أرهقت من أمر البلاد عسرا . وهنا زين الأفاقون لإسماعيل أن يبيع نصيب مصر فى أسهم القناة من أجل المزيد من الأموال مادامت المؤسسات المالية الأوربية والمرابون الأجانب فى مصر قد بدأوا يزورون عن إقراضه .

وعندما أرسل إسماعيل رسله إلى أسواق باريس المالية عارضا هذه الصفقة، أسرع قطب اليهودية العالمية درزائيلى ورئيس وزراء انجلترا فى ذلك الوقت، محاولا اقتناص هذا الصيد الثمين قبل أن ينفرد به أحد ، فكتب الى الملكة فيكتوريا فى ١٨ نوفمبر ينة ١٨٧٥ يقول :

«إن خديوى مصر على وشك الافلاس المالى، وأنه يرغب فى بيع أسهمه فى قناة السويس»، واتصل لذلك الغرض بالجنرال ستانتون (معتمد انجلترا فى مصر) : « .. إنها مسألة ملايين أربعة على الأقل، ولكنها تعطى لمالكها نفوذا عظيما إن لم يكن متفوقا فى إدارة القناة، وأنه حيوى لسلطة جلالتك ومركزك فى هذا الوقت العصيب أن تصبح القناة ملكا لانجلترا .. ولقد حاولت أن أقنع «داربى» - وزير خارجية انجلترا - ونجحت فى إقناعه بأهمية

تحول مصالح الخديوى إلينا» . (محمد مصطفى صفوت : انجلترا وقناة السويس، ١٩٥٢، ص٤٧) .

ولما تمت موافقة الحكومة البريطانية على شراء الأسهم، كان لابد من النظر بسرعة فى كيفية تدبير المبلغ اللازم للشراء، فالبرلمان الانجليزى لم يكن منعقدا، ولا يمكن تدبير المبلغ بغير موافقته، ولايمكن عقده بسرعة للنظر فى هذه المسألة، ولم يكن الموضوع يقبل الانتظار وإلا ضاعت الصفقة من انجلترا، ولذا تحول ذهن دزرائيلى إلى أصدقائه من آل روتشيلد اليهود الماليين المعروفين فى انجلترا، وكان دزرائيلى متأكدا من تعاون هذا المصرف معه فى سياسته نحو مصر، ولكن لم تكن هناك سابقة لمثل هذا العمل الخطير، فماذا يحدث لو رفض البرلمان الإنجليزى حين يجتمع لاعتماد هذا المبلغ ؟ ولكن دزرائيلى أخذ على نفسه المسئولية . ومن ناحية ثانية، كان لبيت روتشيلد ثقة لا تنتهى بدزرائيلى والحكومة البريطانية التى ضمنت هذا القرض، وبذلك أصبحت الحكومة البريطانية تملك خمس الأسهم، وأكبر مساهم فى قناة السويس، وكانت تلك الخطوة من أقوى الأسباب والدوافع التى حفزت وحمست الانجليز للسعى لاحتلال مصر .

وقد علقت صحيفة (التيمس) بتاريخ ١٨٧٥/١١/٢٦ على هذه الصفقة فقالت : «إن الجمهور هنا وكذلك فى البلاد الأخرى سينظر إلى هذا العمل العظيم الذى قامت به الحكومة من وجهته السياسية لا من وجهته التجارية فهو بمثابة مظاهرة، إنه لإعلان عن نيات معينة والمبادرة بالعمل على تحقيقها ، فمن المستحيل أن نفرق فى أذهاننا بين شراء أسهم قناة السويس وبين علاقات انجلترا المقبلة بمصر أو بين مصير مصر وما يحيط بمستقبل الامبراطورية العثمانية من المخاوف، فإذا أدت الثورة وأيضا الاعتداءات من الخارج والرشوة من الداخل إلى سقوط تلك الإمبراطورية سياسيا وماليا، فقد تعين علينا اتخاذ الوسائل التى تكفل سلامة ذلك القسم من أملاك السلطان لما لنا به من الصلة الوثيقة» .

(روزستين : تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده ، ص٥٣) .

ولما بدا لإسماعيل أن يدير ظهره للرأسمالية العالمية ويتخذ من الحكم الدستورى أداة للتخلص من تبعات ديونه، لعبت لعبتها، وبذلت جهدها لتأديب هذا العميل الذى حاول أن يثور على ملوك المال اليهود، فقد ذهب (ويلسون) إلى بيت روتشيلد وأنبأهم بالخطر الذى تستهدف له أموالهم بعد التحول الذى طرأ أخيرا على الأحوال فى مصر والإسكندرية، فالخديوى يريد أن ينكر ديونه ويحتمى وراء إعلان الحكومة الدستورية فى مصر، فإذا لم يمنعوا ذلك، فقدوا كل

شئ، وبذلك نجح فى إرهاب آل روتشيلد وحملهم على استخدام نفوذهم السياسى الكبير فى مصلحة التدخل العاجل .

غمبتا، قطب اليهودية الفرنسية، رعبا من الثورة المصرية :

وفى نوفمبر سنة ١٨٨١ سقطت وزارة (جول فيرى) Jules Ferry فى فرنسا، وكان سانت هيلير وزيرا للخارجية بها، وخلفه غمبتا بيهوديته المتعصبة العمياء، الذى كان وزيرا للخارجية. كذلك ووجد أمامه ثورة إسلامية على الحكومة الفرنسية فى تونس والجزائر وقد أزعجته صبغتها الإسلامية وعزاها إلى نشر الدعوة التى كان يقوم بها السلطان عبد الحميد ، وقد ظن أن الحركة المصرية قائمة على الأساس ذاته . وقد قال غمبتا فى محاورته مع اللورد «ليونس» الإنجليزى بصدد استدعاء مجلس النواب المصرى (وموعده ١٨٨١/١٢/٢٤) : «قلبى يمتلئ رعبا، ليس من الممكن الحذر والتخمين على ماعساه يقرره الحزب الوطنى، ومن الجائز أن يمتد إلى تقرير طريقة مختلفة تخالف مصالح الأوربيين. لا أجد وسيلة للاحتياط لمنع نهضة جديدة أفضل من إفهام المصريين أن انكلترا وفرنسا لايمكنهما أن يحتملا شيئا من هذه المطالب ولا تلك النزعات » . (محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام، جـ ١، ص٣٩)

وقد عبرت هذه الكلمات عن نزعة هذا الاستعمارى فى معاداة الحركة الوطنية المصرية على طول الخط، فهو زعيم حزب الإنعاش القومى فى فرنسا والإنتقام لبلاده من هزيمتها على يد ألمانيا فى عامى ١٨٧٠-١٨٧١، ومن ثم كان اتجاهه إلى تقوية مركز فرنسا فى الخارج بتشديد قبضتها على شمال إفريقيا وتقوية علاقاتها بانجلترا دون أن يسمح لهذه الأخيرة بتفوق نفوذها فى مصر على حساب النفوذ الفرنسى، وكان من رأى غمبتا أن أوربا بوجه عام وفرنسا بوجه خاص لا تصنع الديموقراطية للتصدير، ولهذا كان ينظر إلى الحركة الوطنية الدستورية فى مصر بعين الاحتقار ويعتبرها «تعصبا إسلاميا» و «أوهاما ثورية» و «عصيانا عسكريا» بحيث كان يفسر مبدأ (مصر للمصريين) بأنه لا يعنى سوى أن مصر لانجلترا . (أحمد عبد الرحيم مصطفى: مصر والمسألة المصرية ، ص٧٧) .

وإذا كان غمبتا يهوديا، فقد كان متصلا بالمصالح المالية فى بورصة باريس، وكذلك ذا صلة متينة ببيت روتشيلد وغيره من أصحاب الأموال الذي اشتروا بملايينهم سندات الدين المصرى . وكان نوبار باشا ورفرز ولسون يعيشان يومئذ فى باريس، فكانا أخص من ينتصح بآرائهما فى المسألة المصرية، وقد كون رأيه فى الموقف بناء على المعلومات التى يستمدها منهما، فلم تمض بضعة أيام فى الوزارة حتى أخذ يفاوض وزارة الخارجية البريطانية ابتغاء

حمل انجلترا على الاشتراك مع فرنسا فى القيام بعمل عنيف ضد الحركة الوطنية يكون بمثابة حملة صليبية تقوم بها الدولتان تحت ستار الدفاع عن المدنية وتنظيم مالية مصر، وبهذا تنجح اليهودية العالمية فى التخفى وراء ستائر أخرى تكون مقبولة نوعا ما أمام العالم، بينما هى تحقق أهدافا صهيونية بالدرجة الأولى .

ونتيجة لهذه الجهود، توجه سير ادوارد مالت، معتمد انجلترا فى مصر فى ٨ يناير سنة ١٨٨٢ ومسيو سفنكس، المعتمد الفرنسى مجتمعين إلى سراى عابدن وقدما إلى الخديوى مذكرة مشتركة من الدولتين مؤرخة فى ٧ يناير عام ١٨٨٢ مكتوبة بصيغة رسالة برقية من وزارة خارجية كل منهما إلى معتمدها فى مصر وأبلغاها إلى شريف باشا رئيس مجلس النظار . ونحن إذ نأتى إلى هذه المذكرة نشعر بدهشة كبيرة لما أورده عنها أحد الباحثين بغية تأكيد وجهة نظره فى التشكيك فى الثورة العرابية، فما ذكره عن المذكرة المشتركة يختلف تماما مع وقائع التاريخ وأحداثه :

فلم يحدث أن دعا غمبتا فى هذه المذكرة المصريين إلى أن يقفوا موقفا موحدا ضد الخديوى، ولم يحدث أن دعت هذه المذكرة الخديوى أن يرتمى فى أحضان الإنجليز لسبب بسيط هو أن المذكرة كانت (مشتركة) بين انجلترا وفرنسا .

ونظرا لما رتبه باحثنا من أحكام ونتائج خطيرة على هذه المعلومات غير الصحيحة، لابد أن نسوق نصها فيما يلى : (جمهورية مصر : القضية المصرية، ١٩٥٥، ص١)

«كلفتم غير مرة بأن تنهوا إلى علم الخديوى وحكومته إرادة فرنسا وانجلترا وعزمهما على تأييده للتغلب على الصعوبات المختلفة التى تعترض انتظام الشئون العامة فى مصر .

ان الحكومتين على تمام الاتفاق فى هذا الصدد، وأن الحوادث الأخيرة، وبخاصة الأمر الصادر من الخديوى باجتماع مجلس النواب، قد هيأت الفرصة لتبادلهما الأراء مرة أخرى فى هذا الشأن ، فالمرجو أن تبلغوا توفيق باشا بالاشتراك مع سير ادوارد مالت الذى كلفتم به، بأن الحكومتين الفرنسية والانجليزية تعتبران أن تثبيت الخديوى على العرش طبقا لأحكام الفرامانات التى قبلتها الدولتان رسميا هو الضمان الوحيد فى الحال والاستقبال لاستتباب النظام ولتقدم سعادة مصر ورفاهيتها التى يهم فرنسا وانجلترا أمرها، والحكومتان متفقتان تمام الاتفاق على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التى قد تهدد النظام والأخطار التى يمكن أن تتهدف لها حكومة الخديوى، ومن المحقق أن هذه الأخطار ستلقى من فرنسا وانجلترا اتحادا وثيقا للتغلب عليها، وتعتقد الحكومتان أن سمو

الخديوى يجد من هذه التأكيدات الثقة والطمأنينة والقوة التى هو فى حاجة إليها لإدارة شئون الشعب المصرى والبلاد المصرية» .

إن القراءة البسيطة لهذا النص تجزم بعدم صحة قول باحثنا : « تصور أن غمبتا هذا يدعو المصريين مدنيين وعسكريين إلى أن يقفوا موقفا وطنيا وموحدا وضد الخديوى» و «هذه المذكرة أصابت الخديوى بالرعب، صمم على أثرها على ارتماء فى أحضان الإنجليز» .

وبتأمل هذه المذكرة يمكن ملاحظة ما يأتى :

١- ذكرت المذكرة السبب المباشر الذى اتخذه غمبتا مبررا للتخاطب مع الحكومة الإنجليزية بشأن هذه المذكرة المشتركة وهو دعوة مجلس النواب للاجتماع، ولم يكن هناك مبرر للخوف منه على الاتفاقات المالية والمعاهدات الدولية القائمة، فقد أكد الخديوى احترامه فى خطبة العرش التى تلاها بنفسه يوم افتتاح المجلس فى ١٨٨١/١٢/٢٦، ثم أكد النواب فى جوابهم الذى أعدوه فى ١٢/٢٩ على خطبة العرش احترامهم للاتفاقات المالية والمعاهدات الدولية (محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان، ص١٩٥) .

٢- يدل ذكر «المشاكل الداخلية والخارجية» على خوف فرنسا من تدخل الباب العالى - مشاكل خارجية - ثم خوفها من انتصار العسكريين - مشاكل داخلية - ، كذلك انطوت الإشارة إلى أن هذه المشاكل «قد تهدد النظام القائم»، على تحد للرغبات الوطنية التى تريد تحقيق آمال دستورية عريضة بتوسيع اختصاصات مجلس النواب، ثم إن عبارة «ومن المحقق أن هذه الأخطار ستلقى من فرنسا وانجلترا اتحادا وثيقا للتغلب عليها»، حملت معنى أن هاتين الدولتين سوف تتدخلان تدخلا فعليا قد يكون فيه أو قد يجر إلى الاحتلال المشترك، وفى هذا تحقيق لسياسة غمبتا .

٣- تنطوى الفقرة الأخيرة على تشجيع الخديوى على اتباع أية خطوة يريدها نحو تعطيل أمانى البلاد إزاء الحزب العسكرى .

ولما كانت الدولتان قد تقدمتا بمذكرة أخرى فى ٢٥ مايو من نفس العام ١٨٨٢، فإنه من الأفضل أيضا قراءتها لأننا لن نجد فيها ماذكره باحثنا، فضلا عن أن غمبتا كان قد استقال وحلت محله وزارة (فريسينيه)، تقول المذكرة:

«إن قنصلى فرنسا وبريطانيا العظمى الموقعين على هذا يحيطان علم عطوفتكم بأنه من حيث أن عاطفة الوطنية حملت سلطان باشا رئيس مجلس لنواب وكذا رغبته فى تأييد سلم مصر ورفاهيتها على عرض الشروط الآتية على عطوفتلو محمود سامى البارودى رئيس مجلس

النظار، إذ رأى انها الوسيلة الوحيدة لوضع حد لحالة الاضطراب فى مصر، وهذه الشروط هى:

١- إبعاد سعادة عرابى باشا مؤقتا من مصر مع بقاء رتبته ومرتباته .

٢- إرسال كل من على باشا فهمى وعبد العال باشا إلى داخل مصر مع بقاء رتبتهما ومرتباتهما .

٣- استقالة الوزارة الحالية .

قد رأينا أن هذه الشروط لمافيها من روح الاعتدال تمنع المصائب التى تستهدف مصر لها، فهما باسم حكومتيهما، وبتفويض منهما، ينصحان حضرة رئيس مجلس النظار وزملاءه بقبولها، وعند الاقتضاء يشترطان تنفيذها، وليس لحكومتى فرنسا وانجلترا غاية من التدخل فى شئون مصر سوى حفظ الحالة الحاضرة Status Quo ، وبالتالى أن يعيدا للخديوى للسلطة المختصة به، إذ بدونها يخشى على هذه الحالة المقررة، وبما أن توسط الدولتين ليس مبنيا على حب الانتقام والتشفى، فسيبذلان الجهد فى عفو عمومى من الحضرة الخديوية وسيسهران على تنفيذ هذا العفو» .

وهكذا يتبين لنا بالفعل كيف كانت الصهيونية وراء تلك الجهود المحمومة من الرأسمالية العالمية والاستعمار لتخريب مصر وجرها إلى حظيرة الاستعباد والاستغلال ..

كما يتبين لنا أن ليس فى المذكرتين المشتركتين مايشير من قريب أو من بعيد إلى حفز المصريين للثورة على الخديوى، وإنما العكس هو الصحيح ..

كما يتبين لنا أن الخطط الاستعمارية ظلت مشتركة وبتنسيق بين انجلترا وفرنسا، ثم انسحبت فرنسا منها ليخلو الميدان لانجلترا وحدها .

وادى الدمـــــوع* !!

أغلب الظن أن القارئ لعنواننا سيتصور، لأول وهلة، أنه عنوان لقصة .

وأصارح القارئ، أنه بالفعل عنوان لقصة. إنها قصة عذاب الشعب المصرى .. لكنها ليست قصة بالمعنى المتعارف عليه بين المشتغلين بالأدب، تتوافر فيها جملة القواعد والأصول المتفق عليها .

لكننا إذ نطلق عليها وصف (قصة)، فإنما مع تجاوز وتشبيه ..

فالقصة الأدبية، بعدها الزمنى قد يكون جزءا من يوم أو بضعة أيام أو أسابيع أو سنوات.. بينما نحن هنا أمام بعد زمنى يمتد قرونا..

والبطل فى القصة الأدبية قد يكون فردا أو أسرة أو مجموعة أفراد أو شيئا ما، لكن البطل هنا هو شعب بأسره .. وهكذا

ففى مناسبات ومواقف مختلفة، عبر سنوات طويلة، كلما قلبت فى تاريخ مصر منذ أقدم عصورها، أجد تلالا من الصفحات مسطرة بدموع مصريين، إن يكونوا بالملايين، ففى أحسن الحالات، يكونون بمئات الألوف ..

سلسلة طويلة من (العذابات) نتيجة : ظلم .. استغلال .. نهب .. احتلال .. قحط .. وباء .. الخ، حتى أن الإنسان ليضرب كفا بكف متسائلا فى دهشة : كيف تأتى لهذا الشعب أن يظل رافعا راية الحياة، حاملا مشعل العمل، بعد كل هذا .. حتى الآن، والأمل ملء قلبه، والطموح يستحث خطاه إلى أمام؟!

إنها ليست عملية اجترار للآلام القومية، أو عملية لطم للخدود فى مناحة تاريخية فى صورة (جلد للذات)، ولكنها عملية استعادة لصفحات مؤلمة فى الذاكرة القومية، تنبئ كلها بأن الخطر يمكن أن يدهم هذا الشعب من أى مصدر: فالمصدر ليس خارجيا فقط، من قوة غزو واحتلال ، وإنما يمكن أن يكون من الداخل أيضا . والاستغلال والظلم لا يأتيان أبدا تحت مظلة صريحة، وإنما هما دائما يختفيان وراء راية مزيفة، باسم الدين أحيانا، وباسم المصلحة الوطنية أحيانا أخرى .. إلى غير هذا وذاك من مبررات تقوم على الغش والخداع والتزييف ..

وهى صفحات تريد أن تقول أن صلابة هذا الشعب قد لايكون هناك مثيل لها، فقد

---

* أخبار الأدب فى ١٩٩٦/٦/٣٠

انكسرت عندها كل المطارق، ليبقى هو، وبالتالى، فنحن نسعى لبذر بذور الأمل فى أنه مهما كانت الصعاب، ومهما تكاثرت المشكلات، ففى طاقة هذا الشعب أن يتجاوزها وأن يتغلب عليها ليواصل مسيرته الحضارية .

ولعلنا الآن، بعد هذه المقدمة، يمكن أن نقلب معا فى صفحات من هذه القصة .. قصة عذاب شعب مصر .. فى .. وادى الدموع !!

من الأمثال العشبية المشهورة عندنا : (يعملوها الصغار ويقعوا فيها الكبار) تعبيرا عما قد تؤدى إليه عراكات الصبية الصغار حول مسائل تافهة من عراك بين الكبار الذين هم على قدر كبير من التعقل والنضج .

لكن تاريخنا .. فى كثير من صفحاته، يشير إلى نفس هذا المثل معكوسا بحيث يصبح : (يعملوها الكبار ويقع فيها الصغار)، والكبر والصغر هنا ليس بالسن وإنما هو بالموقع والسلطة، أى أننا شهدنا صورا لا حصر لها من المعارك غير النظيفة بين القادة والحكام حول مسائل شخصية ونفعية وتصفية حسابات وخصومات ومؤامرات، لابد أن تكون نتيجتها افتقاد هذا البلد للحد الأدنى من الاستقرار الذى هو أساس لابد منه للإنتاج والعمل الجاد والازدهار الثقافى .

من أولى هذه الصور، ما حدث لمحمد بن أبى بكر الصديق الذى تولى حكم مصر فى خلافة معاوية بن أبى سفيان فى سنة ثمان وثلاثين من الهجرة، فيما يرويه ابن إياس فى (بدائع الزهور)، القاهرة، طبعة الشعب، ص ١٥ .

لقد كان محمد هذا من جملة من اجتمع على قتل الإمام عثمان بن عفان، فيما زعم وشاع، وأنه استغفر الله من ذلك .

ومن هنا فإن نفرا من الشيعة ثاروا عليه، منهم: معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد وغيرهم من الشيعة، فأتوا من الشام، فلما دخلوا إلى مصر، خرج إليهم الأمير محمد بن أبى بكر وقاتلهم قتالا شديدا . كان - مع صغر سنه - شجاعا بطلا، فكان هو وأخوه عبد الرحمن يقاتلان الشيعة ومعهما بعض العسكر، فانكسر الأمير محمد وهب واختفى فى بعض الخرابات، فلما حثوا فى طلبه، قالت لهم عجوز: «أتريدون الأمير محمد بن أبى بكر؟» فقالوا لها : «نعم» . فقالت : «أعطونى الأمان ولأخى وأنا أدلكم عليه» . فقالوا لها : «نعم» . قد أعطيناك الأمان ولأخيك. وكان أخوها يبيع الفجل فى مدينة الفسطاط، فدلتهم على مكانه .

فلما دخلوا على ابن أبى بكر وجدوه قد أنهكه العطش، فاستغاث بهم: «بالله اسقونى

شربة ماء» فكان رد معاوية بن خديج: «لا سقانى الله إن سقيتك . أنسيت منعك الماء لعثمان ابن عفان وهو محصور فى الدار»؟ فقال: «كرمونى لأجل أبى بكر»، فقال له ابن خديج: «لا أكرمنى. أنسيت مافعلته يوم قُتِلَ عثمان فلا أمان لك عندنا» .

ثم تقدم إليه معاوية بن خديج وضرب عنقه بالسيف ثم جره برجله وطاف به فى المدينة، ثم أدخل جثته فى جوف حمار ميت وأحرقه حتى صار فحما، فكانت قتلته فى رابع عشر من صفر سنة ثمان وثلاثين من الهجرة، وكانت مدة ولايته على مصر خمسة شهور، وكان له من العمر لما قتل ثمانية وعشرون عاما .

لم يكن العهد إذن قد بعد بالناس عن الإسلام، فما حدث فى السنة الثامنة والثلاثين من الهجرة، ولَمّا يمض بعد بالوالى سوى خمسة شهور !!

ونمضى لنقرأ حكاية أخرى .. هى أيضا حكاية حاكم شقى به الشعب، ودفع أبناء هذا الشعب الثمن، كما دفعوا من قبل، وكما سيدفعون من بعد ..

لما انتقلت الخلافة إلى بنى العباس، وولى عبدالله السفاح، توجه عبدالله بن على العباس إلى الشام فى طلب من بقى من بنى أمية، ثم أرسل بالقبض على الأمير عبيد الله بن مروان الحمار أمير مصر. فلما أن بلغ الأمير عبيد الله ذلك بدأ يجمع ما فى خزائنه الخاصة، أتدرون كم كان فيها؟ « ... أخذ منها عشرة الآف دينار ذهبا ثم أحضر اثنى عشر بغلا وحملها ذلك المال وشيئا من القماش والفرش وغير ذلك، وأخذ معه جماعة من العبيد والغلمان، ثم شد على وسطه خريطة فيها جواهر فاخرة مثمنة وخرج من مصر هاربا، فتوجه إلى نحو بلاد النوبة ..» ص١٨.

وعندما وصل الأمير الهارب هناك وجد مدائن خرابا وبها قصور محكمة البناء، فنزل فى بعض تلك القصور، وأمر غلمانه بكنسها فكنست وفرشت فيها فرشه وماكان معه من تلك الفرش الفاخرة ثم قال لبعض غلمانه، وكان ممن يثق بعقله : «امض إلى ملك النوبة وخذ لى منه أمانا على نفسى من القتل» .

فخرج الغلام وتوجه إلى ملك النوبة فغاب ساعة ثم عاد ومعه قاصد من عند الملك، فلما دخل عليه قال له أن الملك يقرئك السلام ويقول لك : «أجئت إليه محاربا أم مستجيرا»؟ فقال له الأمير عبيد الله: «رد عليه منى السلام وقل له : قد جاء إليك ليستجير بك من عدو يريد قتله» . فمضى ذلك القاصد بالجواب، فغاب ساعة ورجع وقال له: «إن الملك قادم إليك فى هذه الساعة» . فقال عبيد الله لغلمانه: «افرشوا ما معنا من الفرش الفاخرة» . وجعل مرتبة فى صدر المكان

برسم ملك النوبة، وجلس يترقب مجيئه .

وبينما الأمير ينتظر، جاء إليه غلامه ينبئه بمجئ ملك النوبة، فقام عبيد الله وصعد على أعلى القصر ونظر إلى ملك النوبة فإذا هو رجل أسود طويل القامة نحيف الجسد، وعليه بردان قد اتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، ومعه عشرة من السودان حوله ومعهم حراب بأسنة تلمع، فلما رآه الأمير عبيد الله، استصغر أمره واحتقره. فلما قرب من المكان الذى فيه عبيد الله، أتاه من عسكره نحو عشرة آلاف رجل من السودان فى أيديهم الحراب .

فلما دخل ملك النوبة علي عبيد الله وأحاط ذلك العسكر بالمكان الذى فيه عبيد الله ووقعت عين ملك النوبة عليه، بادر إلى يد الأمير وقبلها، فأشار إليه عبيد الله بأن يجلس على تلك المرتبة التى وضعها له فأبى وصار يدفع تلك الفرش الفاخرة برجله، فقال عبيد الله للترجمان : «لم لايقعد الملك على تلك المرتبة التى وضعناها له؟ » فقال له الترجمان نقلا عن الملك: «قل للأمير : كل ملك لا يكون لله متواضعا لله فهو جبار عنيد متكبر» !!

وكانت تلك أول صفعة، من خلال درس بسيط صغير .. لكنه كان مجرد مقدمة لسلسلة من الصفعات والدروس تنديدا بهذا النفر من الحكام الذين يقيمون حكمهم على النهب والاستغلال، وهم يحكمون تحت راية: لا إله إلا الله، محمد رسول الله !!ولنتابع معا هذا الحوار العجيب :

تساءل الملك:

- كيف سلبتم من ملككك وأخذ منكم وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم ؟ فقال الأمير :

- إن الذى سلب منا ملكنا (العباسيين) أقرب إلى نبينا منا فقال الملك :

- فكيف أنتم تلوذون إلى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ماحرم عليكم من الخمور، وتلبسون الديباج وهو محرم عليكم، وتركبون فى السروج الذهب والفضة وهى محرمة عليكم ولم يفعل نبيكم شيئا من هذا . وبلغنا أنك لما وليت على مصر، كنت تخرج إلى الصيد، وتكلف أهل القرى بما لايطيقون، وتفسدون الزرع على الناس، وتروم الهدايا والتقادم من أهل القرى .. وكل هذا من أجل كركى تصيده قيمته سبعة أنصاف أو ثمانية .

وصار الملك يعدد على الأمير عبيد الله جملة أثام وذنوب، والأمير معقود اللسان لايعرف كيف يرد، فالتهم صريحة وشهيرة ودامغة، وتأتيه من حاكم أخر لايستند إلى دين الإسلام الذى أمر بالحكم بين الناس بالعدل وحرم الاستغلال وكنز المال !!

وهكذا استمر ملك النوبة قائلا :

... فلم استحللتم ماحرمه الله عليكم، سلبتم من ملككم وأخذ منكم وأوقع الله بكم نقمة لم تبلغ غايتها منكم، وأنا أخاف على نفسى إن أنزلتك عندى أن تحل بى تلك النقمة التى حلت بكم، والبلاء عام والرحمة مخصوصة . ثم قال :

ارحل عن أرضى بعد ثلاثة أيام، وإلا أخذت جميع مامعك وقتلتك شر قتلة .

فلما سمع الامير عبيد الله ذلك خرج من أرض النوبة فى يومه فقبض عليه عمال الخليفة المنصور العباسى وبعث به إلى بغداد، فسجنه المنصور حتى مات فى السجن، وهو آخر من تولى على مصر فى دولة الخلفاء الأموية من الأمراء. وكانت ولايته على مصر فى سنة ست وثمانين من الهجرة، واستمر فى الحكم زهاء خمس سنوات .

ومن الجدير بالذكر أن كثيرين ممن ولوا أمر البلاد كانو يأتونه وهم على قدر متواضع من الثروة، ثم يغادرونها، طوعا أو كرها وخزائنهم تفيض بالأموال الوفيرة مما يقطع بأن هذه الثروة استقطعت من أقوات الناس لا لتنصرف إلى خدمة البلاد ومرافقها، وإنما لتخزن وتفيض بصور خيالية من الترف على (الناس اللى فوق) ويظل (الناس اللى تحت) يتجرعون مرارة العيش !!

وإذ تزداد دولة الإسلام رسوخا وتقوى شوكتها سواء على المستوى العام للدولة ككل، أم على مستوى (الولايات) و (الأقاليم) تنهمر الأموال على خزائنها، فمن الحكام من يستثمر ذلك فى تعزيز القدرة المجتمعية للأمة، ومنهم يفتح قنوات هذه الخزائن على المتع الخاصة والمجد الشخصى ..

عندما تولى أحد بن طولون حكم مصر فى أواخر خلافة المتوكل، الخليفة العباسى، كان ذلك في سنة خمس وخمسين ومائتين من الهجرة . ولما دخل مصر «كان فى أضيق حال، يحتقره كل من يراه» ص ٢٦، فماذا أصبح عليه حاله عندما توفى ؟ قالوا : ص٢٩ .

«لما توفى الأمير أحمد بن طولون خلف من الأولاد ثلاثة وثلاثين ولدا، منهم سبعة عشر من الذكور، وباقى ذلك إناث . وخلف من الذهب العين عشرة الاف ألف ألف دينار، وخلف من المماليك المشتروات سبعة الأف مملوك، ومن العبيد السود أربعة وعشرين ألف عبد، وخلف من الخيول سبعة آلاف فرس، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس، وخلف من الجمال عشرة آلف جمل، ومن المراكب الحربية والشوانى ألف مركب، خلف من اللؤلؤ والجواهر واليواقيت مائة صندوق، وخلف من التحف والفرش ما لاحصى عدده ... وهذا خارج عن الضياع والأملاك والبساتين وغير ذلك» !!

صحيح أن كتب التاريخ تذكر كذلك إن ابن طولون «أخذ فى عمارة قرى مصر وعمـــارة جسورها وقناطـرها، وحفر خلجانها وسد ترعها، فاستقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه بعد ما كانت قد تلاشى أمرها الى الخراب، وانحط خراجها فى أيام من تقدمه من العمال .. «إلا أن هذا لا يمنعنا من التساؤل : ترى لو كانت مثل هذه الثروة الخاصة التى تركها الرجل قد أنفق الجزء الأكبر منها على البلاد، فكيف كان يمكن أن يكون حالها خاصة أننا نذكر بما كتب عن حال الرجل قبل أن يتولى الحكم» ؟!

ولقد عبر بعض الشعراء عن مشاعرنا، عندما توفى الرجل بهذه الأبيات التى قيلت فى رثائه:

خذ القناعـة من دنيـــاك وارض بها ... واقصد لنفسك منها راحة البدن

وانظر لمن قد حوى مصرا وماجمعت ... هل راح منها بغير القطن والكفن؟

وصاية الرأسمالية العالمية على الحكم فى مصر *

كثيرون يتصورون أن قراءة التاريخ، إنما هى (رحلة فى الماضى)، وبما أن الماضى قد ولّى وانتهى، فلا لزوم لهذا الجهد، ...

لكن هؤلاء يخطئون فى تصورهم هذا، فهناك من أحداث التاريخ ووقائعه مايمكن أن يتكرر فى صور وأشكال أخرى، لكنها تحمل نفس الفلسفة وتتجه إلى نفس الأهداف، ومن هنا فإن تميز الانسان عن غيره من الكائنات الحية الأخرى (بالوعى التاريخى)، قد أعانه على أن يكون يومه أفضل من أمسه وأن يأمل فى أن يكون غده أفضل من يومه ..

وإذا كانت الوقائع التى سنذكرها للقارئ فى الصفحات القليلة القادمة تقع «زمنيا» فى قرن (مضى)، إلا أن القارئ الذكى، يستطيع - إذا دقق جيدا فيما يمر به من أحداث اليوم، سيجد أنه أمام نفس (الأعداء) .. وأمام نفس (المؤامرات) ..

ولنرجع الى البداية ...

كان بيع أسهم قناة السويس عام ١٨٧٥، هو آخر الموارد التى استنزفتها حكومة الخديو إسماعيل للحصول على المال، ولم تتمكن من عقد قروض بعد ذلك. وبدأ إسماعيل فى مستهل هذه الفترة يشعر بالكارثة من جهة والحاجة إلى العلاج من جهة أخرى، فلجأ إلى الاستعانة بخبراء فى الشئون المالية . لكن من أى مصادر ؟ من نفس المواقع التى تحاك فيها عمليات التآمر على البلاد ونهب خيراتها، وهكذا عندما يعمى الحاكم عن تحديد (الأعداء) و (الأصدقاء) الحقيقيين .. يفتح الطريق واسعا أمام البلاد للتردى إلى هوة الجحيم ...

وطلب الخديو من انجلترا وفرنسا خبراء لتقديم آراء يمكن الانتفاع بها فى حل الأزمة التى استحكمت فى موارد البلاد. وسرعان ماتنافست البلدان فى هذا الميدان، وتسابقت كل منهما إلى تقديم الخبراء حتى تسبق كل الأخرى فى التدخل فى شئون البلاد بحجة المحافظة على مصالح رعاياها من الدائنين[١]. وقد أدى هذا إلى أن تشهد البلاد فى فترة قصيرة - وهى الفترة الأخيرة من حكم إسماعيل - كيف بدأت الرأسمالية الأجنبية تقطف ثمار مازرعت.. قدمت القروض تلو القروض، وها هى اليوم تتقدم لتمسك بيدها موارد البلاد المالية وتتحكم فى سلطتها . وبدأت البلاد تشهد الخبراء الماليين من انجلترا وفرنسا لدراسة أسباب الأزمة

---

* مجلة اليقظة العربية، نوفمبر ١٩٨٨ .

والكشف عن عواملها حتى يمكن علاجها، وفرضت عليها نظما وتقاريرا أجنبية تسير البلاد على هديها، وشاهدت إفلاس الدولة فى ماليتها وعجزها عن متابعة الإنفاق والسير بأحوال البلاد للوصول إلى الحكم الصالح، وشهد التاريخ الدولة نفسها تسلم مواردها المالية وتخسر المعركة الاقتصادية بإنشاء إدارات حكومية يشرف عليها الأجانب، بل إن البلاد وافقت مرغمة على زحف الأجانب إلى كراسى الحكم والوصول إلى منصب الوزراء[٢].

وكانت أول خطوة فى هذا الطريق، وصول لجنة (كيف) CAVE بعد صفقة الأسهم مباشرة، تلك اللجنة التى يؤكد (بلنت) أنها من عمل إسماعيل «بلاجدال»، وكان الغرض منها، كما جال بخاطره عند طلبها، أن يستمر استخدام المنجم الجديد الذى اكتشفه، منجم المساعدة السياسية الإنجليزية (التى لم يدرك مرماها البعيد) لعقد قروض أخرى . وتحقيقا لهذه الفكرة، أراد الحصول على شهادة رسمية فى شكل تقرير ينشر على الملأ بأن حالته المالية لاتزال بعيدة عن الارتباك، وأنه مابرح قادرا على تسديد ديونه لتفتح البورصات الأجنبية أبوابها له من جديد، فمن أجل هذا طلب إسماعيل إلى الكولونيل ستاونتون إرسال لجنة إنجليزية[٣] .

وقد أصابت مناورته قسطا كبيرا من النجاح، وكان المستر (كيف) الذى عينته الحكومة الإنجليزية لرياسة اللجنة رجلا مستقيما .. هكذا يقول مستر (بلنت) .. ولكنه لقلة خبرته بشئون الشرق، كان من السهل أن يخدع. ثم إنه كانت تنقصه الشجاعة اللازمة لمعالجة جميع الحقائق بالجرأة التى يتطلبها الموقف. وكان إسماعيل، كسائر المبذرين، حريصا على إخفاء بعض حساباته عندما جاء دور الخوض فيها، فبمساعدة إسماعيل صديق، قدم للمستر كيف ميزانية خيالية لم يتردد هذا الأخير فى قبولها . وزاد على ذلك أن ذر فى عينه الرماد فيما يتعلق بحالة الضنك التى كان الفلاحون يرزحون تحتها . وكانت خطته أن يحيط كبار الزوار الماليين الذين يريد إيقاعهم فى شراكه بمظهر الثراء والبذخ، ولذلك قوبلت اللجنة بكل حفاوة وطاف بها مندوبوه إلى حيث وضعت المعدات اللازمة .

ومن هنا كان تقرير (كيف)، عند نشره، بمثابة وصف لبعض الحقائق فحسب[٤]، إذ قال: «... يتبين من هذا الحساب أن موارد مصر إذا أحسنت إدارتها، قامت بسداد الديون المصرية . ولكن لما كانت الموارد التى يمكن الانتفاع بها مقصورة على دفع أرباح القروض الحاضرة، كان لا مناص من تسوية جديدة تحول الدين السائر الفادح إلى دين ثابت ذى فائدة معتدلة . إن فى وسع مصر أن تحتمل جميع ديونها الحاضرة متى كانت ذات فائدة معقولة، ولكن ليس فى وسعها أن تمضى فى اقتراض ديون جديدة سائرة فائدة ٢٥٪ وعقد قروض ١٢ او ١٣٪

لتسديد هذه الديون الجديدة[٥]» . ويعلق بلنت على هذا التقرير فيقول : « وأظن أنه كان فى استطاعة كيف، لو أن خلقه كان أقوى مما هو، أن يتشبث بالحقيقة التى كانت وراء كل صعوبات مصر المالية ألا وهى أن ديون اسماعيل كانت شخصية لا عمومية فى عرف العدل ، بل فى عرف القانون وأنها يجب أن تحل على هذا الاعتبار»[٦] .

ولكى نقف على مدى ما أدت إليه هذه القروض من فرض وصاية الرأسمالية الأجنبية على هيكل البلاد الاقتصادى، يكفى أن نعرف أن الحكومة أصدرت فى ٢ مايو سنة ١٨٧٦ أمرا عاليا بإنشاء صندوق الدين تشرف على إدارته لجنة من الأجانب يعينهم الخديو بناء على ماتعرضه الدول صاحبة المصالح فى هذا الصدد، وجعل اختصاص هذه اللجنة الإشراف على تسلم الإيرادات المخصصة للدين. وقد خصص لدفع أقساط الدين واستهلاكه إيرادات مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط، وعوائد الدخولية فى كل من القاهرة والإسكندرية، وإيراد جمارك الإسكندرية والسويس ورشيد ودمياط والغربية، وإيراد السكك الحديدية ورسوم الدخان، وضريبة الملح ومصائد الاسماك، ورسوم الكبارى، وإيراد كوبرى قصر النيل، وإيراد اطيان الدائرة السنية . وقضى الأمر بأن الموظفين الذين عهد إليهم بتحصيل الإيرادات، عليهم أن يوردوها إلى صندوق الدين، ويقدر مجموع هذه الموارد المذكورة بمبلغ ٦ر٤٧٥ر٢٥٦ جنيه إنجليزى، ويدخل فى ذلك المبلغ الذى قرر على الدائرة السنية ومقداره ٦٨٤ر٤١١ جنيه إنجليزى[٧]. ولا شك أن هذه الموارد المختلفة التى خصصت لاستهلاك هذا الدين قد شملت موارد الخزينة المصرية، وارتبكت بها أحوال البلاد المالية، وعطلت تنفيذ الإصلاحات المختلفة، وزعزعت الثقة المالية بين الأفراد فى المعاملات وجعلت السوق التجارية مضطربة، وأتاحت الفرصة للذين ينتهزون الفرص من الأجانب أن يجنوا ثمار أفعالهم وينجحوا فى مناوراتهم .

وقد قضت الحكومة على نفسها فى هذا الأمر بانه لايحق لها أن تتخذ أى إجراء بشأن تخفيض الموارد السابقة (وبخاصة لضرائب العقارية) إلا بعد موافقة لجنة صندوق الدين، على أن تكون المحاكم المختلطة هى المختصة بنظر كل الدعاوى التي يرفعها الصندوق على الإدارة المالية حفظا لمصالح الدائنين . وكان صندوق الدين أول هيئة رسمية لحل الأزمة المالية، وينطوى وجودها على اعتراف الدولة بالتدخل الأجنبى فى شئون مصر المالية والإدارية، إذ أصبح لها سلطة واختصاصات واسعة المدى فى جباية الإيرادات وفرض الضرائب وغير ذلك من أنواع ممارسة اساليب السيطرة الاقتصادية[٨] .

وتوالت بعد ذلك التسويات ولجان التحقيق والتفتيش والخبراء مثل (غوشن وجوبير)[٩]

التى توصلت إلى تسوية جديدة أقرب إلى وجهة النظر البريطانية، يدل على ذلك ما لجأت اليه انجلترا من التهديد الخفى عن طريق قنصلها فى القاهرة. وفى هذا يقول المستر MC COAN إنه «لمن الغريب جدا أن تكون حالة المالية المصرية هى الحالة الخارجية الوحيدة التى أوجبت تدخل وزارة الخارجية البريطانية، فإنه فى نفس السنة التى شدّت فيها أزر إرسالية المستر غوشن والمسيو جوبير الشد كله الذى يمكن إبداؤه بكيفية ملائمة، كان يوجد لا أقل من سبع عشرة دولة مفلسة فى جدول نقابة حاملى الأسهم الخارجية الأسود، وبلغت الديون المطلوبة منها ٤٠٠ مليون جنيه، ومع ذلك لم يرد مطلقا أن الحكومة البريطانية أبدت على أحدهن احتجاجا ولو برسالة قنصلية فى مصلحة المقرضين»(١٠) .

وأدى تنفيذ الحكومة المصرية لمقترحات بعثة غوشن وجوبير إلى فرض مراقبة ثنائية من انجلترا وفرنسا على كل الإيرادات والمصروفات، وكان ذلك بمقتضى مرسوم صدر فى ١٨٧٦/١١/١٨، وعين إذ ذاك رقيبان أوربيان باسم (مفتشين عموميين) وهما المستر رومين ROMAINE مراقبا إنجليزيا على الإيرادات، والبارون دى مالاريه DEMALARET مراقبا فرنسيا على المصروفات. فلما تألفت وزارة نوبار باشا في ١٨٧٨/٨/٢٨ وفيها وزيران أوربيان، أوقف العمل مؤقتا بنظام الرقابة الثنائية اكتفاء بالوزيرين الأوربيين، على أن تعود الرقابة إذا فصل أحد الوزيرين الأجنبيين من غير موافقة حكومته، وبالفعل عادت المراقبة مرة أخرى فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩(١١) .

ويذكر ميلنر فى كتابه(١٢)، أن الدولتين اللتين فرضتا المراقبة الثنائية لم تكونا مستعدتين لمنح الحكومة المحلية أية مساعدة مادية، ولوحدث ذلك لربما قبل المصريون المراقبة الثنائية باعتبارها مصدرا لتحسين أحوالهم - حسب رأى الكاتب - ولكنها على العكس من ذلك، سرعان ماتبينوا أن موارد البلاد طبقا لنظام الحكم الثنائى، قد كرست لخدمة الدائنين دون أدنى اهتمام برفاهية الأهالى، فانجلترا وفرنسا كانتا باستمرار تعرقلان جهود الحكومة المصرية بالاعتراض على أى إصلاح تشريعى أو إدارى من شأنه أن يمس مصالح الدائنين الأجانب، وفصل الموظفون المصريون وحل محلهم أجانب يتقاضون مرتبات عالية ولايتقنون لغة البلاد، وفى كثير من الحالات لايصلحون لشئ إلا استلام رواتبهم(١٣) .

ويؤيد هذا الرأى (زايد)(١٤)، فقد ذهب إلى أن سنة ١٨٧٧ - ١٨٧٨ كانت أسوأ السنين التى مرت بالمصريين

يضاف إلى ماسبق، أن الدين لعب دوره فى الفشل النهائى للحكم الثنائى، فمن حيث

المبدأ ،لم يكن المصريون المسلمون يشعرون بأية ثقة فى أوربا المسيحية ، فى الوقت الذى كانت فيه روسيا تهدد الدولة العثمانية - أقوى الدول الإسلامية - بالانهيار، وفرنسا تقمع بوحشية مقاومة الجزائريين ومن هنا بدا أن الغرب المسيحى قد بدأ حربا صليبية جديدة وإن تكن هذه المرة قد اتخذت شكلا اقتصاديا إمبرياليا، وهدفها إخضاع العالم الإسلامى لأوربا(١٥) .

وقد تعددت صور الاستغلال وسوء الحكم والتوجيه فى ظل هذه المراقبة، فمن ذلك أن شركة إنجليزية يرأسها (دوق سذرلاند) حصلت برغم ارتفاع الأجر الذى طلبته على اتفاق برى مديرية البحيرة بالآلات الرافعة مع وجود القناطر لكبرى التى بناها محمد على والتى كان فى الإمكان الانتفاع بها في هذا الغرض !! ومنه أيضا جعل بيع الملح احتكارا وقصره على شركة إنجليزية دون شركة فرنسية ضمانا لمصالح الإنجليز الذين يستوردون الملح للهند . ومنه أيضا أن شركة فرنسية أخرى فرضت على الحكومة أن تدير الأسلاك البرقية على أسلاك تونس والجزائر، وتخفض نظير ذلك أجرة الكلمة من فرنكين إلى خمسة وعشرين سنتيما، وأن الحكومة رفضت منحها ذلك الامتياز وفضلت بقاء تلك الرسوم العالية لأن ذلك فى مصلحة شركة التلغرافات الشرقية الانجليزية(١٦) .

وعناما تكونت لجنة تحقيق دولية، صدر الجزء الأول من تقريرها فى أوائل سنة ١٨٧٨، وكان قاسيا فى حكمه على الإدارة المصرية حاسما فى الإجراءات التى يشير بها . ويتلخص التقرير فى استنكاره أداة الإدارة المصرية من حيث سيطرة الخديو المطلقة، وانعدام التفرقة بين أمواله وأموال الدولة، ويقترح تنازله عن سلطته المطلقة لوزارة مسئولة فيها عناصر أجنبية وقبوله مرتبا ثابتا وتنازله فى مقابل ذلك عن أملاكه وأملاك أسرته ... وأسرع إسماعيل إلى القبول، وتألفت فى ١٨٧٨/٨/٢٨ وزارة نوبار التى دخلها ولسون وزيرا للمالية والمسيو دى بلينير للأشغال . ولما زاد الاستياء الشعبى من هذا الوضع ودعى شرف باشا لتأليف وزارة وطنية أثارت ثائرة الأجانب بسبب هذا العمل، فسارعت لجنة التحقيق إلى نشر تقريره، وأهم ما فيه(١٧) :

١-بيان أن مصر فى حالة إفلاس منذ سنة ١٨٧٦ .

٢- مطالبة الخديو بخفض مخصصاته السنوية .

٣- إعادة مسح الأراضى الزراعية وإلغاء التمييز بين الأراضى الخراجية والعشورية من حيث نوع الضرائب .

٤- عدم المطالبة بما تبقى من (المقابلة) وإلغاء الامتيازات التى منحها القانون الصادر بذلك من قبل .

٥-التنازل عن متأخرات الضرائب وإعفاء المزارعين من ضريبة المهن وإلغاء ضريبة الرؤوس وعوائد الدخولية والطرق (فى الأرياف) والأسواق وغير ذلك من الضرائب مما تبلغ حصيلته ٤٠٠ر٠٠٠ جنيه .

٦- خفض سعر فائدة الديون إلى ٥٪

وقد عرض مشرع اللائحة التى تحدد سلطة الرقيبين على مجلس الوزراء بعد عودة نظام المراقبة الثنائية، فجاء مشروعا هادما لسلطة الحكومة الأهلية يجعل للقريبين من النفوذ والسلطان أكثر مما لوزراء الدولة، ولهما الحق فى حضور جلسات مجلس الوزراء وسائر الموظفين يكلفون بتقديم كل ما يطلبه منهم الرقيبان من البيانات، وإلى وزير المالية خاصة أن يقدم لهما فى كل أسبوع كشفا مفصلا عن إيرادات الخزينة العامة ومصروفاتها، وكل إدارة مكلفة بتقديم مثل هذا الكشف كل شهر، ويتقاسم الرقيبان النظر فى المصالح العمومية التى لهما مراقبتها والإشراف عليها، أى جميع مصالح الحكومة . ولا يحق للحكومة عزلهما إلا بموافقة حكومتيهما . وقد صدر المرسوم بوضع هذا النظام فى ١٨٧٩/١١/١٥[١٨] .

وقد كان من شروط عقد امتياز قناة السويس، أن تستولى مصر على ١٥٪ من أرباح الشركة السنوية. وكانت هذه الحصة مرهونة لبعض الماليين الفرنسيين منذ أيام إسماعيل . وفى ١٤ يناير سنة ١٨٨٠، عرض المراقبان الأجنبيان (السير افلن بارنج («لورد كرومر»، والمسيو بلينير) على مجلس النظار اقتراحا ببيع هذه الحصة بحجة أن الحكومة لاتستطيع أن تسدد مبلغ (الرهن) مقابل ٧٠٠ر٠٠٠ جنيه . وقد أيد كرومر إبرام الصفقة ودافع عنها، وكانت وجهة نظره أن الحكومة المصرية لا تستطيع الوفاء بدين النقابة التى ارتهنت هذه الحصة، فأولى بها أن تبيعها . ولم يخف على رياض باشا خطر هذه الصفقة، إذ صرح فى الجلسة أن لها جانبا سياسيا لأن الحكومة إذا باعت حصتها فى الربح، فلا يبقى لها أى حق مادى فى قناة السويس، مع إن القناة قائمة فى أرض مصر . على أنه مع هذه الملاحظة، لم يعارض فى إبرام الصفقة. بل سوغها بحجة الضرورة إليها . وانتهت الجلسة بإقراره مقابل ثمن بخس مقداره (٢٢) مليون فرنك، وهى بلا شك صفقة خاسرة لأن قيمة هذه الحصة كانت قد وصلت فى بعض السنوات إلى عشرين مليون جنيه، وكانت تغل إيرادا سنويا لايقل عن ٨٦٩ر٠٠٠ جنيه، أى أكثر من الثمن الذى بيعت به الحصة كلها .

وهكذا تاكد لدى الوطنيين أن حكومة رياض باشا التى تألفت فى ١٨٧٩/٩/٢١ - (وكانت الوزارة الوطنية أو الشريفية قد استقالت عقب ولاية توفيق وألف محمد شريف وزارة

جديدة فى ١٨٧٩/٧/٣ لم تلبث أن استقالت أيضا، وألف محمد توفيق وزارة برياسته هو نفسه فى ٨/٢٨ لم تمكث إلا أقل من شهر جاءت بعدها وزارة رياض باشا هذه) - نقول، تأكد لدى الوطنيين أن حكومة رياض باشا هذه قد قبلت «الحماية» الإنجليزية الفرنسية عندما شاهدوا رئيس الوزارة يتعاون تعاونا وثيقا مع (المراقبة) أو أداة (الجماية)[١٩] .

وفى أبريل سنة ١٨٨٠ صدر ديكريتو بتكوين لجنة دولية سميت «لجنة التصفية» برياسة السير «ريفرز ولسون» وعضوية مندوبى الدول فى صندوق الدين ومندوب فرنسى آخر (إذ كان فى اللجنة عضوان إنجليزيان ومندوب ألمانى ومندوب مصر (بطرس غالى باشا) . وكان الغرض من تكوين لجنة التصفية هو تحديد علاقة الحكومة المصرية بالدائنين، وتحديد الإيرادات التى يجب أن تخصصها الحكومة لدفع فوائد الدين وأقساط[٢٠] . وقد اجتمعت لجنة التصفية ودرست حالة المالية، وكان الأساس الذى بنى عليه عمل اللجنة هو تقرير لجنة التحقيق . وقد وضعت اللجنة قرارات عرضتها على الخديو، فأصدر بها قانونا يعرف بقانون التصفية فى ١٨٨٠/٧/١٧ .

وتعطى أحكام القانون صورة واضحة على مدى ما تردى إليه حال اقتصاديات البلاد الرسمية وكيف أصبحت فريسة تنهش فيها الرأسمالية وفق قانون رسمى !! فمن أحكام القانون، تحديد نفقات الحكمة السنوية بمبلغ ٤ر٨٩٧ر٨٨٨ جنيه فقط من الايرادات، وما بقى (يزيد على النصف) يخصص للدين العام[٢١] . كذلك قرر القانون إدماج الديون السابقة التى عقدتها الحكومة المصرية فى ظروف وتواريخ مختلفة فى دين واحد قسم (مع استثناء الدين السائر) إلى أربعة أنواع : الدين الممتاز، الدين الموحد، دين الدومين، دين الدائرة السنية . ووضع النوعان الأخيران تحت إشراف إدارتين خاصتين تقومان بإدارة أراضى الأسرة الحاكمة المخصصة لخدمة الدائنين واستهلاكهما بالمتحصل من تأخيرها وبيعها، أما الموحد والممتاز، فقد وضعا تحت إدارة صندوق الدين مباشرة، وخصصت للأول إيرادات سكك حديد الدولة والتلغرافات وميناء الاسكندرية، وفى حالة عدم كفاية هذه الإيرادات لذلك تضمن بالأفضلية بالإيرادات المخصصة للدين الموحد، ويخصص للدين الموحد المتحصل من الضرائب المفروضة على مديريات الغربية والمنوفية وأسيوط، فإذا لم تكف هذه الإيرادات، فعلى الحكومة أن تدبر النقص الذى يحل[٢٢] .

وقد حدد القانون طريقة استهلاك الدين الممتاز، أما الموحد، فلم ينص على استهلاكه، كذلك قرر القانون اقتراض مبلغ ٥ر٦٠٠ر٠٠٠ جنيه يضاف إلى الدين الممتاز الذى أصبح بذلك

٠٠٠ر٥٣٠ر٢٢ جنيه ! ثم إلغاء المقابلة مع دفع تعويض لدافعيه بمعدل ٠٠٠ر١٥٠ جنيه سنويا لمدة خمسين سنة، وأخيرا قرر القانون تقسيم ميزانية الدولة إلى قسمين :

١- إيرادات خاصة بالحكومة بخدمة الدين ويحصل عليها صندوق الدين مباشرة .

ب- إيردات خاصة بالحكومة وتحصل عليها نظارة المالية مباشرة .

فاذا أربت الأولى على المقدار المقدار المطلوب، احتفظ الصندوق بهذه الزيادة، أما إذا جاوزت إيرادات القسم الثانى المبلغ المقدر لمصروفات الحكومة، تحولت الزيادة إلى صندوق الدين[٢٣] .

وقد أصبحت الديون عقب هذه التصفية كما يلى[٢٤] :

الدين الممتاز	٨٠٠ر٦٢٩ر٢٢	بفائدة قدره	٥٪
الدين الموحد	٣٢٦ر٠٤٣ر٥٨	بفائدة قدرها	٤٪
دين الدائرة السنية	٨٠٤ر٥١٢ر٩	بفائدة قدره	٤٪
دين الدومين	٠٠٠ر٥٠٠ر٨	بفائدة قدرها	٥٪

ويقول الرافعى معقبا على هذا القانون أنه كان مجحفا، فرضته الدول الأوربية على الحكومة المصرية لتسوية علاقاتها بالدائنين . وغنى عن البيان أن الروح التى أملت أحكامه، هى محاباة الدائنين الأجانب وإيثارها على مصالح البلاد وأهلها، وإرهاق المصريين فى سبيل وفاء الديون وفوائدها[٢٥] . فقد خصص القانون للدين أكثر من نصف الدخل فى الميزانية بحيث لم يبق من الإيرادات السنوية ما ينتظر أن يفى بحاجات البلاد ورواتب الموظفين، أو يكفى لإنقاذ مشاريع الإصلاح، وجعل لمصر ميزانيتين : الأولى خاصة بالدين العام، وهى تزيد عن نصف إيراداتها، وقد جعلها القانون ميزانية مضمونة بحيث إذا نقصت عن قيمة الكوبونات تلتزم الحكومة بأداء العجز، أما إذا زادت عنها، فإن الزيادة تبقى أيضا مخصصة للدين، والميزانية الثانية خاصة بنفقات الحكومة، وهذه حددها القانون بالمبلغ الزهيد، بحيث لايزيد ولو زادت إيرادات الحكومة، وإذا نقص، فلا شأن للدائنين بهذا النقص، بل يبقى المخصص لديونهم، كما فرض القانون، وفى هذا من التناقض والظلم واالستهانة بمصالح البلاد وحقوقها ما لايحتاج إلى بيان .

ولم تحفل اللجنة إلا بحقوق أصحاب الديون الأوربيين، أما ديون الأهالى، كقرض المقابلة ودين الروزنامة، فلم يحسب له فى القانون أى حساب، مع أن الأهالى دفعوا نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر١٥ جنيه فى المقابلة، وأربعة ملايين فى دين الروزنامة، وأصبحت المبالغ التى

اقترضتها الحكومة من الأهالى فى عهد اسماعيل بموجب سندات على المالية، لاقيمة لها، على خلاف الديون التى فى يد الأجانب[٢٦] .

ولم يقف الشعب مكتوف اليد إزاء هذا الإجحاف الصارخ، إذ يذكر سليم نقاش[٢٧] أنه «ظهرت عدة منشورات متباينة الأغراض والأوضاع سة ١٨٧٩ أشار فيها محرروه على الحكومة بانتهاء ما يزعمونه أنه نافع للبلاد والعباد . ومن ضمن تلك المنشورات (كراسة فرنساوية العبارة ، موسومة بمنشور الحزب الوطنى المصرى، يزعم ناشرها أنها معربة عن أصلها العربى، وقد افتتحت باثبات وجود الحزب الوطنى وإظهار حقوقه وبيان واجباته، ثم انتقل صاحبها إلى الانتقاد على الحكومة من وجه أنها لم تقم برأى الأمة، ثم اعترض على الدين الممتاز واختصاصه بالضمانة، وختم ببيان مقصد الحزب المذكور فى أربعة أبواب، الأول أن تعاد إلى الحكومة المصرية جميع الأملاك المسماة بالممتاز والخديوية والثانى، أن يلغى الحكم الصادر بتخصيص دخل السكة الحديدية للقرض الممتاز، فإن لم يرض الدائنون من الإنجليز، تعين عليهم قبول ذلك الدخل كما هو من غير أن تؤخذ بقية الفائدة لهم من الدخل العمومى . والثالث أن تكون الديون الممتازة والسائرة والمنظمة دينا واحدا مضمونا بمال الامة والبلاد بفائدة مقدارها ٤٪، والرابع، أن تقام إدارة مراقبة وطنية خصوصية موقتة يكون فيها ثلاثة من الأجانب تعينهم الدول وتقرهم الحكومة المصرية» .

إن هذه المبالغ الطائلة التى أصبح على خزانة الدولة أن تتحملها والتى حتمت أن يصب الجزء الأكبر من قنوات الإنتاج فى البناء الاقتصادى المصرى فى جيوب وخزائن الرأسمالية الأجنبية، كان لابد لها من سند يحمى وجودها، فليس يكفى أن تنشأ إدارة أوربية فى قلب الجهاز الحكومية فى مصر لتوجهه بحيث يدر المبالغ المطلوبة، فلقد أثبتت حوادث الثورة العرابية أن الشعب يمكن أن يثور ويقضى على هذه الإدارة وتصير الأموال إلى أصحابها الذي امتصت دماؤهم .. دم العمال والفلاحين المصريين، ومن ثم كان من الضرورى فى تخطيط الامبريالية العالمية – أن تتقدم جنودها لتعم السيطرة الاقتصادية ولتوجه الموارد الاقتصادية الاتجاهات التى تريدها، وهذا ماحدث فعلا بالاحتلال الانجليزى عام ١٨٨٢، يؤيد ذلك ماذكره (بلنت) من أن الذى جعل جلادستون ينتهى إلى قرار وخطة معينة (لاحتلال مصر) فى يونية سنة ١٨٨، هو احتجاج بعض المدن الصناعية فى شمال انجلترا على توانيه فى معالجته المسألة المصرية، وأن هذا التوانى قد عاد بالضرر على مصالح هذه البلاد التجارية، وكان هذا الاحتجاج، يستعمله (تشمبرلن) للضغط والتأثير على جلادستون ودفعه إلى إحداث ماحدث[٢٨] .

الهوامـــش

١- أمين مصطفى عفيفى عبدالله : تاريخ مصر الاقتصادى والمالى، القاهرة، الأنجلو المصرية، ط٢، ص٣٥٧

٢- المرجع السابق، ص٣٥٨

٣- بلنت (ويلفرد) : التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر، سلسلة اخترنا لك، القاهرة، د.ت ص٣٧

٤- المرجع السابق ، ص ٣٨

٥- روزستين (تيودو) : تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطانى وبعده، تعريب على أحمد شكرى، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٧١

٦- بلنت: التاريخ السرى، ص٨

٧- أمين عفيفى : تاريخ مصر الاقتصادى والمالى، ص ٣٦٠

٨- المرجع الاسق، ص ٣٦١

٩- Cromer (Earl of) : Modern Egypt, Macmillan, London, 1908, vol I,P.B

١٠- إلياس أيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا، القاهرة، مطبعة دار الكتب، ١٩٢٢، جـ٢، ص٣٥٤ - ٣٥٥

١١- عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى، القاهرة، ١٩٤٩، ص ٣٢

١٢- Milner,Sir Alfred : England in Egypt, Edward Arnold, London, 1926, P. 24

١٣- Farman, Elbert E: Egypt and its Betrayal,The Greefton Press, N.Y, 1908, P. 234

١٤- Zayid, Mahmud : Egypt,s Struggle Independence Khayats, Beirut,1965, P 14

١٥- أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٦٥، ص٥٥

١٦- روزستين : تاريخ مصر قبل الاحتلال وبعده، ص ٢١٢

١٧- راشد البراوى ومحمد حمزة عليش : التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥٤، ص ١٣٢

١٨- عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية، ص ٤١

١٩- محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان، تاريخ وحدة وادى النيل فى القرن التاسع عشر، القاهرة ، دار المعارف، ١٩٦٣، ص ١٧٩

٢٠- محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة، القاهرة، النهضة المصرية ، ١٩٥٤، ص٣٧٢

٢١- عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية ، ص٥٣

٢٢- راشد البراوى : التطور الاقتصادى فى مصر، ص ١٣٤

٢٣- محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى، ص٣٧٣

٢٤- Milner, England in Egypt, P. 181

٢٥- عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية، ص ٥٣-٥٤

٢٦- المرجع السابق، نفس الصفحة .

٢٧- سليم خليل نقاش: مصر للمصريين، الاسكندرية، مطبعة جريدة المحروسة، ١٨٨٣، جـ٢، ص ٧٦

٢٨- بلنت: التاريخ السرى، ص ٤٤٢

خمسة وخمسون شهرا فى المخبأ * !!

فى اليوم الثامن عشر من شهر ديسمبر من عام ١٩١٤ روعت مصر بإعلان الحماية البريطانية عليها . ورغم أن الانجليز كانوا يحتلون البلاد منذ عام ١٨٨٢، إلا أن مصر من الناحية الرسمية، استمرت جزءا من الدولة العثمانية، وبإعلان الحماية، انفصمت عرى هذه الرابطة وأصبحت مصر (محمية) بريطانية .

ونظرا لظروف الحرب العالمية الأولى، لم تشهد البلاد حركات احتجاج جماعية على هذا الوضع ، بل لقد استغل البعض بهذه الظروف واستساغ الأمر الواقع ، بل وساهم فيه، وجرت بعض الشئون على أيده .

ورغم قسوة الظروف، فإن مصر ماعقمت أبدا من أن تلد بنينا تحركهم الحمية وتدفعهم الوطنية للتعبير عن السخط على هذا الواقع المرير، مهما اختلفنا فى تقدير (الوسائل) التى توسلوا بها تعبيرا عن احتجاجهم، وإعلانا لسخطهم . ومن هؤلاء، شاب من أبناء المنصورة ولد بها فى يوم ٤ اكتوبر عام ١٨٩٤، وأتم الدراسة الابتدائية بها والدراسة الثانوية بالاسكندرية ثم سافر إلى الآستانة فى عام ١٩١٣ والتحق بكلية الطب الشاهانية ، وفى صيف عام ١٩١٤ عاد إلى بلدته المنصورة لتمضية العطلة الصيفية، ولكن اندلاع الحرب حال بينه وبين العودة إلى الأستانة، بل وسار فى طريق امتلأ بالأحداث الجسام التى جعلته يحتل موقعا ما على صفحات التاريخ .

فلقد أثار إعلان الحماية البريطانية وتعاون البعض مع سلطان الاحتلال ثائرة محمد شكرى الكرداوى الذى صمم على أن يكون أول فداء فى سبيل الاحتجاج الفعلى ضد الحماية ومن قبلوها، وأقدم على تنفيذ النية . واحتاج الأمر إلى شراء مسدسات والتدرب على ضرب النار، فأخذ يتجول فى الريف بحثا عن ضالته، وساعده فى ذلك ابن خالته (عبد الحميد افندى إسماعيل)، واشترى له عددا من مسدسات لا بأس بها، ولكنه من الطراز القديم، وتردد على بلدة بيلا غربية، وأطلق كثيرا من الطلقات من المسدسات والبنادق فى فترات مختلفة بمعاونة شخص آخر اسمه (عبد الرحمن أفندى النشاوى) عرفه به ابن خالته المذكور .

وسافر الكرداوى إلى القاهرة قبيل تتويج السلطان حسين كامل لضربه بالرصاص يوم

---

* مجلة الهلال فى مايو ١٩٨٥ .

التتويج وأقام بطرف أحد معارفه وترك المسدسات بمنزله، إلا أن هذا أرسل إلى أسرة الكرداوى يخبرهم في خطاب بالنية المبيتة، فأسرع أخو شكرى إلى المجئ إلى القاهرة ومعه بعض الأقارب بهدف إثنائه عما ينوى فعله، وفى سبيل ذلك هددوه بإبلاغ البوليس إذا لم يعد معهم فى الحال، واضطر تحت الضغط أن يرضخ لهم مؤقتا، وعاد إلى المنصورة، متحينا فرصا أخرى لتنفيذ ماعقد العزم عليه .

وكان لشكرى ابن عمة يسمى (محمد محمد خليل) يشاركهم المعيشة منذ وفاة والده كعادة أهل الريف فى مصر حتى وقت قريب فى ظل مفهوم الأسرة الممتدة . وكان ابن عمته هذا بسيط التعليم ينظر إلى شكرى، الطالب فى إحدى المدارس العليا نظرة ملؤها الإعجاب والتقدير ، إلى الدرجة التى كانت تجعله يقع تحت تأثيره والانقياد إلى مايطلبه منه على أساس أنه (أدرى) و (أعلم) . وكان الذى يزور غرفته الخاصة يرى على الحائط إطارا بديعا يجمع فى زواياه الأربع صورة مصطفى كامل وصورة على فهمى كامل، وصورة محمد فريد، وصورة (شكرى) . وكان له ولع كبير منذ الصغر بقراءة القصائد الحماسية وحفظ مايعجبه منها عن ظهر قلب، وكذلك التنديد بأعمال الاستبداد والاحتلال .

وبينما كان شكرى جالسا بمنزله بالمنصورة، حضر إليه محمد خليل، واستوضحه الخبر فسرده عليه فى كثير من الحماسة وإلهاب الشعور، فما كان منه إلا أن قابل كلامه بالموافقة التامة نحو الفكرة، وقال له إنه مستعد أن يضحى بحياته فداء له وللوطن، وأنه بالنيابة عنه يمكن أن ينفذ الفكرة وما على شكرى إلا أن يأمر ويرسم مايريده من الخطط .

ولم يرتب شكرى فى إخلاص خليل له واستعداده الكامل لتنفيذ مايشير عليه به، وبدأ يتدرب على إطلاق الرصاص فى طى الكتمان. وقد وفق شكرى فى الحصول على مسدسات من طراز براوننج كان أحد الألمان ويدعى (موريس جلدنبرج)، وكان تاجر حدايد ألمانية باعها قبل الحرب إلى صديق لشكرى اسمه (عبد اللطيف لطفى سيد أحمد)، تاجر حدايد بالمنصورة فى تلك الفترة، ولما علم عبد اللطيف منه بالغرض من البحث عن مسدسات تبرع له بها ورفض أن يتناول لها ثمنا ماتعبيرا عن صورة من صور المساهمة الوطنية فى هذا الشأ ن .

تدرب محمد خليل بهذه المسدسات تدربا طويلا، وكان شكرى يخرج معه بعيدا عن المنصورة فى الحقول والمقابر، حتى حذق الرماية . وفى سبيل التعمية، كان شكرى يتحدث كثيرا أمام أقاربه عن ضعف أعصابه وأنه بحاجة إلى العلاج لدى أحد كبار الأطباء بالقاهرة .

واخيرا سافر هو وخليل من المنصورة إلى القاهرة فى أبريل عام ١٩١٥، وركب شكرى

القطار عن طريق طنطا وركب خليل عن طريق الزقازيق . وفى القاهرة أقام شكرى بمنزل ابن عمة أخرى له ولم يكن يعلم من الأمر شيئا سوى أنه حضر إلى القاهرة للمعالجة بعيادة الدكتور حامد (بك) شاكر بالعتبة، ورأه بنفسه يذهب كل يوم معه إلى الطبيب المذكور ليعالج بأخذ حقن للتقوية .

أما محمد خليل، فقد أقام بفندق المؤيد بشارع كلوت بك . وفى يوم الخميس الموافق ٨ أبريل، بوغت الناس بخبر إطلاق محمد خليل أفندى نار مسدسه على السلطان حسين كامل عقب اجتياز السلطان ميدان عابدين فى عربته قاصدا ميدان الأوبرا، ولكن الرصاصة لم تخترق إلا كبوت العربة على بعد سنتيمتر واحد فقط من جسم السلطان، كما ذكر ذلك فى أثناء المحاكمة . وكان المسدس محوطا بالأزهار والورد على شكل طاقة، وذلك تقليدا للحالة التى كان عليه مسدس (برنزيب) الصربى الذى قتل ولى عهد النماسا فى بلدة سراجيفو، فأشعل بقتله نيران الحرب العالمية الأولى، فإنه أشيع وقتئذ أن مسدسه كان بهذا الوصف، وكانت هذه الإشاعة عالقة بذهن شكرى فذكرها لخليل، وكان المسدس نفسه صغيرا جدا، فسهل دسه وسط الورد، وبعد أن أطلق خليل النار، قبض عليه فى الحال .

كان السلطان راكبا عربة، وكانت أمام العربة كوكبة من الفرسان وخلفها جنود شاهرون سيوفهم بأيديهم، وبجانب العربة، اليوزباشى إبراهيم خيرى شاهرا سيفه، فهجم خليل على عربة السلطان فى وسط السيوف، وما كاد يطلق أول عيار نارى حتى هوى اليوزباشى خيرى بسيفه على رأسه فشطر طربوشه شطرين، وجرحه فى رأسه جرحا بليغا . وفى الحال قبض أحدهم بشدة على يد خليل حتى تسلمه البوليس، وذهب به إلى قسم عابدين .

وقد حوكم خليل أمام محكمة عسكرية بريطانية فى يوم ٢٠ ابريل عام ١٩١٥، ومن أقواله أمام المحكمة المذكورة قوله : (أنا الأن أعطى حياتى لأمحو ذلك العار العظيم الذى سجله علينا التاريخ) ، ويقصد بذلك سكوت الناس عن القيام بحركة فعلية ضد الحماية . وذكرت جميع الصحف أن الطبيب البريطانى الذى انتدب لفحصه قال فى الجلسة أن المتهم أعرب له عن أسفه لأن ضربته طاشت، وذكر له مرارا أنه إذا أطلق سراحه، فسوف يعاود محاولة الاغتيال مرة أخرى .

وقد أصدرت السلطات عريضة الاتهام التى جاء فيها :

إنه فى يوم الخميس الموافق ٨ ابريل عام ١٩١٥ وماقبله، صمم وتصور ودبر بخبث وتعمد وخيانة، أن يسبب موت صاحب العظمة السلطان حسين كامل الحاكم على مصر تحت قوة

الحماية البريطانية . وقد أظهر تدبيره هذا الفاسد وخيانته وفساد تصميمه بحركات وأعمال، ذلك أنه لكى ينفذ نياته الشريرة، أطلق الرصاص فى شارع عابدين فى يوم ٨ ابريل على صاحب العظمة السلطان حسين من مسدسه بقصد قتل عظمته غدرا مخالفا لذلك واجب الخضوع، ومخلا بالنظام ومحتقرا للأحكام العسكرية المعلنة بمصر بأمر حكومة جلالة الملك بمنشور إعلانها الصادر يوم ٢ نوفمبر عام ١٩١٤ .

فليحاكم أمام محكمة عسكرية .

ونشر قلم المطبوعات المصرى فى ١ ابريل عام ١٩١٥ البلاغ الآتى، وقد نشر فى جميع الصحف وجاء فى نصه .

(حكم المجلس العسكرى بالإعدام شنقا على محمد خليل الذى حاول اغتيال عظمة السلطان، وقد أقر علي هذا الحكم اللفتنانت الجنرال السير جون مكسويل قائد جيوش جلالة ملك بريطانيا العظمى فى القطر المصرى) .

وقد نفذ الإعدام فى الساعة الثامنة صباحا من يوم السبت ١٠ جمادى الثانية سنة ١٣٣٣هـ الموافق ٢٤ أبريل عام ١٩١٥، وعند تنفيذ الحكم أدار وجهه إلى الحاضرين وتبسم ورفع يده إلى جبهته وقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وعقب الحادث تم تفتيش واسع بمدينة المنصورة قبضوا فى إثنائه على جميع أقارب شكرى الكرداوى وعليه هو بالقاهرة . ولم يقل خليل شيئا عنه فى التحقيق سوى ماكانا قد اتفقا عليه بحذافيره . وبعد أن سألت النيابة العمومية الدكتور حامد شاكر وتلقت منه ردا بأن شكرى كان يتردد على عيادته كل يوم للمعالجة بالحقن، لم تجد وجها لاستمرار حبسه، وصدر الأمر بالافراج عنه فى ١٠ ابريل .

وقد نشطت أعمال التجسس بعد ذلك بالمنصورة، وروقب شبانها جميعا مراقبة دقيقة وصار منزل الكرداوى يفتش بين حين وآخر على حين غرة، وراقبته السلطة العسكرية بعين ساهرة ونبه عليه بعدم مغادرة المنصورة فى أى وقت إلا بعد إخطار البوليس بذلك، وأخيرا أكثرت السلطة من اعتقاله . وفى داخل المعتقلات تاكد لشكرى أن ماكان قد ظنه من سلبية المصريين إزاء سلطة الحماية الحماية غير صحيح، لأنه فى كل مرة كان يقابل شخصيات مختلفة من الذين كانوا يأتون من الأقعال مايعبر عن حركة الاحتجاج الشعبى بوسائل مختلفة وبأساليب متباينة .

ومن أهم الفئات التى قابلها فى المعتقل، ١٧ طالبا من مدرسة الحقوق، كانوا قد أضربوا

هم ومعظم طلبة المدرسة يوم زيارة السلطان حسين كامل لها فى عام ١٩١٥، ووصلت مدة اعتقالهم إلى سبعة شهور، ونذكر منهم : محمد صبرى أبو علم، وأحمد مرسى بدر وحسن يس، وغيرهم ممن صاروا بعد ذلك أعلاما .

ولما خرج من الاعتقال، كانت صحته ضعيفة، فصرف الوقت فى التنقل بين القرى المختلفة استجماما للعافية، واشتغل قليلا بالتجارة والزراعة . وما كاد يسترد شيئا من الصحة حتى قامت ثورة ١٩١٩ التى وجد فيها فرصة هائلة ينفس من خلالها عن عواطفه الوطنية المشبوبة فقذف بنفسه فى أتونها الملتهب وأصبح أحد أعوانها السريين . وفى منزله بالمنصورة، كان يجتمع عشرات الطلبة ليلا لترتيب المظاهرات بالمدينة، وتكونت شعبة أخرى لا يعلم بها أحد لكتابة وطبع المنشورات المختلفة ولصقها ليلا على الجدران حاثة على الإضراب أو الاحتجاجات المختلفة . وكانت هذه الشعبة مكونة منه ومن أحمد افندى جلال الموظف بمأمورية الأوقاف بالمنصورة والمشتغل بالصحافة بعد ذلك، ومحمود العدل التاجر، وكانوا يذيلون المنشورات بإمضاء (اليد السوداء)، ويلصقون على الأوراق دائرة كبيرة من الورق الأسود، مما كان له أثره فى تأجيج المشاعر الوطنية والالتفاف حول الزعامة الشعبية التى تمثلت فى سعد زغلول ورفاقه. ولم تكن تلك آخر حلقات سلسلة الكفاح السرى لشكرى الكرداوى مما سنعرضه فيما يلى :

من هو الشيخ عبد اللطيف الذى يكتب التمائم ؟

كان أهل الحارة جميعا يعرفونه باسم الشيخ «عبد اللطيف سليمان» .. فهكذا أخبرهم ... وكان هو يبتسم فيما بينه وبين نفسه ... لقد اضطرته الظروف إلى أن ينتحل هذا الاسم ... لم يكن يقصد إلى الكذب، ولم يكن يريد الخداع .. بل إنه يحس فى أعماقه أنه راض كل الرضا عن هذا الإسم الجديد .. إنه اسم على مسمىً ... إن «عبد اللطيف» مأخوذ عن اسم صديقه «صالح عبد اللطيف» الذى اغتال وزير الأوقاف المصرى سنة ١٩١٥ ، لأسباب سياسية .. أما «سليمان» فيشير إلى «سليمان الحلبى» الذى قتل «كليبر» قائد الحملة الفرنسية بعد «نابليون» .

ولكن هل يكفى تغير الإسم لإخفاء أمره عن جيرانه فى «عطفة حوش الحدادين» التى تقع خلف «قرة قول الخليفة» بحى القلعة؟

إنه يعرف فضول الناس فى مثل تلك الأحياء الشعبية .. إنه فضول ينبع من رغبتهم فى الصداقة الحميمة، والاختلاط الذى تسقط فيه الحواجز، وتنساب فيه الأحاديث من الألسن لتستقر فى القلوب ... ثم إنه مضطر للإقامة فى غرفته طوال اليوم ...

وآه من غرفته تلك ! .. إنها أشبه بكهف فى طبقات الأرض السفلى .. كم كان يود ألا يقيم لحظة فى تلك الغرفة، أو على الأصح فى تلك الزنزانة الرهيبة .. ولكنه مضطر ألا يبرحها إلا فى فترات قصيرة من الليل ..

ولكن إلى أين كان يذهب وهو الذى يريد أن يبتعد عن كل مواطن الخطر ؟

كان يذهب إلى حيث يجلسه بعض المساكين من المتسولين، فينفحهم بالقليل مما يملك، نظير أن يتحدث إليهم بضع دقائق .. يسرّى بها عن نفسه، ويبدّد عن طريقها وحشته !!

وعندما أحس بأن جيرانه حريصون على الاقتراب منه .. وأن مجرد اسمه لم يعد كافيا لإشباع فضولهم وإقامة علاقات طبيعية معهم، راح يحدثهم عن بلده .. لم يحدثهم بالطبع عن «المنصورة» .. وعندما اطمأن إلى أنهم جميعا قاهريون، رغم أنه صعيدى ومن الفيوم .. ولما كان يحمل معه ملابس المشايخ القديمة ... فقد رأى أن يحدثهم عن أزهريته .. وقد استطاع أن يؤكد ذلك بما كان يحفظ من آيات الكتاب الكريم، وبما كان يفسر من تلك الآيات لجيرانه ..

وعندما أحس أن هناك تساؤلا عن مصدر نفقاته .. مجرد تساؤل صامت، أخبرهم بأنه كأن يملك عدة فدادين باعها لينفق منها مدة إقامته فى القاهرة .. وحقيقة الأمر أنه كان يملك بيتا صغيرا فى المنصورة .. باعه قبل أن يغادرها، واحتفظ بثمنه القليل معه ...

ولكن ... ماهو عملك الأصلى يامولانا ؟

وجاءهم الجواب الذى كان قد فكر فيه طويلا .. والذى كان قد أعد العدة لإثبات صدقه... كان يعرف أن سكان تلك الأحياء الفقيرة هم مرعى خصب لكل مظاهر الخرافة وفقدان المعرفة..

فالاستعمار الإنجليزى، وطغاة القصر لم يكونوا ليسمحوا لجماهير الشعب بأن تنال شيئا من حقها فى العلم .. وقد كانت هذه الحقيقة تؤلم نفسه وتؤرق ضميره .. ولكن إذا كان هذا هو الواقع، فلماذا لايستغله لمصلحته .. ومصلحته هى فى النهاية من مصلحة هؤلاء المساكين ؟!

وكانت المفاجأة التى أدخلت كثيرا من السرور والبهجة على صفحات نفوس الجيران والجارات ! ان «الشيخ عبد اللطيف» يقرأ الطالع، ويكتب ويستحضر الأرواح ... وذات ليلة مدّ يده إلى لفافة فى ركن من أركان الحجرة، فأخرج منها مصحفه الكبير، ومسبحته الطويلة، وبعض أعواد البخور ..

كان يعرف أن هذه اللحظة فى انتظاره، فتسلل ذات ليلة إلى ميدان السيدة زينب،

واشترى منها هذه الأدوات التى لايستغنى عنها أى دجال وإن كان هو أبعد عن الدجل والدجالين !

وبدأ .. «الشيخ عبد اللطيف» يكتب التمائم لذوى الحاجات وذوات الحظوظ التعسة ..

كان البخور ينطلق كل ليلة فى غرفته .. وكان صوته الذى يهمهم بالكلمات غير المفهومة يسرى فى نفوس الجالسين والجالسات فيملؤها تفاؤلا وأملا ..

وشاعت الظروف أن تتحقق بعض رغبات القاصدين والقاصدات !!

وذاعت شهرة «الشيخ عبد اللطيف» فى الحارة والحارات المجاورة .. وقصده الكثيرون والكثيرات .. صاحب الحظ العاثر، وذات القلب المكسور، ومن قل رزقه، ومن ضاقت ذرعا بسلوك زوجها . وغير أولئك وهؤلاء من صرعى الظروف التعسة والجهل المنتشر .. وامتلأت يد «الشيخ عبد اللطيف» بعض الشئ وأوشك أن ينسى وضعه الحقيقى .. أوشك أن ينسى أنه طريد الدولة .. وأنه مطلوب لقضاء خمسة عشر عاما فى السجن !!

ترى .. هل نسى أو أنه يمضى فى طريق صرف الأنظار عنه ؟

المهم أن «الشيخ عبد اللطيف » .. قد أقدم على خطوة لايقدم عليها إلا المستقرون أصحاب الأقدام الثابتة على أرض الواقع .. فقد عقد قرانه على إحدى الفتيات .. ولكنه لم يكن موفقا فى هذا الزواج، فطلق فتاته ليتزوج بأخرى!! وهكذا أصبح «الشيخ عبد الليطف» من سكان الحارة المرموقين ..يحظى من الناس بالاحترام، كما يحظى منهم بالحب والقدير .

وكان على رأس شارع الخليفة مدرسة أولية، أصيب فيها أحد المدرسين بمرض أقعده عن العمل، فرشحه الناس للعمل بالمدرسة .. وعلى الرغم من أن المدرسة كانت خاضعة لإشراف وزارة المعارف، فإن الناظر قد أحسن استقباله .. فقد كان الشيخ يؤدى عمله دون أجر .. وهبه لوجه الله . وعندما شفى المدرس وعاد إلى العمل أخلى له الشيخ عبد اللطيف مكانه، ونقله الناظر إلى مدرسة أخرى للبنات، ولكن مفتش وزارة المعاف اعترض وفضل تعيين مدرسة بدلا من مدرس، فاستقبل الشيخ اعتراض المفتش بالرضا والقبول ..

وظن «الشيخ عبد اللطيف» أن حياته قد ارتبطت إلى أجل غير مسمى بالحارة وسكانها .. واستسلم لهذا القدر .. فالحارة على كل حال أفضل كثيرا من السجن والأعمال الشاقة .. ولكن هاهى ذى الظروف تعود إلى مسلكها القديم .. لقد راحت تطارده من جديد .. لقد أبلغه أحد الموظفين من الجيران أن الحكومة فى سبيلها إلى حصر سكان القاهرة من أهل الصعيد .. حينئذ أحس بالخطر يطرق بابه .. لابد إذن من مغادرة الحارة .. بل لابد من مغادرة القاهرة

كلها .. ولكن إلى أين هذه المرة ؟ لا .. لا عودة إلى المنصورة .. إن معظم من فيها الآن يعرفه... ألم يقبضوا على أهله هناك ؟ .. ألم يفتشو كل منزل من منازل أقاربه ؟ .. ألم يعلقوا صوره فى كل مكان ؟ .. ألم يعلنوا على الملأ المبلغ السخى الذى سوف يحظى به أى إنسان يستطيع أن يدل على ذلك الهارب من وجه القانون ؟ ..

خمسمائة جنيه .. ياله (فى ذلك الحين) من مبلغ يسيل له لعاب كل محتاج أو غير محتاج من ذوى النفوس المريضة والضمائر الوطنية الغائبة ! ..

إن الحكومة لم تكتف بالنشر عن هذه الجائزة فى الصحف المصرية .. لقد هداها خيالها إلى أن «المجرم» الذى تبحث عنه من المحتمل أن يكون قد غادر البلاد .. فنشرت صورته ونبأ الجائزة السخية فى صحف الحجاز والعراق والشام !! .. إذن لا عودة إلى المنصورة ..

كذلك لا عودة إلى الإسكندرية .. وهى مسرح الحدث الكبير ، فإلى أين يتجه «محمد شكرى الكرداوى» وهو الإسم الحقيقى للشيخ «عبد اللطيف» ؟ ليتجه جنوبا .. إلى الصعيد .. ولتكن أسيوط وجهته .

وفى قطار الصعيد احتل مكانه بين جماهير «الصعايدة» المكدودين المكافحين .. وكان فى هذه المرة يشعر بشئ من الأمان .. صحيح أنه مطارد، وأن السلطات تبحث عنه وتطلب القبض عليه ، ولكن كان قد مضى أكثر من عام على الحدث الذى هز به البلاد . ولابد أن تكون قبضة السلطات المتشنجة قد استرخت بعض الشئ ...

وأخذته شبه إغفاءة .. وتحرك شريط من الذكريات المتزاحمة أمام عينيه الغافيتين .. إضراب الموظفين والعمال فى ثورة ١٩١٩ .. واستقالة وزارة «رشدى» الرابعة فى الحادى والعشرين من أبريل من نفس العام .

وكانت الأحداث السيئة تتوالى . فويلسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وصاحب المبادئ المشهورة فى الوقوف إلى جانب الشعوب المغلوبة على أمرها، عاد وتراجع عن مبادئه واعترف بالحماية البريطانية على مصر .

ومؤتمر الصلح نفسه الذى عقد تلك الأيام فى «باريس» لم يشأ أن يكون مسرحا لاقتسام الغنائم، واعترف هو الآخر بحق بريطانيا فى حماية مصر !

وثارت ثائرة الشعب المصرى .. وسقطت وزارة «رشدى» .. ولم يقبل أحد أن يؤلف وزارة جديدة .. وبقيت البلاد بلا حكومة لمدة شهر .. ولكن «محمد سعيد باشا» . وهو أحد أفراد الأسرة المالكة، قبل تأليف الوزارة الجديدة .. وكان هذا تحديا صارخا لمشاعر المصريين

الثائرين ... وأحس «الكرداوى» بصفير يملأ أذنيه .. ففتح عينيه، وأدارهما حوله، وأدرك أنه كان مع شريط ذكرياته، فلم يرد أن يقطعه .. وأغلق عينيه مرة أخرى ليرى نفسه فى سنة ١٩١٥ وهو يدبر اطلاق الرصاص على السلطان «حسين كامل» .

ما أشبه الليلة بالبارحة !

فها هو ذا «محمد سعيد» سليل الأسرة المالكة يتحدى الشعب، ويسخر من ثورته، ويهزأ بثواره ... فهل يسكت «الكرداوى» عنه؟

كلا .. لابد أن يقتص منه، بل لابد أن يتخلص منه . ليجعل منه عبرة للخونة الخارجين على إرادة العشب .. وفكر وأطال التفكير .. والتقى ببعض الشباب المتحمس، وجس نبضهم، ولكنه لم يطمئن بعد إلى الشخص الذى يختاره للمهمة الخطيرة ...

وذات يوم .. وبينما كان غارقا فى بحثه عن المرشح لهذا العمل الفدائى، إذا به يلتقى بصديقه القديم «محمد محمد خليفة» التاجر بكفر الزيات، والذى كان يعمل من قبل مدرسا بالمنصورة .. ولثقته بهذا الصديق القيم أخبره بما يفكر فيه .. وصمت «محمد» قليلا .. ثم هز رأسه فى ثقة .. وقال بصوته الحازم :

– إن من تطلبه عندى ..

– تقول ماذا ؟

قالها «الكرداوى» فى لهفة .. وردّ «محمد» من تطلبه موجود عندى بكفر الزيات .

– ومن يكون هذا الفتى الشجاع الذى ادخرته الأقدار لأنبل غاية؟

شاب أزهرى فى العشرين من عمره .. أتريد أن تعرف اسمه؟ .. إنه الشيخ «سيد على محمد» .

وتمتم «الكرداوى» : محظوظ هذا الشيخ سيد .. لقد فتح له التاريخ أبوابه ..

وتتابعت الصور .

«الكرداوى» يذهب إلى الاسكندرية .. ويتجه إلى محطة «سان ستيفانو» حيث يوجد قصر رئيس الوزراء .. وعندما يملأ عينيه وخياله بمشهد القنبلة وطريقة إلقائها، يعود إلى المنصورة .

وفى يوم الخميس ٢٨ أغسطس سنة ١٩١٩ يسافر الى كفر الزيات .. ومن هناك يستقل القطار فى صحبة الشيخ «سيد» ويهبطان فى محطة «سيدى جابر» .. ومن هناك أخذا الترام إلى محطة «سان ستيفانو» .. وأراه «الكرداوى» قصر «محمد سعيد» ومواعيد خروجه منه، ودلّه على أوصافه، كما أشار عليه بأفضل مكان يلقى منه القنبلة .

وفى صبيحة الثلاثاء الثانى من سبتمبر ركبا الترام إلى كازينو «سان ستيفانو» .. ورأى الكرداوى .. أن يركب كل منهما فى عربة مختلفة من عربات الترام كنوع من الحيطة .. وكان يلبس جلبابا فوقه سترة .. كما كان يضع طربوشا فوق رأسه .. أما السلة التى وضعها بجانبه فى الترام فكان من الواضح أنها تحتوى عنبا مغطى بفوطة ، وكان قد وضع القنبلة فى مكان أمين بأسفل السلة، وعندما هبطا فى المحطة .. وقف الشيخ «سيد » عند باب الكازينو .. فى حين حمل «الكرداوى» سلته واتجه بها نحو الداخل ... كانت خطواته واثقة فلم يلتفت إليه أحد ، ولا أثارت سلته شبهة أحد ، وعندما بلغ دورة المياه تقدم فى ثبات نحو مرحاض مفتوح، وأغلق الباب عليه، وأحكم الرتاج . وفى هذا المكان البعيد عن العيون فتح السلة بحذر .. ونثر محتوياتها أمامه .. وأخرج القنبلة .. ثم أخرج زجاجة الحمض من جيب سترته وفتحها .. وبسلك رفيع أسقطها فى مقرها الداخلى من القنبلة .. كان يعرف أن هزة بسيطة كفيلة بخلط الحمض بمواد القنبلة، ومن ثم انفجارها فى الحال . لهذا أعاد وضعها مكانها بالسلة بعد أن أحاطها بورق الصحف بإحكام .. وخرج حيث كان الشيخ «سيد» ينتظره .. وأعطاه السلة، فاتجه بها إلى المكان المتفق عليه .. وكان محل مياه غازية يواجه قصر رئيس الوزراء .

لم تكن ساعة خروج «الباشا» قد حانت .. فجلس الشيخ «سيد» عند باب المحل يتشاغل بشرب زجاجة من المياه الغازية .. وما كاد يفرغ منها حتى ظهرت العربة الفارهة، فوقف متهيأ للعمل .. وعندما مرقت من أمامه كانت السلة تتجه إليها فى ساعة .. ودوى المكان بصوت انفجار رهيب وساد الهرج والمرج .. وامتلأ الشارع برجال الأمن .. وكان الواضح أن رئيس الوزراء لم يصب بشئ .. لقد تحطمت سيارته من الخلف .. وهذا هو كل ماحدث له .. وقبض على الشيخ «سيد» ... وضرب وعذب .. وأحضروا والديه ليبقيا معه ويؤثرا عليه حتى يعترف .. وتحت كل هذه الضغوط اعترف .. تحدث عن الشيخ «خليفة» ودوره فى تقديمه للكرداوى ..

وقبض على «الشيخ خليفة» وأودع مع الشيخ «سيد» فى سجن «الحضرة» أما «الكرداوى» فاختفى، ولم يعثر له أحد على أثر ...

وعندما انعقدت المحكمة .. تراجع «سيد» عن أقواله بالنسبة للشيخ خليفة .. فقد كان بالسجن فى ذلك الوقت «عصام الدين حفنى ناصف».. وهو رجل مثقف، وكان متهما فى قضية سياسية أخرى .. وفى لحظة من غفلة الرقابة التقى بسيد وخليفة، واقتنع الأول بأن يعدل عن أقواله بالنسبة للثانى ..

وهكذا برئت ساحة الشيخ خليفة . أما الكرداوى ... فقد صدر الحكم عليه غيابيا بخمسة عشر عاما مع الشغل ... ومنذ هذا اليوم بدأت رحلة الاختفاء !!

وكان «الكرداوى» قبل وقوع الحادث قد التقى فى الاسكندرية بصديقه القديم «إسماعيل برعى» ... كان رجلا عزبا .. موظفا فى مصلحة الفنارات، بقي فى شقته وحده .. وأقام «الكرداوى» عنده فى الفترة التى كان يعد فيها للحادث .. أخبره أنه جاء إلى الأسكندرية لشراء بعض البضائع التى أعلن عنها الجمرك فى الصحف .. ومن خلال أحاديثهما اطمأن «إسماعيل» إلى أن صديقه القديم لم يعد له شأن باسياسة . وكان «إسماعيل» يتركه نائما كل صباح فى حين يتجه هو إلى عمله . كان قد أفرد له غرفة خاصة به لم يكن يسمح لنفسه باقتحامها عليه .. هكذا لم تستطع سلة «الكرداوى» أن تلفت نظره ..

وعلى الرغم من أن «إسماعيل» لم يكن يهتم حتى بقراءة الصحف، فقد أخبره أحد زملائه فى مساء اليوم التالى لوقوع الحادث أن الشاب المقبوض عليه قد اعترف بأن الذى حرضه على الاعتداء هو شخص يدعى «شكرى» من المنصورة .. ولم يخالج «اسماعيل» شك فى صديقه .. اعتبر تشابه الأسماء مجرد صدفة ..

وفى الصباح أخبر إسماعيل صديقه بما سمع، فلم يظهر أى اهتمام ، وأخبره بأنه سيسافر إلى المنصورة فى نفس اليوم ليطمئن على أهله، و لكنه فى الوقت نفسه نصحه بأن يتخلص من أى كتب أو أوراق ممنوعة تكون لديه، لأن الأحكام العرفية معلنة، والناس معرضون فى أى وقت للتفتيش ...

وحمل «الكرداوى» حاجاته القليلة واتجه إلى محطة السكة الحديدية ، وحصل على تذكرة إلى القاهرة بالدرجة الثانية فى قطار «الاكسبريس» الذى يغادر الاسكندرية فى الثامنة والنصف .. ومن محطة «سيدى جابر» ... ركب القطار .. لم يقصد الى مقعده مباشرة .. بل اختفى فى دورة المياه الخاصة بالعربة حتى تحرك القطار ...

وعندما بلغ القطار محطة «دمنهور» وقبل أن يتوقف تماما لاحظ «الكرداوى» أن رءوسا كثيرة تطل من فوق الرصيف لتحملق فى وجوه الركاب داخل العربات وتساءل أحدهم موجها الكلام إلى زميل له كان بداخل العربة : هل فتشتم كل القطار ؟ ... فأجابه هذا بقوله : .. فتشنا العربات الأخرى، وسنواصل التفتيش ابتداء من هذه العربة .. مشيرا إلى العربة التى يوجد بها «الكرداوى» ..

لم يفكر «الكرداوى» طويلا .. انتزع نفسه فى الحال من العربة، وانطلق خارجها بكل رباطة جأشه متجاوزا رجال الشرطة السرية التى كانت تنتشر على إفريز المحطة .

وفى طريقه إلى باب المحطة الخارجى لم يلتق به أحد .. أما الموظف الذى يقف على الباب، فكان منصرفا إلى الحديث مع أحد زملائه . إن «دمنهور» بلد صغير لا يصلح للاختفاء .. فصمم على مواصلة الرحلة إلى القاهرة، ولكن عن طريق غير طريق القطار ... وفى أحد الأماكن الخالية غير ملابسه .. ارتدى جلبابا فوق البنطلون بعد أن ثنى أطرافه، ومن فوق الجلباب لبس سترته ..

وأخيرا بلغ القاهرة .. وعندما جلس على أحد المقاهى فى حى «عابدين» تنفس الصعداء ، وهو يتناول قدحا من الشاى .. وعندما أغلق المقهى أبوابه راح يسير فى الشوارع بخطى سريعة وكأنه يقصد منزله ..

وهام «الكرداوى» على وجهه إلى أن بلغ عطفة حوش الحدادين .. التى تركها ذلك اليوم متجها الى أسيوط ..

وكان «الكرداوى» وهو فى الطريق إلى الصعيد لايدرى من أمره شيئا .. ترى أى مكان سيستطيع أن يأوى اليه ؟ ..

نعم لم يكن الكرداوى يعرف أن القدر يدخر له ثمانية عشر شهرا يقضيها فى أسيوط .. ولم يكن يدرى أن حكما بالعفو سوف يشمله، كما يشمل غيره من المحكوم عليهم فى قضايا سياسية ، عندما يتولى «سعد زغلول» وزارته الأولى عام ١٩٢٤ ... ولم يكن يعرف أن القدر يمهله حتى يعود إلى بلده المنصورة، ويكتب مذكراته وينشرها فى كتاب «خمسة وخمسون شهرا فى المخبأ» يحكى فيه قصة مناضل وطنى، ويثبت من خلاله أن هذا الوطن كان وسيظل قادرا على إنجاب الأبطال الذين يتبنون قضاياه، ويدافعون عن شرفه وعزته ، مهما كلفهم ذلك من تضحيات ...

لماذا .. العالم الثالث..؟ ★

المقصود بالعالم الثالث :

ينسب اصطلاح العالم الثالث للكاتب الجزائرى (فرانتز فانون) Fnantz Fanon[١] الذى استخدمه لأول مرة فى كتابه عن الجزائر للدلالة على مجموعة الأمم التى تحولت طبيعيا وتلقائيا من النظام الإقطاعى إلى النظام الرأسمالى، والعالم الثانى الذى يضم مجموعة دول الكتلة الاشتراكية التى تحولت إلى دول متقدمة نتيجة الأخذ بالتخطيط الاقتصادى الشامل القائم على النظرية الماركسية .

ويعتبر ظهور دول العالم الثالث فى إفريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية وما لها من تطلعات نحو تحقيق التنمية من أبرز معالم القرن لعشرين، إذ أن التنمية الاقتصادية التى أصبحت القضية الأساسية لهذه الدول، قد خلقت على المستوى الدولى أنماطا جديدة من النظم السياسية والاجتماعية، كما أنها أمدت العالم بأنواع مختلفة من السياسة الإنمائية، فهذه المجموعة من الدول تتميز بأنها تميل إلى الاستقلال عن كل من مركزى القوة الكبيرين وذلك لأن أغلبها كان خاضعا للاستعمار حتى الحرب العالمية الثانية، ومن ثم فإنها تسعى إلى إيجاد نظام سياسى يمزج بين الديمقراطية الغربية والنظم الشمولية، وإلى إقامة نظام اقتصادى مختلط لا يؤمن بالاشتراكية الخالصة أو الرأسمالية المطلقة . وهذا يعنى أن دول العالم الثالث تسعى إلى إيجاد أسلوب جديد، إن لم يكن بنيانا متكاملا فى كل من المجالين السياسى والاقتصادى[٢] .

إن دول العالم الثالث لا ترتبط فيما بينها ارتباطا جغرافيا نظرا لعدم وقوعها داخل إطار جغرافى واحد، إلا أن معظمها يقع خارج الحدود الجغرافية لكل من العالمين الرأسمالى والاشتراكى مما يجعلها تقف ككتلة محايدة فى الحرب الباردة التى تدور رحاها بين الدول الغربية من ناحية، والاتحاد السوفيتى من ناحية أخرى . إنها تقع فى نفس الوقت فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية، أى أنها تمتد إلى قارات مختلفة وتشمل مساحات كبيرة من العالم.

ورغم هذا، فإن الأساليب تختلف بين هذه الدول تبعا لاختلاف مامرت به وما تزال تمر به

★ نشرت فى العدد الأول من مجلة التربية المعاصرة، عام ١٩٨٤ .

من ظروف، فمنها تلك التى اتحدت طوائفها فى معركة التحرير ثم إذا بها قد انقسمت حين كان الاستقلال إلى يمين ويسار، فلا يرى الزعيم إلا الموازنة بينها حفاظا على الاستقرار الداخلى، إلى حين قد يطول أمده، فتنقلب الموازنة، والتى تحمل دوما فى طياتها جرثومة الانفجار إلى موقف مستحكم يعوق تكوين الطليعة التى يمكنها أن تكون النواة الحقيقية للوحدة الفكرية، أو أن يكون الشعب متخلفا تخلفا مروعا فكريا وثقافيا لاتزال تشده إلى الماضى أنماط اجتماعية قبلية، فيرى الزعيم ألا محل فى سباقه مع الزمن للانتظار حتى يرتقى بوعيهم فيجدوا طريقهم، بل يفرض عليهم تلك الأوضاع التى تخيلها صالحة لهم، ثم يسوقهم إلى العمل سوقا ويعنف بهم أشد العنف، فلا يرون آخر الأمر إلا أن الاستقلال دفع بهم الى سخرة أشد وأنكى من السخرة التى كان يفرضها عليهم المستعمر إذ يعجز وعيهم المتخلف عن إدراك الهدف منها، أما أهداف المثقفين الذين نعموا بمميزات مادية ومعنوية فى الأجهزة الإدارية أو الفنية أو العسكرية حين كان استعمار، فإذا بهم مطالبون اليوم بالتضحية فى سبيل صالح عام لايرون له تباشير فجر رقيب[٢] .

والأحداث أمامنا تعطينا الأمثلة لما يمكن أن تتمخض عنه الأحداث فى هذا البلد أو ذاك، فإن الزعيم هنا أو هناك يجد نفسه مضطرا آخر الأمر إلى التغطية على مشاكله الداخلية، فيجذب الانتباه إلى المحيط الخارجى، يغالى فى ذلك حتى ليكاد يناطح سحب الخيال، منفصلا بذلك عن الواقع الحى، ويضيق بكل نصيحة صادقة أو مراجعة مخلصة عن أقرب أعوانه فيرميهم بالخيانة ويطيح بهم تاركا بذلك الفرصة سانحة لتسلل المنافقين والمتزلفين يحيطون به حتى لايرى إلا أنه رائد القوى الثورية الصاعدة فى كل مكان وزمان أو مسيح قارة بأكملها، اصطفاه القدر ليجمعها إلى دولة واحدة، وفى كلتا الحالتين تتحول المتناقضات الداخلية وقد أهملها مرتعا لمؤامرات الاستعمار فيقع الانفجار أو يتيسر للعملاء تأليب الموقف على مصالح الشعوب إلى سلسلة متصلة من نكسات .

ثم هناك، وما أكثر الصور التى تقابلنا، دول رأت بحق أن الاستعمار هو ذروة الرأسمالية، وأنهم لم يعرفوا الرأسمالية فى بلادهم إلا قائمة بسند من الاستعمار، فيتجهون بكل قوة إلى الاشتراكية لايحاولون البحث عن صورتها وتطبيقاتها التى تلائم أوضاعهم وإنما يجاوزونها دون درس أو تريث إلى المعسكر الاشتراكى، فتجربته حية أمامهم يقبلون عليها بقضها وقضيضها : هل أقول عن إيمان، أم هو عناد يعميهم عن واقعهم نكاية فى المعسكر الرأسمالى ليس إلا ؟ وهذه حال بالغة الخطورة على مستقبل العالم الثالث خاصة إذا كانت

الدولة التى تنهج مثل هذا المسلك تقف وحيدة على مشارف مناطق نفوذ استعمارى مقيم، كان حريا أن تصير إلى مثل يحتذى لشعوب تلك المنطقة المتطلعة إلى التحرر من ربقة الاستعمار الجديد تصدم فى آمالها إذ يعمد خصومها إلى تصوير أن رائدتها إلى الحرية إنما نجت من تبعيته لتقع فريسة تبعية أخرى، وخاصة إذا كانت قيمها الروحية المتاصلة فيها لا تستسيغ بعضا من مفاهيم الاشتراكية الماركسية[٤] .

أما تلك الشعوب التى نالت استقلالها عفوا، أو أضيفت عليها واجهاته الزائفة قبل أن ترقى بكفاحها إلى مستواه، فإنها فى الأغلب والأعم خاضعة لحكومات عميلة أو تسيطر عليها طبقة مثقفة قصيرة النظر، يبهرها التقدم العلمى والتكنولوجى للدول الاستعمارية فترى أنها إنما تخلفت لأن تلك سبقتها، وأن طريقها إلى التقدم هو نفس الطريق، وليس مايمنع، بل إنه يتحتم عليها ألا ترفض العون منه، بل تلح فى طلبه بقيوده وشروطه يغريهم بريق خادع من ثروة وسلطان، بينما الاستعمار ماض كما كان فى استغلال موارد شعوبهم، وسرعان ماترتفع الحواجز بين تلك الطبقات الحاكمة وبين الشعوب إذ يتفتح وعيها، فلا مفر أمامهم من بذل مزيد من ولاء وتبعية لأسيادهم المستعمرين، على أن تكون القواعد العسكرية والاحتكارات الاقتصادية حماية لهم وضمانا لاستمرار بقائهم حيث العروش والقصور والسطوة الكاذبة .

ذلك هو العالم الثالث ... صورة تعددت فيها الخطوط وتشابكت، متصادمة فى ألوانها الصارخة ملتحمة فى منعطفاتها إلى تطلعات بعيدة عن واقعها المرير، ومن حولها يقف الاستعمار طامعا متربصا متشبثا بمواقفه القديمة أينما تكون[٥] .

وإذا كنا نستخدم هنا مصطلح (العالم الثالث)، فإن هناك من يطلق عليه (البلاد النامية) وهناك من يستخدم كلمة (البلاد المتخلفة) . وفى رأينا أن مصطلح (البلاد النامية) إنما أطلق من باب «المجاملة» وأن (التخلف) هو الأقرب إلى الحقيقة والواقع . وعلى العموم فإن عددا غير قليل من دول العالم الثالث يشيع فيها التخلف بمظاهره المتعددة المعروفة مما سنشير إليه فى صورة المختلفة فيما بعد، ونكتفى هنا، التأكيد على أننا فى استخدامنا لصفة (التخلف) نتبنى تعريف محمود الكردى الذى يرى فيه أن[٦]:

«التخلف ظاهرة تصيب بعض المجتمعات وتعنى بطء الحركة فى تحقيق النمو الذاتى لها (وليس فى اللحاق بغيرها) وهى تنبع أصلا من تأثيرات تفاعلية خارجة (وليست متأصلة فى كيان المجتمع بيولوجيا أو وراثيا) تتجسد فى سوء استغلال الطاقات المادية الكامنة وضعف التركيب الاجتماعى والإطار الثقافى القائمين، وعدم كفاية النظام السياسى فى تحقيق استقرار المجتمع .

وتنجم عن هذه الحالة مشكلات تعترض الهيكل الاقتصادى (والتبعية أشهرها) وتخلخل البناء الاجتماعى - الثقافى (ونسق القيم أوضحها) وتناوئ النظام السياسى (وفقدان التربية السياسية أظهرها) .

أخدود الفقر!!

وكما سنلمس بتفصيل أكثر فى مناقشة القضايا التالية، فإن هناك هوة ضخمة تفصل بين العالم الثالث، عالم الفقراء، وبين العالم الأول (الأغنياء) ، وإلى حد ما العالم الثانى*، وإذا قصرنا الكلام على قرنين من الزمان أو نحو ذلك، فسنجد أن متوسط دخل الفرد فى بريطانيا عندما احتلت الهند لم يكن يتجاوز فى بعض التقديرات ضعف متوسط دخل الفرد فى تلك الأقطار، بل إن الأقرب إلى العقل هو أن حال فقراء بريطانيا - وهم الكثرة من السكان فى ذلك الوقت - لم تكن أفضل كثيرا من حال فقراء شبه القارة الهندية[٧] أما اليوم، فمتوسط دخل الفرد فى بريطانيا، يعادل حوالى ثلاثين مرة متوسط دخل الفرد فى الهند، مع أن بريطانيا لم تعد أغنى الأمم .

وفى داخل الأمة الواحدة، كان الغنى يأكل أكثر من الفقير ويشرب أنقى وأغلى ويرتدى ثيابا أنعم، ويسكن دارا أفسح . كان التميز عادة محصورا فى إطار الكم، أما الغنى اليوم، فإن (حضارة العصر) قد افتنت فى أن توفر له صنوفا من الاستهلاك متنوعة وخلقت لديه احتياجات لم تكن معروفة من قبل، وهيأت له من أسباب الترف مالم يخطر على قلب بشر عبر التاريخ البشرى الطويل، فى وقت زادت الحياة فيه قسوة على الفقير الذى لم ينله من ذلك أوفى نصيب، بل الذى ساءت ظروف معيشته عما كانت عليه فى مواقع غير قليلة. لقد أصبحت حياة الأغنياء تختلف نوعيا عن حياة الفقراء . والأدهى من ذلك أن العلاقة بين الغنى والفقير تشابكت خيوطها حتى اكتسبت طبيعة عضوية، فغنى أولئك هو الوجه الآخر لفقر هؤلاء، ذلك أن تركز الثروة والدخل بيد الأقلية لم يعد مصادفة أو ثمرة حدث عارض، إنه الآن النتيجة المحتومة لأسلوب استغلال منظم معقد ومتشابك الحلقات يعمل كما لو كان قانونا من قوانين الطبيعة ويصب فى أيدى الأقلية ثمار جهد الملايين، وجل موارد الأرض .

ومهما يكن من أمر، فإن هذا يولد طاقة تفجير فى النظام الدولى كتلك التى يولدها تحطيم الذرة مصحوبا بالتحام ذرتين فى انفجار حرارى نووى لايعلم أحد ماذا يترك على سطح الأرض، فشعوب العالم الثالث (الفقير فى جملته برغم جيوب الغنى الفاحش) لم تعد

---

* كما كان يطلق على دول المعسكر الاشتراكى وقت كتابة الدراسة .

تقبل شقاءها كما لو كان قدرا لا فكاك منه. بل إن ادراكها يتزايد بأن ثراء العالم الغربى (الغنى فى جملته برغم جيوب الفقر الموقع) يعتمد إلى حد كبير على موارد العالم الثالث وأسواقه، بل أمواله (بعد ظهور مايسمى بفوائض الدولارات البترولية)، وتفاقم الأوضاع الراهنة ينذر بارتفاع صيحة الثورة التقليدية للفقراء : إننا لا نملك فى هذه الأرض شيئا يمكن أن نفقده، وهذا مابدأ الغرب يتنبه له أخيرا[٨]..

وفيما يلى جدول يبين مقارنة توضح الفروق الكبيرة بين الدول الغنية والدول الفقيرة، من خلال نمو إجمالى الناتج القومى بالنسبة للفرد[٩]

جدول رقم (١)

نمو إجمالى الناتج القومى بالنسبة للفرد موزعا حسب الاقليم ١٩٧٠/١٩٩٠

مجموعة البلدان	اجمالى الناتج القومى بالنسبة للفرد (بالدولار الجارى بأسعار ١٩٨٠)	١٩٧٠/١٩٨٠	متوسط النسبة المئوية للنمو السنوى الحد الأدنى ١٩٨٠/١٩٩٠	الحد الأقصى ١٩٨٠/١٩٩٠
بلدان الدخل المنخفض المستوردة للبترول	٢٢٠	٠ر٨	٠ر٧	١ر٨
افريقية شبه الصحراوية	٢٦٠	-٠ر٤	-١ر٠	٠ر١
آسيا	٢١٠	١ر١	١ر٠	١ر٢
بلدان الدخل المتوسط المستودة للبترول	١٧١٠	١ر٣	١ر٢	٣ر٤
شرق آسيا والباسفيك	١٢٤٢	٥ر٧	٤ر٣	٦ر٠
أمريكا اللاتينية والكاريبى	١٨٢٠	٣ر٤	٢ر٣	٣ر٢
شمال افريقية والشرق الأوسط	٨٥٠	٣ر٤	٢ر٣	٣ر٢
بقية افريقيا	٥٢٠	٠ر٤	٠ر٠	٠ر٣
جنوب أوربا	٣٠٧٠	٢ر٩	١ر٧	٣ر٣
البدان النصاعية	١٠٦٦٠	٢ر٥	٢ر٩	٣ر١
الصين**	٢٦٠	٤ر١	٢ر٩	٤ر١

* لاتشمل جنوب افريقيا

** اجمالى الناتج القومى بالنسبة للفرد فى الصين يتصل بعام ١٩٧٩ بأسعار الدولار فى ١٩٧٩ أما معدل النمو فهو بالنسبة للسنوات ١٩٧٠/١٩٧٩ .

ومنذ أكتوبر ١٩٧٤ طرحت فكرة إقامة حوار بين الدول الغنية والدول الفقيرة أوبين مايسمى بدول الشمال ودول الجنوب، وقد طرحت من جانب الرئيس الفرنسى السابق (ديستان). ومن المعروف أن هذا الاقتراح جاء فى أعقاب التغيرات المتلاحقة التى شهدتها السوق العالمية للبترول، وتباين القوة التساومية بصورة نسبية بين الدول النامية المنتجة والمصدرة للمواد الأولية بصفة عامة وبين الدول الصناعية المتقدمة .

ومنذ ذلك التاريخ وحتى ١٩٧٥/١٢/١٧، كانت الجهود المكثفة على الصعيد الدولى من أجل انعقاد المؤتمر الذى افتتح رسميا فى العاصمة الفرنسية بعد خمس عشرة شهرا من طرح الفكرة ، ولابد أن نشير فى هذا الصدد، إلى أن الخلاف بين الدول الصناعية المتقدمة والدول النامية حول القضايا التى يتعين إدراجها فى هذا المؤتمر، كان من أهم الأسباب التى أدت الى تعطيل انعقاده حتى لحظة افتتاحه، فبينما كانت الدول المتقدمة ترى حصر الحوار فى نطاق (الطاقة) وكفى، كانت وجهة نظر دول منظمة الأوبك تنصرف إلى ضرورة تمثيل جميع دول العالم الثالث وأن تشمل القضايا المطروحة .. موضوع الطاقة إلى جانب قضايا التنمية والموارد الأولية .

ومنذ ديسمبر ١٩٧٥ حتى ١٩٨٠، مر أكثر من خمسة أعوام عقدت خلالها سلسلة من الجلسات الخاصة باللجان الأربع المنبثقة عن المؤتمر الأول للحوار بين الشمال والجنوب ، وقد دامت الاتصالات فى هذا الإطار أكثر من ثمانية عشر شهرا، ولكن النتيجة النهائية . لاشئ يعتد به، وعلى الرغم من أنها كانت محصورة فى مناقشات سبع وعشرين دولة بعيدا عن أروقة الجمعية العامة للأمم المتحدة، وهو الطلب الأساسى الذى أكدت وأصرت عليه الولايات المتحدة الأمريكية وحمل لواء هذه الدعوة وزير خارجيتها السابق (كسنجر) .

إلا أنه يجب ألا نغفل الجانب السياسى فى هذا التحرك من جانب الدولة المتقدمة التى شعرت بتزايد أهمية الدور الذى تلعبه الدول النامية على صعيد الأمم المتحدة وبخاصة فى إطار الجمعية العامة ومؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية (الإنكتاو)، ومن هنا كان سعيها إلى إبعاد المنظمة الدولية بعيدا عن نطاق الحوار، ونفس الوضع بالنسبة للمنظمات الاقتصادية الدولية(١٠).

وقد كان إصرار الدول المتقدمة الغنية على أن تكون المحصلة العامة لأية اتفاقيات دولية أو اقتصاديات مقترحة للنظام الاقتصادى الدولى الجديد فى صالحها بالقدر الأكبر السبب الأساسى فى تعثر جلسات الحوار التى وصلت إلى طريق مسدود بعد عام ونصف من المناقشات العقيمة .

ونفس الوضع ينطبق على الدورات الخاصة التى عقدتها الجمعية العامة للأمم المتحدة منذ أبريل سنه ١٩٧٤ والتى بلغت حتى عام ١٩٨٠ إحدى عشرة دورة، فقد أثبتت خلال دورتها التى عقدت فى الفترة من ٨/٢٥ حتى ١٩٨٠/٥/٥ فشلها فى التوصل إلى أية اتفاقيات بين الدول النامية والدول المتقدمة، الأمر الذى حذر من خطورته السكرتير العام للأمم المتحدة .

وقد كانت السمة الغريبة لمؤتمر (كانكون) كمؤتمر لقمة الشمال والجنوب هى الثمن الذى اشترطه «ريجان» حتى يتنازل عن موقفه السابق بعدم حضوره وحتى يخفف من لهجته المتشددة. ومع ذلك فقد استمرت الولايات المتحدة فى استخدام سياسة العصا الغليظة تجاه دول العالم الثالث[١١] :

- فقد أعلن مدير وكالة التنمية الدولية الأمريكية أمام لجنة استماع مشتركة فى الكونجرس أن الوكالة لن تساهم بعد الآن فى تقديم المساعدة المالية لتنفيذ مشروعات التنمية الضخمة لأنها ليست وكالة للرفاهية الدولية كما أن برامج المساعدات الغذائية ليس فى صالح الدول التى تتلقاها .

- وفى ذات الوقت أجرى مجلس الشيوخ تعديلا على قانون برامج المساعدات الخارجية ينصرف إلى مطالبة الرئيس بحجب هذه المساعدات إذا كانت الدولة المستفيدة بصدد تطوير قدراتها النووية، ويمكن أن تملك أسلحة منها . وقد كان الهدف الأساسى من هذا التعديل تقييد حركة باكستان فى هذا الصدد .

- يبدو التناقض فى السياسة الأمريكية تجاه العالم الثالث، إذا نظرنا إلى التقرير الذى أعلنه مؤخرا معهد بحوث السلام فى استكهولم، والذى أشار إلى الولايات المتحدة التى احتلت المرتبة الأولى فى قائمة صادرات الأسلحة الثقيلة خلال الفترة من ١٩٧٧ حتى ١٩٨٠ حيث فازت بنسبة ٣ر٤٪ من إجمالى مبيعات الأسلحة فى العالم، وقد كانت أسواق الدول النامية هى المجال الرئيسى لتصريف صادرات الأسلحة الأمريكية، فقد استوعبت دول الشرق الأوسط نسبة ٣١٪ ودول جنوب شرقى آسيا ٤ر١٠، وذلك إلى جانب دول شمال وجنوب افريقيا والصحراء[١٢] .. الخ

ولم تكن هذه الهوة أو هذا الأخدود (قدرا) فرضته طبيعة بلدان العالم الثالث إنما هو محصلة أساليب واستراتيجيات ومخططات استعمارية لخنق هذه الدول، وفى أحسن الأحوال تحويلا إلى خادم يتبع ولايقود، وهذا مانحاول أن نوضحه فيما يلى:

الحصار !!

... فلم يكن من الممكن محو تأثيرات الاستعمار ببساطة بمجرد ظهور إعلان بالاستقلال ففرض الاستعمار توجيه هياكل الانتاج والتجارة المحلية لخدمة مصالح التصدير الضعيفة وجرى قطع أو تدمير التجارة الداخلية التى كان يمكن أن تفيد كوسيلة للتطور المستقل ، ودمرت الصناعات المزدهرة التى تخدم الأسواق المحلية، وقضى هجوم المنسوجات الرخيصة من مصانع نسيج لانكشير على غازلى وناسجى القرى المهرة فى الهند وافريقية وأصبحت بلدان بأسرها مرادفة لاسم مدينة واحدة هى العاصمة، أو إذا كانت هذه مدينة داخلية، فاسم العاصمة وميناؤها، ولم تتطور أبدا الاتصالات والتجارة الداخليتان، ويكتب الأمريكى اللاتينى (ادوارد جاليانو) EDUARDO GALEANO بصورة لاذعة :«ليس للبرازيل اتصالات أرضية دائمة مع ثلاث من جاراتها : كولومبيا، وبيرو، وفنزويلا .. مازالت كل دولة أمريكية لاتينية تتوحد مع ميناؤها، وهذا إنكار لجذورها وهويتها الحقيقية لدرجة أن كل التجارة بين الدول تقريبا تذهب عن طريق البحر : فالنقل البرى غير موجود تقريبا[١٣] .

إن هناك نتيجة من نتائج نظام المزارع الضخمة للاستعمار يتجاهلها الناس عادة، مع أنها ربما كانت أخطر نتائجه، وهى أن تضييق خبرة الزراعة إلى عمل المزارع خصوصا فى محاصيل الأشجار قد قام عبر أجيال بتجريد شعوب كاملة من مهارات الزراعة الأساسية، وبالإضافة إلى ذلك من الأصعب اليوم على الناس أن يعودوا إلى زراعة الغذاء الذى يحتاجونه لأن الزراعة أصبحت مرتبطة فى أذهانهم بالبؤس والانحطاط

ولقد كان نقل الناس من جنس وثقافة معينة إلى العمل فى المزارع فى بلد آخر استراتيجية أساسية للاستعمار فى كل أجزاء العالم، وأدى ذلك إلى تجميع أناس من خلفيات جنسية وثقافية مختلفة فى ظروف شديدة القسوة، وقد كانت العداوات والاختلافات العرقية بين العمال دائما لصالح المستعمرين للسيطرة على قوة العمل، وليس من المستغرب أن هذا الاختلاط القسرى للأجناس والثقافات قد خلف ميراثا من التوترات الاجتماعية يجعل التعاون والوحدة الاقتصاديين شبه مستحيلين . ومن خلال هجرة البشر القسرية، ومن خلال تحريض جنس على آخر من أجل الفتات المتساقط من المائدة الاستعمارية ضرب الاستعمار، التطور القائم على التعاون المتبادل[١٤] .

والمشكلة هنا هى أن الأساليب الاستعمارية القديمة لاستنزاف البلاد المتخلفة ، مثل الاحتلال العسكرى والنهب المباشر للموارد، والعقود الجائرة والامتيازات الأجنبية والسخرة ...

الخ) لم تعد ممكنة فى ظل ظهور الكيانات المستقلة سياسيا للدول المتخلفة، وفى ظل تعاظم قوة الدول الاشتراكية فى الاقتصاد العالمى، ولهذا فإن الاستراتيجية الجديدة التى رسمتها الدول الرأسمالية تتجاوز الأساليب الاستعمارية القديمة ولكنها فى نفس الوقت أفرزت أساليبا أشد شراسة وأكثر إحكاما ضمن السياق العام الذى رسمته للخروج من أزمتها الراهنة . وتنبع أهمية الإحاطة بتلك الأساليب فى أن غالبية اقتصاديى الدول المتخلفة وخصوصا محترفى الاقتصاد، فضلا عن ساسة هذه الدول، لا يدركون الأبعاد الخطيرة لتلك الأساليب وهى ترسم فى النهاية صورة ذلك المستقبل البشع الذى ينتظر بلادهم لو استمرت تلك الأساليب فى العمل دون رادع أو مقاومة .

ولو أمعنا النظر فى الجوانب المختلفة لهذه السياسة الاستعمارية، لتبين لنا أن هناك أربع خطوط عمل أساسية تتحرك فيها هذه السياسة بشكل ضارى ولا هوادة فيه . وتشير المتابعة المتأنية لسير تلك الخطوط إلى أن الرأسمالية العالمية قد حققت من وراء ذلك نتائج إيجابية، وبالقدر الذى تزايدت فيه هذه النتائج الإيجابية للدول الرأسمالية بالقدر الذى حوصرت فيه جهود التنمية بالبلاد المتخلفة وبالقدر الذى نما التخلف فيها. وحتى ندرك ذلك نعرض فيما يلى تلك الخطوط فى عجالة سريعة[١٥] :

الخط الأول، يتمثل فيما يمكن أن نطلق عليه (تدويل الطبقة العاملة) داخل محيط العالم الرأسمالى تماما، كما حدث بالنسبة لتدويل رأس المال . والمقصود بذلك، أنه فى ظل الارتفاع النسبى الواضح الذى طرأ على مستويات الأجور المحلية فى غالبية الدول الرأسمالية المتقدمة كنتيجة لتعاظم قوة النقابات العمالية، وتزايد المكاسب المختلفة التى انتزعها العمال من خلال معاركهم الطويلة مع رأس المال، عمدت كثير من الدول الرأسمالية إلى مواجهة هذا الارتفاع فى أجور العمال المحليين من خلال الترحيب باستقبال القوى العاملة من البلاد المتخلفة والبلاد الأقل تقدما .

- أما الخط الثانى، فيتمثل فى ذلك الاستنزاف الهائل الذى مارسته الدول الرأسمالية لموارد البلاد المتخلفة من خلال الارتفاع المصطنع فى الأسعار العالمية لغالبية السلع التى تستوردها تلك البلاد، يصدق ذلك على السلع الاستهلاكية والسلع الوسيطة والسلع الانتاجية، وهو الأمر الذى تبلور فى تدهور معدل التبادل الدولى للبلاد الغير منتجة للبترول .

- أما الخط الثالث ، وهو ذو وصلة بالخط الثانى، فتمثل فى إغراق البلاد المتخلفة فى مستنقع عميق من الديون الخارجية، وهو ماسنفصله فيما بعد .

- الخط الرابع : الغزو الوحشى الذى مارسته الشركات الاحتكارية الدولية لمواقع

الاستثمار المختلفة فى تلك البلاد [١٦] .

وقد يبدو لأول وهلة من المتابعة المبدئية للتنفيذ العملى لتحركات المراكز الرأسمالية فى تشديد استغلالها للبلاد المتخلفة، أن تلك التحركات قد تحققت فى هذا البلد أو ذاك بشكل عشوائى دون أن يسندها فى ذلك إطارات أعم وأوسع خططت بشكل مسبق و دقيق لهذه التحركات، وساعدت المراكز الرأسمالية العالمية على التنفيذ الناجح لها، وهذا أمر غير صحيح، ذلك أن إمعان النظر فى هذه القضية، يوضح لنا كيف أن الرأسمالية العالمية كانت تدرك بشكل واع أهمية البلاد المتخلفة بالنسبة لها فى تسهيل مهمة الخروج من أزمتها، وهنا يمكن أن نميز بين نوعين أساسيين من جماعية التحرك للرأسمالية العالمية فى رسم وتنفيذ هذه الاستراتيجية[١٧] :

النوع الأول، هو تلك الأفكار المحددة التى اتفق عليها واضعو التقرير الخطير المعروف باسم (تقرير لستر بيرسون) وخطورة هذا التقرير هو أنه رسم لأول مرة وبشكل محدد وعلى أساس عالمى الأسس المطلوب توافرها بالبلاد المتخلفة فى صدر تعاملها مع الاستثمارات الأجنبية الخاصة . وقد وجدت الأفكار المحددة الواردة بهذا التقرير صداها عمليا فى عدد لا بأس به من الدول المتخلفة (ومن بينها مصر) وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك طبعة عربية لهذا التقرير صدرت بالقاهرة سنه ١٩٧١ تحت عنوان : (ماذا يجرى فى العالم الغنى والعالم الفقير - شركاء فى التنمية) .

والنوع الثانى هو تلك الشروط والمبادئ التى طورتها المنظمات الاقتصادية الدولية وبالذات صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى فى صدر تعاملها مع البلاد المتخلفة. وخطورة هذه الشروط والمبادئ هى أنها أصبحت تعطى لهذه المنظمات حرية التدخل فى الشئون الداخلية للبلاد المتخلفة التى تضطر للتعامل معها، وهو تدخل لم يعد يشمل ميزان المدفوعات وضمانات حركات رؤوس الأموال طويلة الأجل، بل تعدى الأمر ليشمل التدخل فى رسم كثير من السياسات الاقتصادية والاجتماعية لهذه البلاد، مثل السياسات المالية، وسياسات التوظف والاستثمار وسياسات التجارة الخارجية وسعر الصرف والسياسات النقدية والائتمانية، وسياسات التسعير والأجور والإعانات .. الخ .

ومنذ نشأت الرأسمالية كنظام عالمى، وهى تسعى دائما لأن تخضع العالم أجمع لمتطلبات نموها وشروط حركتها، وكان (تكييف) الأجزاء غير الرأسمالية فى مختلف أنحاء المعمورة لكى تتلاءم مع الحاجات المتغيرة للمراكز الرأسمالية شرطا ضروريا لاستمرار بقاء الرأسمالية

وديمومة نموها، تلك حقيقة راسخة تعلمنا إياها دروس التاريخ المستخلصة من التأمل الواعى فى المراحل المتتابعة التى سار فيها تطور الرأسمالية العالمية منذ ظهورها وحتى الآن، فكل مرحلة من هذه المراحل كانت تقابلها درجات ونوعيات معينة من عمليات التكييف التى فرضتها الرأسمالية العالمية على مختلف أنحاء العالم، ومن خلال عمليات التكييف هذه كان يفرض على البلاد المتخلفة مجموعة محددة من الوظائف التى تؤديها استجابة لحاجة المراكز الرأسمالية، ولهذا فان مصطلح عمليات التكييف Adjustment Proceses الذى راج مؤخرا فى كتابات المنظمات الدولية، وعلى الأخص فى كتابات الصندوق الدولى والبنك الدولى، لايشير إلى ظاهرة جديدة، بل الحقيقة إلى ظاهرة قديمة قدم النظام الرأسمالى نفسه. ومن هنا فإن منطق التحليل العلمى الدقيق يتطلب منا أن نعى التجارب التاريخية لعمليات التكييف الدولية المختلفة التى فرضتها الرأسمالية العالمية إبان مراحل تطورها المتعاقبة على البلاد المتخلفة لكى نستخلص منها الدلالات النظرية والعملية لفهم عمليات التكييف المعاصرة التى تحاول الرأسمالية العالمية فرضها الآن على البلاد المتخلفة فى ظل أزمته المعاصرة، ذلك أننا نفهم التاريخ باعتباره علم فهم الماضى بهدف إمكان السيطرة على المستقبل، ومن خلال هذا الفهم يجب أن ندرس التاريخ الاقتصادى وتاريخ الفكر الاقتصادى[١٨] .

المصيدة !!

والحقيقة أن التأمل فى طبيعة المرحلة التى تجتازها مجموعة البلاد المتخلفة ضمن السياق العام لأزمة الاقتصاد العالمى الرأسمالى واستراتيجية الخروج منها يبين لنا أن وسيلة التكييف الرئيسية التى تعتمد عليها الرأسمالية العالمية فى تطويع وتكييف البلاد المتخلفة هى الأزمات الطاحنة لموازين مدفوعاتها التى تحولت مع هذه الأزمة إلى مايشبه الكوارث المستعصية . وقد شدت هذه الأزمات تلك الدول إلى دوامات عنيفة من الديون الخارجية التى أصبحت تدور فيها بلا نهاية وتشكل الآن حلقة من حلقات إعادة شروط التخلف وتحديد علاقات التبعية فى هذه الدول، وليس يخفى على القارئ أن حالة ميزان المدفوعات لأى بلد تعد إلى حد كبير مرآة صادقة لحالة الاقتصاد القومى لهذا البلد لأنها تعكس علاقات القوى والضعف بين هذا الاقتصاد والعالم الخارجى، ومن هنا توجد علاقة قوية بين حالة ميزان المدفوعات وبين الحالة التى تكون عليها المتغيرات الأساسية للاقتصاد القومى، مثل الإنتاج والاستهلاك والادخار والاستثمار والاستيراد والتصدير .. الخ .

ولسنا نقول جديدا إذا ماذكرنا أن الاقتصاد القومى (وهذه هى الحالة النموذجية بالنسبة لغالبية الدول المتخلفة) حينما يستهلك ويستثمر ويستورد بشكل أكثر مما ينتج ويدخر ويصدر،

فإنه لابد وأن يكون ميزان مدفوعاته فى حالة عجز، فالعجز هنا يعنى ببساطة شديدة أن الاقتصاد يعيش ويستهلك بأكثر من موارده الحقيقية وهو الأمر الذى يجد ترجمته فى النهاية فى تزايد ديونه الخارجية[١٩]. وتشير آخر الاحصاءات إلى أن إجمالى المديونية المستحقة على الدول النامية ودول الكتلة الشرقية قد بلغت رقما فلكيا يزيد على ٨٥٣ مليار دولار وهو مايزيد ١٤ مرة عن احتياطى رأس المال لدى المنظمات النقدية الدولية (٦٧ مليار دولار) ويتعين على حوالى مائة دولة أن تقوم بسداد هذه الديون كاملة فى غضون السنوات الثلاث التالية (لو موند دوبلماتيك . نوفمبر ١٩٨٢) .

كذلك تشير التقارير أيضا إلى أن ٢٤ دولة من دول العالم الثالث وأوربا الشرقية قد أصبحت مشرفة على الإفلاس بعد أن ارتفع حجم المديونية المستحقة عليها بحوالى مائة مليار دولار جديدة فى غضون عام ١٩٨١ فقط. والجدول التالى يوضح لنا تطور ديون الدول النامية غير البترولية :

جدول رقم (٢) لتطور الدين الخارجى للدول النامية غير البترولية[٢٠] (بالمليار)

السنة	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١
الدين الكلى	٩٧ر٣	١٢٠ر٦	١٤٧ر١	١٧٦ر٥	١٧٦ر٧	٢١٦ر٧	٣٢٢ر٧	٣٧٠ر١	٤٢٥ر٢
رسمية (١)	٤٩ر١	٥٩ر٣	٦٩ر٣	٨١ر٢	٩٧ر٨	١١٧ر٨	١٣٤ر٨	١٥٥ر٨	١٨٠
من اقطاع الخاص	٤٨ر٣	٦١ر٢	٧٧ر٩	٩٤ر٤	١١٨ر٩	١٥٤ر٩	١٨٨	٢١٤ر٣	٢٤٥ر٣
خدمة الدين	١٦ر١	١٧ر٥	٢١ر٤	٢٣ر٨	٣٠ر٣	٤٣ر٧	٦٠ر٥	٧٥ر٢	٩٦ر٤
نسبته إلى الدين(٢)	١٤٪	١١٪	١٣٪	١٢٪	١٢٪	١٧٪	١٨٪	١٨٪	٢٠٪

(١) حكومات ومنظمات دولية

(٢) العلاقة بين خدمة الدين (أقساط وفوائد) وبين الصادرات السلعية والخدمات .

ويظهر من الجدول زيادة الدين الإجمالى حوالى ٤ر٥ مرة من ٩٧ر٣ مليار سنه ١٩٧٣ إلى ٤٢٥ر٥ مليار دولار سنه ١٩٨١، وزادت نسبة خدمة الدين ست مرات من ١٦ مليار إلى ٩٦ مليار دولار سنه ١٩٨١ .

أما آثار هذه الديون على عملية التنمية، فخطيرة نشير إليها على النحو التالى[٢١]:

١- تشير الدراسات الاقتصادية إلى أن تزايد عبء خدمة الدين، فاق معدل التدفق السنوى للقروض الجديدة، أى أنه أصبحت هناك حالة انتقال عكسى للموارد من هذه الدولة المدينة

إلى الدول الدائنة لها، وبصورة متزايدة مما جعل العديد من الدول النامية تعقد قروضا جديدة من أجل سداد ديونها القديمة، أى أن الاستدانة أصبحت من أجل تنمية الديون لا من أجل التنمية الاقتصادية . ولعل هذه يقف جزئيا وراء هبوط معدل نمو الناتج القومى الإجمالى لكافة البلدان النامية من متوسط سنوى قدره / ٥ر٥٪ سنويا فى عقد الستينيات إلى ١ر٥٪ فى عقد السبعينيات .

٢- يشير الاقتصاديون أيضا إلى أنه إذا كانت قدرة الدولة على الاستيراد تتوقف إلى حد كبير على مدى توفر العملات الأجنبية وهى حصيلة الصادرات المتطورة وغير المتطورة، وإذا كانت خدمة الدين تلتهم نسبة متزايدة من هذه الحصيلة، فإن هذا معناه تقييد قدرة الدول النامية بصورة مطردة على استيراد المواد اللازمة لمشاريعها التنموية .

٣- وإذا كانت الحاجة إلى التمويل الخارجى تنشأ نتيجة لما يطلق عليه الاقتصاديون فجوة لتحقيق النمو المستهدف، فإن تزايد عبء الديون الخارجية على غالبية الدول النامية أدى إلى إضعاف قدرة هذه البلاد على تكوين المدخرات المحلية سواء لماتؤدى إليه هذه الأعباء من تخفيض حجم الفائض الاقتصادى الممكن ادخاره أو مايؤدى إليه تزايد الاعتماد على التمويل الخارجى من استرخاء فى جهود تعبئة المدخرات المحلية نتيجة النظر إلى هذا التمويل على أنه بديل لها لا مجرد عنصر مكمل، هذا بالإضافة إلى أثر المحاكاة وعدوى الاستهلاك الترفى ومايتج من مبدأ الاعتماد على الغير من تواكل وإسراف ومن ثم ضعف الميل الحدى الادخارى .

٤- اذا كان العجز فى موازين مدفوعات الدول النامية مقبولا فى المراحل الأولى للتنمية التى تقترن بالتوسع فى الاستيراد من أجل المشاريع الجديدة ، لكن أن يستمر هذا العجز وبنسب متزايدة، معناه الفشل فى تنمية قطاع الانتاج وهو مايعود فى جزء منه إلى أن القروض الخارجية غالبا ما تكون مشروطة باستيراد سلع أو خدمات من الدول المقرضة لا تكون هناك حاجة حقيقية أو ملحة إليها أو لا تكون أسعارها أو مواصفاتها هى المثلى، وفى ذلك استخدام للقرض فى تمويل تصدير سلع الدول المقرضة على حساب تحميل الدول المقرضة عبئا إضافيا[٢٢] .

الواقع أن مأزق دول العالم الثالث الفقيرة مأزق حرج للغاية، ومما يزيد هذا المأزق تفاقما وحرجا النظم السياسية القائمة فى هذه الدول والتى أصبحت تشكل عائقا أساسيا أمام التنمية حيث أصبحت الوسائل التى يمكن استخدامها لدعم اقتصاد هذه الدول، تستغل للحصول على

المزيد من الربح داخل هذه الدول من قبل طبقات بعينها ولتكثيف استغلال الطبقات الشعبية المطحونة فيها، وحيث تحكم الدول الغربية لكى تتخلى هذه الدول عن سياسة الحماية الجمركية وتجبرها على سياسة الانفتاح الاقتصادى الذى يؤدى إلى تخريب اقتصادها ونهبه وإلى تعميق أزمتها الداخلية، وحيث تستخدم الديون كأداة لتطويع إرادة هذه الدول والتدخل فى شئونها الداخلية وانتهاك سيادتها بل ورسم سياستها الخارجية وتحويل الأنظمة الحاكمة فيها إلى عرائس أو دمى تحركها لتحقيق أهدافها، وحيث يستخدم صندوق النقد الدولى كأداة لتطويع وتكييف السياسات الاقتصادية للدول الفقيرة بما يتلاءم مع المصالح الإقتصادية الغربية؟

ماهو الحل لمشكلة الديون إذن ؟ هل هو التقشف كما يقترح الصندوق ؟ وهل يطلب ممن يعيشون دون الكفاف أن يتقشفوا ؟ وماهى حدود هذا التقشف هل هو التقشف فى التسليح؟ أم فى دعم الأغذية ؟! ثم هل هو تقشف فى الخدمات كالصحة حيث يظهر الذين يقولون أن هناك أدوية ترفيهية أو هو تقشف فى التعليم .. الخ .. الخ

الواقع أن التقشف المطلوب لا حدود له ويشكل التفافا خطيرا على أهداف التنمية، فالتنمية تهدف أساسا إلى سد احتياجات أفراد المجتمع إن لم نقل أنها تهدف إلى الرفاهية الاجتماعية، وتهدف إلى زيادة مايتمتع به الأفراد من السلع والخدمات لا إلى الحد من ذلك، فغى ظل هذه النظرة يتحول هدف التنمية الأساسى إلى الاكتناز وزيادة المدخرات لا من أجل المزيد من التنمية، بل لسيادة الدين، أى يتحول هدف التنمية إلى جمع لقروش الفقراء لمنحها للأغنياء .

فهل يكون الحل هو تحويل الهياكل الإنتاجية لهذه البلاد حيث يتساءل البعض عن مدى حاجة هذه الدول للصناعات الثقيلة مثل الحديد والصلب .. الخ ؟ وهذا الحل العجيب يتناقض مع بديهيات الاقتصاد وينطوى على خطر تفاقم البطالة، ناهيك عن تأييد التبعية الاقتصادية، وعن تجاهل الصناعات القائمة بالفعل، كما أنه حل حتى لوتم الأخذ به لن يؤدى إلى سداد على المدى البعيد ، هذا إن كان حلا أصلا، فهل يكون الحل أمام الدول النامية هو زيادة صادراتها؟ من المعروف أن الدول النامية تتركز صادراتها فى المواد الخام الأولية وزيادة هذه الصادرات يعنى ببساطة زيادة المطروح منها فى الأسواق، ويعنى المزيد من انخفاض أسعار هذه المواد وفى البترول عبرة لمن يعتبر[٢٣] !!

واذا كانت الدول المتقدمة قد أبدت استعدادها لتقديم قروض لدول العالم الثالث من خلال المؤسسات الدولية أو الحكومية أو الخاصة، فإنما يرجع ذلك إلى دوافع أساسية نذكر منها[٢٤]:

١- محاولة الدول المتقدمة تعزيز مواقعها ونفوذها فى الدول النامية بالإبقاء على صيغة العلاقات الاقتصادية كما هى غير متكافئة لصالح الدول المتقدمة على حساب الدول النامية .

٢- عرقلة الدول المتقدمة لأى محاولة إيجابية تستهدف بها الدول النامية استثمار ثروتها الطبيعية والبشرية لصالحها وصالح أبنائها، فالدول المتقدمة عندما تقدم قروضا أو معونات للدول النامية إنما تحدد شروطها وفقا للأهداف التى ترمى إليها، فقروض الدول المتقدمة الغربية تستهدف إنشاء طرق وبناء قطارات وتشجيع السياحة ، أما مشروعات التنمية الحقيقية كالصناعات الأساسية أو الثقيلة، فإنها لاتشغل بال الدول المتقدمة ، وعلى سبيل المثال، فإن ٧٪ من المبالغ التى قدمها صندوق التنمية الأوربى إلى إفريقية كان مخصصا لإنشاء مؤسسات صناعية ومؤسسات للطاقة الكهربائية .

٢- تأكد الدول المتقدمة من أن أى قروض تقدمها إلى الدول النامية فى إطار الصيغة الحالية للعلاقات الاقتصادية بين المجموعتين ستعود بالتالى إلى الدول المتقدمة، ذلك أن الدول النامية فى معظم الأحيان تلتزم بتسوية القروض بعملة الدولة المقرضة، الأمر الذى يجعل الدول النامية .. وهى فى نفس الوقت تقوم بشراء احتياجاتها من هذه القروض من الدول المتقدمة، تعانى من عجز مستمر ومتزايد فى ميزان مدفوعاتها .

٤- أن الدول المتقدمة وقد تجمعت لديها تراكمات رأسمالية ضخمة تبحث باستمرار عن مجال لاستثمار هذه الأموال سريع العائد، مضمون النتيجة تستطيع من خلاله الدول المتقدمة أن تبقى على نفوذها فى الدول النامية، ومن هنا كان الهدف باستمرار إغراق الدول النامية فى الديون وفرض شروط غير مناسبة أو متكافئة للعلاقات التجارية مع الدول النامية . وخلال الفترة من ١٩٦٠ - ١٩٧٠ فقدت الدول الإفريقية وحدها أكثر من ٦٠٠٠ مليون دولار بسبب شروط التجارة غير المتكافئة التى فرضتها عليها الدول الاستعمارية، وخلال نفس الفترة، دفعت أمريكا اللاتينية إلى الولايات المتحدة فى شكل فوائد وأقساط للقروض مبلغا يصل إلى ضعف ماتسلمته أمركا اللاتينية من قروض !!

الموت البطئ !!

تشرح ورقة ترسم سياسة التنمية الريفية للبنك الدولى صدرت عام ١٩٧٥ كيف يجب على المشروعات أن تتعامل مع (النظام الاجتماعى) القائم . وتنص الورقة على أنه (فى عديد من البلدان) يكون تجنب معارضة أقسام قوية وذات نفوذ فى المجتمع الريفى أساسيا حتى لايجرى تخريب برنامج البنك من الداخل) .

ويخبرنا رئيسه فى ذلك الوقت (روبرت مكنمارا) بأن برنامج البنك الزراعى (لن يضع تركيزه الأول على إعادة توزيع الدخل والثروة بقدر ماهو ضرورى فى عديد من البلدان الأعضاء - بل بالحرى على زيادة إنتاجية الفقراء، وبذلك يساعد على اقتسام أكثر تكافؤا لفوائد النمو) .

لكن هل تفيد الفقراء زيادة إنتاجيتهم إذا استمر التجار ومقرضو النقود وغيرهم من المستغلين ينتزعون نصيب الأسد ؟ ألن تؤدى برامج البنك لتحسين إنتاجية أراضى إقليم (من خلال مشروع للرى مثلا) فى مجتمع تعمل بنيته ضد الفقراء إلى زيادة احتمالات شراء أراضى صغار الملاك أو التحامل عليهم وإخراجهم من الأرض بالقوة[٢٥]؟

ويتضح التزام البنك (بتجنب معارضة الأقوياء) حين نكتشف كذلك أن عديدا من برامجه الريفية لا تتظاهر حتى بمساعدة صغار الملاك ففى (الهجوم على الفقر فى العالم) ينص البنك على أنه يخصص النصف تقريبا من قروضه الريفية لصغار الزراع . ويبدو ذلك حسنا، لكن مهلا! إذ يعنى ذلك أن أكثر من نصف قروض البنك الريفية ستذهب إلى متوسطى الزراع وكبارهم .

هل من المستغرب إذا كانت خطط مشروعات البنك تختار عمدا أن تتجاهل الجذور الاجتماعية للفقر، ويبدو المرة بعد الأخرى أنها تحقق عكس الأهداف الموضوعة ؟ لنأخذ قرض البنك لحكومة بنجلاديش لتمويل حفر ٢٠٠٠ بئر، ولكل بئر طاقة رى لمساحة ٦٠ فدانا مما يتيح محصولا إضافيا من الأرز خلال فصل الشتاء الجاف فى شمال بنجلاديش . وطبقا لبيان صحفى للبنك، يخدم كل بئر ما بين ٢٥ و ٥٠ زارعا منضمين إلى جماعة رى تعاونية، لكن الباحثين المستقلين (بنس هارتمان) و(جيمس بويس) اللذين عاشا تسعة أشهر فى إحدى القرى التى يشملها المشروع وجدا ما لم يعد سرا على أحد فى القرية : إن البئر فى الواقع قد تحول ليصبح ملكا لشخص واحد، هو أغنى ملاك الأرض فى القرية، ولم تكن جماعة الرى التعاونية التى جرى التفاخر بها لتعدو أن تكون بضعة توقيعات جمعها المالك على قصاصة ورق !

وقد دفع البنك الدولى الحكومة فى بنجلاديش فى الحقيقة مبلغ ١٢ ألف دولار لكل بئر بينما دفع هذا المالك أقل من ٣٠٠ دولار مقابل بئره، معظمها رشاوى للمسئولين المحليين، وسوف يسمح المالك لصغار الزراع الذين يفلحون قطع أرض مجاورة باستخدام (مائه) - لكن بالسعر الذى يحدده . وهو سعر بالساعة يبلغ ارتفاعه حدا جعل القليلين وحدهم هم المهتمين به[٢٦] .

إن قضية استثمار رأس المال الأجنبى فى دول العالم الثالث كانت ولازالت مثار جدل

وحوار بين كثير من المفكرين السياسيين والاقتصاديين، فالبعض يرى أن الدول النامية ينبغى أن تفتح الباب على مصراعيه أمام رأس المال الأجنبى، والبعض الآخر يرى أن رأس المال الأجنبى خطر على الدول النامية. والرأى الأول يستند إلى أساس اقتصادى بحت ، والرأى الثانى يستند إلى أساس سياسى بحت، وكلا الرأيين الأساسيين مختلف عن الآخر ولكن، هل المشكلة تتعلق بالدول النامية وحدها أم أنها مشكلة تتعلق بالدول المتقدمة المصدرة لرأس المال ؟

وإذا أخذنا فى اعتبارنا أن الدول المتقدمة الغربية لا تصدر رأس المال إلى الدول النامية لإحداث التنمية وإنما لتحقيق مصالح الدول المصدرة لرأس المال فى المقام الأول، ومن ثم فإن مجالات استثمار رأس المال الأجنبى تتحدد وفق هذا الاتجاه أى فى مشروعات لا تعود بالتنمية الجادة الحقيقية على الدول النامية بقدر ماتعود بالربح الوافر وخدمة الأغراض الاقتصادية للدول المتقدمة .

وإذا أخذنا فى الاعتبار أن الدول النامية عاشت مع رأس المال الأجنبى والاحتكارات الأجنبية تجارب قاسية ومريرة طوال فترات رزحت فيها الدول النامية تحت نير استغلال مقيت مارسته الدول المتقدمة .

وإذا علمنا مثلا أن معظم صادرات رؤوس الأموال القادمة من الدول المتقدمة كانت مثلا نتيجة للاستثمار فى مجال البترول، بكافة أنشطته لخدمة مصالح الدول المتقدمة التى كانت تفرض لها السعر الذى تريده .. فإنه يمكن أن نتصور مدى ماتعرضت له الدول النامية من استغلال نتيجة استثمار الدول المتقدمة فى رؤوس أموالها فى دول العالم الثالث[٢٧] .

إن رأس المال الأجنبى لايترك موطنه الأصلى ابتغاء مرضاة الله بحثا عن مجال للاستثمار ينال منه ثوابا فى الآخرة .. ولكنه يبحث عن مجال للاستثمار يدر عليه أكبر عائد ممكن .. ولا يهمه إن كان ذلك يخدم البلد القادم إليه أو يؤدى إلى تنميته !!

إنه طبقا للدراسة التى نشرتها منظمة العمل الدولية، فإن الاستثمارات التى تقوم بها الشركات الأجنبية على صعيد العالم لا تتجه إلى الدول الأفقر، كما لاتستجيب للقطاعات الأشد احتياجا إليها، داخل الدولة الواحدة، فقد بلغ حجم الاستثمارات الأجنبية المباشرة فى العالم الثالث ٧٦ مليار دولار فى نهاية سنه ١٩٧٦ تم تخصيص ٤١ مليار دولار منها للاستثمار فى عشرة دول من الدول الأكثر تقدما داخل نطاق هذا العالم، حيث حصلت البرازيل على ٧ر١٠ مليار دولار بغض النظر عن احتياجاتها الفعلية والتى تختلف اختلافا واضحا عن وضع إفريقيا التى لم تحصل سوى على نسبة ١٤٪ من هذه الاستثمارات[٢٨]

أما فى سنه ١٩٧٩، فقد توزعت الاستثمارات الأمريكية فى الخارج بما يخدم الأخوة الأغنياء أكثر ، وأضعف الايمان، متوسطى الغنى، فالدول النامية فى مجموعها لم تستقطب من هذه الاستثمارات إلا ٨ر٧ مليار دولار مقابل ٧ر٧ خلال نفس العام تم استثمارها فى كندا، كما بلغ حجم الاستثمارات الأمريكية فى دول السوق الأوربية ١٦ مليار وفى الدول المتقدمة الأخرى ٣ره مليار خلال نفس العام . أى أن المستثمر فى كندا ودول السوق الأوربية من جانب الشركات الأمريكية خلال عام واحد، يعادل ٣٥٪ من حجم استثمارها فى الدول النامية على اتساع الرقعة الجغرافية التى تغطيها هذه الدول[٢٩].

وفى سنه ١٩٨٠، بلغ عدد المشروعات الأمريكية فى الخارج ٢٥٢ مشروعا بزيادة قدرها ٩١ مشروعا عن عددها سنه ١٩٧٩، وعلى الرغم من عدم توافر البيانات حول قيمة هذه المشروعات خارج نطاق الولايات المتحدة، إلا أن ٥٤٪ من عدد هذه المشروعات بلغت قيمتها أكثر من ١٨ مليار دولار . وبالنسبة للتوزيع الجغرافى لهذه المشروعات، فقد كانت على أساس ٤٤٪ منها فى أوربا الغربية ٢ر٢٠٪ فى كندا، بالاضافة إلى ١٨٪ فى آسيا و ١٢٪ فى أمريكا اللاتينية. وقد كانت صناعة الكيماويات هى القطاع الرئيسى الذى استقطب الشطر الأكبر من الاستثمارات الأمريكية فى الخارج حيث حصل على نسبة ٢٩٪ من عدد المشروعات سنة ١٩٨٠، وكانت بريطانيا فى مقدمة الدول الأوربية التى حصلت على الاستثمارات الأمريكية (٣٠) مشروعا، - تليها ايرلندا واليابان حيث حصل كل منهما على ١٩ مشروعا[٣٠] .

هذا بالنسبة للاستثمارات الأجنبية، فماذا عن المعونات ؟

ليس الخطر الأساسى فى الاعتماد على المعونات الأجنبية هو فى تقييدها بالشروط، اقتصادية كانت أو عسكرية أو سياسية، ولا هو فى أنها اتسمت بسوء التوزيع بحيث كانت أكثر الدول المتخلفة حظا منها هى من أقل الدول حاجة إليها، وإنما يكمن اعتراضنا الأساسى فى تصور البعض أن مشكلة العالم الثالث يمكن أن تحلها زيادة كمية المعونات الأجنبية أو تحريرها من القيود[٣١] .

إن أصحاب التنمية المستقلة يرون على العكس أن الإفراط فى الاعتماد على المعونات الأجنبية من شأنه أن يفرض على الدول المتلقية للمعونة نمطا معينا من أنماط النمو ليس هو أنسب الأنماط لها، ذلك أن الدول الصناعية لم تبذل حتى الآن ولا يمكن أن نتصور أن تبذل، جهدا يذكر فى جعل السلع التى تحصل عليها الدول المتخلفة عن طريق المعونات أكثر ملاءمة لظروف هذه الدول الاقتصادية، ومن ثم فإن هذه السلع تتميز فى أغلب الأحيان بكثافة عنصر

رأس المال وقلة ماتحتاجه من أيد عاملة، كما تتميز فنون الانتاج المرتبطة بها باعتمادها الكبير على الاستيراد، وبقلة ملاءمتها لاستخدام الموارد الأولية والوسيطة المتوفرة محليا، فالإفراط فى الاعتماد على المعونات الأجنبية لايساعد على نشوء أو تطوير فنون إنتاج محلية، ولايخلق فرصا كبيرة لتشغيل العمل المتعطل، ولايسمح بخلق طلب واسع على السلع الوطنية[٣٢] .

أما بالنسبة للخبراء الأجانب، فحقيقة الأمر أن الخبير الأجنبى سواء كان مهندسا استشاريا أو خبيرا فى التخطيط أو فى صياغة مشروعات التنمية أو فى إعداد دراسات الجدول لا يمكنه أن يقدم للدولة المتخلفة ماليس فى حوزته، فأيا كانت درجة صدق نيته فى خدمة الدولة التى يذهب لمساعدتها، فإن المعرفة الوحيدة التى يتقنها هى معرفته بفنون الإنتاج الغربية، وليس هناك طائل من أن نطلب منه أن يقدم فنا من المشورة غير ما يمليه عليه هذا النوع من المعرفة، أما الخبراء الذين ينتمون إلى العالم الثالث نفسه، فمن المذهل أن نلاحظ كيف يفقد هؤلاء حساسيتهم لمشكلات بلادهم ومتطلباتها بمجرد أن يمارسوا أعمالهم لدى المنظمات الدولية، فإذا بالخبير الهندى أو العربى بمجرد انتسابه لمنظمات هيئة الأمم المتحدة يتكلم عن بلاد العالم الثالث بلسان الغريب الذى لم يعش قط هذا النوع من البلاد، والذى يزيد الطين بلة، أن هذه المنظمات فى توزيعها لهؤلاء الخبراء بين بلاد العالم الثالث تتبع نظاما من شأنه أن يضمن ولاء الخبير لا للبلد الذى يرسل إليه لتقديم المشورة ، بل لفكر المنظمة وفلسفتها، فإذا باقتصادى مصرى مثلا ترسله الأمم المتحدة لتقديم المشورة لدولة كالهند فيما يجب أن تتضمنه الخطة الخمسية الهندية بينما يأتى اقتصادى هندى ليخبر وزير الاقتصاد المصرى بما يجب أن تكون عليه سياسة مصر الاقتصادية[٣٣]!!

أزمة التنمية فى العالم الثالث:

هانحن نقف بين عقدين من التنمية، محاولين قطف الثمار، كما أننا ببساطة لا نعرف ما إذا كانت المشكلات المرتبطة بالفقر الموقع قد زادت أم تناقصت، أو ماهو التأثير الحقيقى الذى يمارسه نمو الناتج القومى الإجمالى على هذه المشكلات . نحن نعرف بالفعل أن معدل النمو مقاسا بالزيادة فى الناتج القومى الإجمالى، كان باعثا على الاحترام فى الستينات، وبخاصة بالمعايير التاريخية، ونعرف أيضا أن بعض البلاد النامية قد حققت معدلا عاليا حقا للنمو عبر فترة طويلة . ولكن هل أحدث هذا المعدل أثرا عميقا فى مشكلات الفقر الجماهيرى ؟ هل أسفر عن انخفاض فى أكثر أشكال الفقر سوءا – سوء التغذية، المرض، الأمية، السكان الذين لا مأوى لهم، الإسكان القذر ؟ هل كان يعنى عمالة أكثر ومساواة أكبر فى الفرص ؟ هل كان

طابع التنمية يتطابق مع ماتريده الجماهير حقا[٢٤] ؟

فى اعتقادنا أن التنمية تمر اليوم بمتاعب خطيرة وعلامات ذلك كثيرة :

- بعد عقدين من التنمية، نجد أن المنجزات هزيلة تماما . وعندما ننأى بأنفسنا عن الأرقام المحيرة لمعدلات النمو، سنجد أنه بالنسبة لحوالى ثلثى البشرية كانت الزيادة فى دخل الفرد أقل من دولار واحد طيلة سنوات عشرين ماضية .
- وحتى هذه الزيادة على تفاهتها الشديدة، لم توزع بطريقة مستوية، مع كون القطاع الأشد فقرا من السكان - ٤٠٪ منهم - يعتصر دون أمل فى صراعه من أجل البقاء، ويحصل فى بعض الأحيان على أقل مما كان يحصل عليه منذ عشرين عاما .
- تحولت بعض الحالات الناجحة للتنمية إلى كوارث تنمية ومن بينها باكستان ونيجيريا .
- يوجد (إرهاق تنمية) فى كثير من البلاد النامية اليوم مع ارتفاع الأصوات المطالبة بثورة اجتماعية واقتصادية، كما يوجد (إرهاق معونة) فى البلاد المتطورة اليوم، إلى جانب أصوات كثيرة تطالب بإنهاء المشاركة التى لم يكن فيه قط كثير من المشاركة .
- ومن أجل استكمال الصورة، فإن كثيرين من أنصار معدل للنمو قدره صفر ظهروا فى المجتمعات نفسها التى كان النمو ينظر إليه فيها دائما على أنه معبود مقدس، وقد بشروا فى البلاد النامية بفضائل الإلتزام الشديد بأهداف التنمية، مؤكدين مدى خطورة رد الفعل ضد النمو من أجل مصالح النمو[٢٥] .

فما الخطأ الذى حدث ؟

يؤكد (محجوب الحق) أن عملية التنمية قد انحرفت فى اتجاهين على الأقل[٢٦] :

أولها : أننا تصورنا مهمتنا لا على أنها القضاء على أسوأ أشكال الفقر، وإنما السعى وراء مستويات عالية معينة لدخل الفرد، وقد أقنعنا أنفسنا بأن النجاح فى هذا السعى يعد شرطا ضروريا للقضاء على الفقر، ولكننا فى الحقيقة لم نعط التفاعل بين الجانبين قدرا كبيرا من اهتمامنا وتفكيرنا، وقد تمكن اقتصاديو التنمية من إقناع البلاد النامية بأن الحياة تبدأ عند ألف دولار، ومن ثم فإننا لم نقدم لها أية خدمة . لقد كانت هذه البلاد تطار مستويات لدخل الفرد تبدو كالأشباح، وكانت تبدى اهتماما أكثر مما ينبغى بالمعدلات العالية لنمو الناتج القومى الإجمالى وتشغل نفسها باستمرار «بمقدار ما تم إنتاجه وبالسرعة التى تم بها هذا الإنتاج» ، ونعنى أقل كثيرا «بنوع ما أنتج وبالكيفية التى وزع بها» .

ثانيهما : أننا سلكنا طريقا خاطئا آخر يتمثل فى افتراض أن سياسيات توزيع الدخل يمكن فصلها عن سياسات النمو، كما يمكن إضافتها فيما بعد لتحقيق أى توزيع للدخل نرغب فيه . إننا الآن أكثر إدراكا لحقيقة أن نمط وتنظيم الإنتاج نفسه يمليان نمطا للاستهلاك والتوزيع يكون من العسير للغاية من الناحية السياسية تغييره .

إن المثال المحبب لدى الاقتصاديين حينما يتكلمون عن العلاقات بين زيادة الإنتاج وتوزيع الدخل هو مثال الكعكة حيث يدعوننا إلى التركيز على زيادة حجمها تاركين أمر توزيعها لوقت لاحق ويفترضون افتراضا خاطئا أننا متى نجحنا فى زيادة حجم الكعكة، فقد ضمنا أن يزداد حجم جميع الأنصبة . والملاحظة التى نريد أن نؤكدها هنا هى أن قرار التوزيع هو جزء لايتجزأ من قرار الإنتاج، وأن توزيع الكعكة مرتبط ارتباطا لا ينفصم بنوع الكعكة التى قمنا ابتداء بطهيها(٣٧) .

ولنأخذ مثلا بسيطا على ذلك، وليكن قرار إنشاء طريق جديد فى العاصمة، إن هذا القرار المتعلق بالإنتاج يتضمن فى نفس الوقت قرارا بالتوزيع، إذ أن هذا القرار يستبعد من استخدام الطريق كافة سكان الريف الذين لا تطأ أقدامهم أرض العاصمة قط . نفس الملاحظة تطبق على أى قرار يتعلق بتقديم خدمات كالطب أو الاسكان أو الخدمات الترفيهية التى تشترط بطبيعتها أن يقيم المستهلكون على قرب من مكان تقديمها، فإذا اتخذت قرارات بإقامة هذه الخدمات فى العاصمة، فقد استبعدت أيضا من استهلاكها الجزء الأكبر من السكان .

أضف إلى ذلك نوعا آخر من السلع التى تتطلب لاستهلاكها توافر سلع أخرى مكملة لها أو مستوى معينا من التعليم أو سيادة نوع معين من القيم لدى المستهلكين ، فالسلع الكهربائية مثلا هى منتجات عديمة القيمة لذلك الجزء من السكان الذين لم يصل إلى مساكنهم بعد التيار الكهربائى، كما أن الأفلام الأمريكية، لا يمكن أن يوزع بالتساوى استهلاكها بين المتعلمين والأميين !

كذلك فان قيام دولة متخلفة بتدريب أخصائى فى الأمراض النفسية الناشئة عن سكنى المدن أو اقتصادى متخصص فى التاريخ الاقتصادى للولايات المتحدة أو مهندسا متخصص فى أجهزة تكييف الهواء، هذه كلها ليست مجرد قرارات تتعلق بالإنتاج وحده بل تتضمن فى نفس الوقت تحيزا فى التوزيع ضد غالبية السكان الذين لا حاجة بهم إلى هذه الخدمات .

وقد جاء فى التقرير السنوى الذى ينشره البنك الدولى أن معظم الدول النامية ستحقق معدل التنمية الذى اعتادته خلال الفترة من ١٩٨٥ حتى عام ١٩٩٥، ويشير التقرير إلى أنه بعد أزمة سنه ١٩٢٨ الخطيرة عندما ازداد إنتاج الدول النامية فى مجموعها بمعدل أقل من معدل ازدياد السكان فيها، فإن عودة هذا المعدل للتنمية إنما يتوقف على ازدياد حجم التمويل العام والخاص مع الحد من إجراءات الحماية، ويتعين على الدول النامية بذل جهود كبيرة من أجل استخدام أفضل لمواردها .

ويلخص البنك الدولى هذه الاحتمالات فى سيناريو يستند إلى تحقيق معدل تنمية يقدر بنحو ٧ر٣٪ سنويا فى الناتج القومى الإجمالى للدول الصناعية خلال الفترة من ١٩٨٥ وحتى ١٩٩٥، وفى هذه الحالة سيبلغ معدل التنمية السنوى فى مجموع النامية حوالى ٥ر٥٪

وبالنسبة للدول النامية الأكثر تقدما ، فإن هذه الزيادة ستبلغ نسبتها ٧ر٥٪ بينما لن تشهد الدول الأكثر فقرا فى آسيا معدلات نمو إلا بنسبة ٩ر٤٪ سنويا ودول إفريقيا ٣ر٣٪ سنويا . وأشار التقرير إلى أن دخل الفرد فى إفريقيا السوداء سيكون فى عام ١٩٩٥ أقل مما كان فى عام ١٩٧٠[٣٨] .

وللإقتصادى الأرجنتينى الأصل (راؤول بربيش) وجهة نظر يؤكد فيها أن الأزمة الحقيقية تكمن فى نمط النمو والتنمية السائدان فى بلدان العالم الثالث[٣٩]، فوفقا لتحليله، بينما تعتبر الرأسمالية فى بلدان المركز (بلدان الغرب الرأسمالى) رأسمالية مجددة بالأساس، فإن رأسمالية بلدان المحيط تعتبر رأسمالية مقلدة بالأساس، ففى بلدان المحيط يتم نقل (تكنولوجيا الإنتاج) من بلدان المركز ويتم الأخذ بنفس (أنماط الاستهلاك) و (أسلوب الحياة) السائد فى بلدان المركز، كذلك يتم نقل مؤسسات وأيديولوجيات بلدان المركز إلى بلدان المحيط بشكل مستمر وإن كان مشوها، وبذا فإن (الرأسمالية الهامشية) فى بلدان المحيط هى رأسمالية تفتقد الأصالة لأنها رأسمالية مشوهة المعالم، إذ تشكلت معالمها من خلال علاقات التبعية والخضوع لهيمنة رأسمالية بلدان (المركز) .

وحسب تشخيص بربيش، فإن المشكلة الرئيسية للرأسمالية الهامشية هى عدم كفاية معدلات التكوين الرأسمالى مما ينتج عنه ضعف (الدنياميكية الذاتية) لعملية النمو الرأسمالى المتواصل . ويعدد بربيش ثلاثة ظواهر رئيسية مرتبطة بذلك[٤٠] .

١- الإسراف فى الاستهلاك الخاص والذى ينتج عن سلوك الفئات المرتفعة الدخل المندمجة فى مجتمع الاستهلاك الغربى .

٢- عملية الامتصاص المصطنع للعمالة الفائضة، ولاسيما لتلك الشرائح من قوة العمل التى تنتمى إلى الفئات المتوسطة التى نالت قسطا من التعليم من خلال سياسات الدولة فى مجال التوظيف

٣- ارتفاع حجم الدخول والعوائد التى تستخلصها (بلدان المركز) من عملياتها فى (بلدان المحيط) من خلال شبكة العلاقات الاقتصادية على الصعيد العالمى (مثل معدلات التبادل غير المتكافئ من التجارة الخارجية وتحويلات الأرباح وغيرها التى تقوم بها الشركات الدولية) مما يؤدى إلى تبديد جزء من الفائض الاقتصادى المتولد فى بلدان المحيط .

مظاهر الأزمة :

إن ماكشفنا عنه من مخططات استعمارية لحصار العالم الثالث وتمزيقه وخنقه، كان لابد أن يطفح العديد من صور التأزم التى نكتفى بأمثلة منها نسوقها فيما يلى :

- **انتشار الحروب الطائفية :** إنها ظاهرة كان من المفروض أن تثير الاهتمام إن لم يكن عالميا فعلى الأقل على صعيد العالم الثالث، ولكنها ضلت طريقها تحت وهم أنها مشكلة خاصة بدولة أو طائفة! الظاهرة هى انتشار الحروب الطائفية حتى كادت أن تغطى كل دول العالم الثالث أو على الأقل مواقع العصب المؤثر فيه[٤١] .

ففى لبنان وتشاد والهند وإيران والعراق وسوريا ولسلفادور وزيمبابوى ... سلسلة طويلة من الأحداث تمزق العالم الثالث فى هذه الأيام، قد يسهل التعليق عليها بأنها أحداث مؤسفة، وهى فعلا مؤسفة، ولكن ذلك لايفسرها ولا يقضى على انتشارها، وقد يسهل القول أنه شهادة بالتخلف، فهى حروب تمزق بسلاحها روابط جمعها الدم والمصير وتفضح بأنقاضها هالات كانت تخدع أبصار كثيرين وتفضح باستمرارها مواقف دول كان لها صوت يتغنى إما بالقيم والدين، وإما بالأيديولوجية والثورية وتسقط ببشاعتها دعاوى حضارية كان يتشدق بها متخلفون اجتماعيا وحضاريا، بل وعقليا .. هى مأساة لعالم يدخل فى ظلام مخيف ويحل على صدره شهادة مكتوبة على ضوء النجوم . نقول إن العالم الثالث يعود إلى مرحلة الكهوف أى ماقبل التاريخ حيث السيادة للخداع والكذب والحيوانات المفترسة .

ذلك كله صحيح ولكنه أيضا لايفسر المأساة ولا يوقف نزيف الدم ولسنا في مجال يسمح لنا بالتفسير الشامل، ولكنا نكتفي بعدد من الملاحظات[٤٢] :

- -أول هذه الملاحظات، أن هذه الحروب على غير ظاهرها، فهي ليست حروبا دينية أو صراعات لسيادة دين على آخر، بل نكاد أقول أنها يقينا حروب غير دينية وإن كانت ترفع رايات الأديان، وأوضح دليل على ذلك، القوى التي تساند أطراف الصراع، فالدعم مثلا للأطراف المسيحية يأتي في أغلبه من دول إسلامية، والدعم للأطراف الإسلامية يأتي من دول مسيحية أوربية، وذلك حين يكون الصدام مسلما مسيحيا، بينما نجد الدعم للأكراد يأتي من الشيعة في الأغلب، بل إن المواقع كثيرا ماتبدلت من هذا الطرف إلى الآخر والعكس !
- الملاحظة الثانية، أن كل محاولات احتواء هذه الحروب تنتهي بالفشل أمام إرادة غير مرئية تصر على استمرار هذه الحروب، فما أن يتم الوصول إلى اتفاق حتى تتبدل قوى الدعم، فالذي يؤيد المسلمين أصبح يقدم دعمه للمسيحيين والعكس صحيح ، وتتدفق الأموال والأسلحة، وكأن هناك قرارا يرقى إلى مستوى القانون والقدر يعمل على تمزيق العالم الثالث فلا يبقى منه إلا الأطلال، ولعل لبنان شاهد على ذلك .
- والملاحظة الثالثة، أن الصراعات الطائفية لا تندلع إلافي مواقع ثروة أو نقطة استراتيجية، فهي لم تندلع في الهند إلا حيث احتياطي الهند من البترول، وهي لم تشتعل في تشاد إلا حيث وجد اليورانيوم واكتشف البترول، وهو ماحدث من قبل في نيجيريا خلال حرب بيافرا منطقة البترول والمعادن، وفي إقليم تشابا في زائير حيث كل ثروة الكونغو المعدنية، أو في مناطق تعتبر جغرافيا مواقع استراتيجية[٤٣] في صراع دائر مثل لبنان، وكأن هذه المناطق وحدها هي التي تضم طوائف وأديانا متعددة .

- **عجز الدواء** : تواجه دول العالم الفقيرة عجزا في تجارة الدواء مع دول الشمال المتقدمة يصل إلى حوالي ٤ مليارات دولار سنويا، وذلك وفق تقرير أصدره مكتب اقتصاديات الصحة التابع لجمعية صناعة الأدوية البريطانية . ويشير التقرير الذي يحمل عنوان (الدواء، الصحة وعالم الفقراء) أن العالم استهلك خلال سنه ١٩٨٠ أدوية بلغت قيمتها ٨٠ مليار وفق أسعار التصنيع بلغت حصة الدول النامية منها ٢٠٪ على الرغم أن حصة الدول الأكثر فقرا تصل إلى حوالي من ١٠ إلى ١٥٪ من إنتاج الدواء العالمي . وأوضح التقرير أن حصة أوربا الغربية والولايات المتحدة واليابان تصل إلى حوالي ٦٠٪ من إنتاجها العالمي، بينما تغطي حصة الدول

النامية تلك واردات الأدوية، ويبقى السؤال مطروحا : هل من المعقول أن تدفع الدول الفقيرة ٤ مليارات دولار إلى دول الشمال الغنية ثمنا للدواء ؟ كما أن هناك سؤالا آخر حول ما إذا كان مقبولا أن تصل مشتروات الفرد من الدواء فى الشمال إلى ٧٠ دولارا سنويا، بينما استهلاك الفرد فى الجنوب لايتجاوز (٥) دولارات إن لم يكن أقل[٤٤] ؟

وتشكو الدول النامية من الشركات الدولية التى تقوم بتصدير الأدوية إليها حيث أنها تطالب بأسعار مبالغ فى ارتفاعها نظرا لانعدام المنافسة أو ضعفها من جانب الشركات الأخرى المنتجة للأدوية، فعلى سبيل المثال خلال شهر فبراير سنه ١٩٨٢، كان سعر المضاد الحيوى (ستربتو مايسين) فى جيانا يعادل ١٢ مثل السعر لنفس المضاد فى مصر، كما أن سعر الدواء الخاص بمقاومة مرض السل يبلغ سعره فى النيجر عشر أمثاله فى نيجيريا .

كما أن حكومات العالم الثالث لايمكنها القيام بالكثير للتأكد من أن الأدوية الرخيصة يتم اقتراحها للعلاج حيث أن حوالى ٩٠٪ من الأدوية التى يتم بيعها فى العالم الثالث من أجل الرعاية الصحية الخاصة، ومن ثم يفضل الأطباء وصف أدوية منتجة من قبل شركات دولية ذات اسم موثوق فيه، وقد تم تجربتها من قبل[٤٥].

- تفاقم مشكلة الغذاء : فعلى الرغم من زيادة انتاج الغذاء فى الدول النامية بنسبة ٥ر٢٪ سنويا فى الفترة من ١٩٥٠ - ١٩٧٥، إلا أن زيادة الطلب على الغذاء فى العالم الثالث ارتفع حوالى ٣٠٠٪ نتيجة زيادة عدد لسكان .

وتمثل الواردات الغذائية عبئا متزايدا بالنسبة للدول النامية، فقد زادت تكاليف إنتاج الحبوب والتى تعد أهم مصادر الغذاء، فأصبح من الصعب أن تقابل الدول النامية المستوردة للبترول الزيادة فى تكاليف الواردات الغذائية، وكانت قيمة الواردات الغذائية فى هذه الدول قد زادت حوالى ٧٪ خلال السبعينيات أى أكثر من ضعف الزيادة خلال الستينيات . وقدرت منظمة (الفاو) أن واردات الحبوب الغذائية فى الدول ذات الدخل المنخفض ستزيد من ٣١ مليون طن خلال منتصف السبعينيات إلى ٤٤ - ٤٨ مليون طن خلال ١٩٨٢/٨١، ويمكن أن تزيد إلى ٨٠ مليون طن بحلول سنه ١٩٩٠ .

وارتفع عدد الذين يعانون من نقص التغذية من ٣٦٠ مليون نسمة خلال ٦٠ - ١٩٧١ إلى حوالى ٤٩٠ مليون نسمة خلال سنة ١٩٨٠ باستثناء الصين[٤٦] .

وتملك القارة الإفريقية من المساحات المترامية من الأراضى الصالحة للزراعة ما يؤهلها لأن تكون من أهم مصادر إنتاج الغذاء على الصعيد العالمى، إلا أن واقعها الراهن غير ذلك

حيث أنها لا تستطيع الوفاء بالحد الأدنى من المتطلبات اليومية لأفرادها وتوفير الأمن الغذائى لهم . وطبقا للبيانات المنشورة عن منظمة الأمم المتحدة للزراعة والأغذية (الفاو) فإن هناك ٢٠ مليون نسمة فى ١٨ دولة إفريقية يواجهون خطر الموت جوعا، ولابد من توافر ٦٠٠ ألف طن خلال العام الحالى ١٩٨٤/٨٣ حتى يمكنهم البقاء على قيد الحياة .

وتبدو مشكلة إفريقية فى أنها المنطقة الوحيدة فى العالم التى تنتج كميات من الطعام أقل من التى كانت تنتجها منذ عشرين عاما مضت بالنسبة إلى عدد لسكان وطبقا للأرقام المنشورة فى هذا الصدد، نجد أن هناك ٩ دول ينخفض فيها نصيب الفرد من الإنتاج الغذائى عن نسبة ٩٠٪ من مستواه فى سنه ١٩٦٠ كما تشير تقديرات البنك الدولى إلى أنه يوجد مايقرب من ٢٠٠ مليون نسمة، أو أكثر من ٦٠٪ من إجمالى سكان إفريقيا يتناولون سعرات حرارية يومية تقل عن التقديرات التى تفترضها الأمم المتحدة ضرورية للبقاء على قيد الحياة[٤٧] .

وفى المقابل نجد أن المشكلة الرئيسية التى تواجه دولة مثل الولايات المتحدة تتمثل فى تراكم مخزونها من المحاصيل الزراعية الغذائية، والتى لاترغب فى طرحها فى السوق بما يخل باستقرار هيكل الأسعار المجزية ، ولهذا تطالب أوربا بالتخلى عن سياسة تقديم الدعم والإعانات إلى صادرات دول المجموعة الأوربية من هذه المحاصيل والمنتجات الغذائية والتى تجعلها أكثر قدرة على المنافسة .

إن الجدل الدائر حاليا على صعيد الأطلنطى ليس متعلقا بكيفية مواجهة الكوارث الطبيعية والكفاف الذى يسحق العديد من مواطنى إفريقيا، ولكن البحث عن المسئول عن زيادة المعروض العالمى من المحاصيل الغذائية بحيث أصبح هناك فائض يمثل عبئا عاليا ومشكلة تسويقية بالنسبة للدول الصناعية الرأسمالية المتقدمة[٤٨] !!

– **عجز الموازين التجارية** : وتعكس اتجاهات التجارة الدولية اتساع الفجوة بين الأطراف الرئيسية فى هذه التجارة مع ازدياد معاناة دول العالم الثالث غير البترولية، والاستثناء الوحيد كان فى الفوائض الضخمة التى حققتها الدول المصدرة للبترول، فخلال سنه ١٩٧٩ بلغ حجم العجز التجارى للدول النامية غير البترولية ٦ر٧٢ مليار دولار، وكان ١ر٥٧ مليار دولار ١٩٧٨، أما الدول المصدرة للبترول، فقد ارتفع حجم فائضها التجارى إلى أكثر من الضعف خلال سنة ١٩٧٩ مقارنا بعام ١٩٧٨، حيث كان مقدار هذا الفائض ٦ر٤٢ مليار دولار يقفز الى ١ر٩٨ مليار دولار سنه ١٩٧٩ .

ويتضح لنا من واقع استعراض الأرقام التى ينشرها صندوق النقد الدولى أن العجز فى

التجارة الخارجية للدول النامية غير البترولية قد أخذ صورة مضطردة فى التزايد منذ سنة ١٩٧٣ حيث كان ٥ر١٧ مليار دولار، أى أن عجز هذه الدول تزايد بنسبة ٤١١٪ خلال ست سنوات !!

وبينما تتشدق الدول الصناعية المتقدمة برغبتها فى مد يد المعونة إلى الدول النامية وتتوالى تصريحاتها عن إتاحة الفرصة لصادرات هذه الدول من السلع المصنعة، نجد أن نفس الدول المتقدمة تفزع وتلجأ إلى اتخاذ العديد من السياسات الحمائية عندما تتسرب إلى أسواقها صادرات الدول النامية من المنتجات المصنعة ، بل ولجأ العديد من الهيئات والمؤسسات فى الدول المتقدمة إلى إجراء دراسات مستفيضة حول نمو التجارة الخارجية للدول النامية ومدى ما تشكله من مخاطر بالنسبة للعالم المتقدم الأنانى .. وقد أجريت إحدى هذه الدراسات من جانب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية[٥٠] !!

- **الاعتماد الأحادى على الغرب الرأسمالى :** ويتبدى هذا الاعتماد فى العلاقات الاقتصادية والتكنولوجية كما يظهر لنا من المظاهر التالية[٥١] :

- فالدول الرأسمالية المتقدمة تستوعب ٧٥٪ من التجارة الخارجية لبلدان العالم الثالث، مقابل ٥٪ فقط للدول الاشتراكية ونسبة ٢٠٪ للتجارة المبادلة بين بلدان العالم الثالث وبعضها البعض .

- ثم إن الدول الرأسمالية المتقدمة تشكل المصدر الرئيسى لتدفقات رأس المال الداخلة إلى العالم الثالث، وهذا يتضح من استعراض البنود الرئيسية لهذه التدفقات والتى أشرنا إليها من قبل ونوجزها فيما يلى : الإقراض التجارى الدولى - المساعدات التنموية الرسمية - الاستثمارات الأجنبية الخاصة المباشرة .

- وبالاضافة الى ذلك، فهناك تدفقات المعرفة التكنولوجية التى تؤكد بدورها الموقع المسيطر للدول الرأسمالية المتقدمة فى سوق المعرفة التكنولوجية المتجرة Commercialized (ونقصد بهذه المعرفة التكنولوجية المعلومات التكنولوجية الخالصة، ومن ثم، فلا تشمل - بالتعريف المنتجات المجسدة للتكنولوجيا من آلات ومعدات وخبراء .. الخ)، وتشير مصادر منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية (يونيدو) الى أن الولايات المتحدة الأمريكية تصدر وحدها مابين ٥٥٪ و ٦٠٪ من إجمالى المعرفة التكنولوجية المنجزة عالميا، كما تشير إلى أن الدول النامية قد تكبدت سنه ١٩٧٥ وحده حوالى بليون دولار كمدفوعات مباشرة فقط للمعارف التكنولوجية، وكان نصيب المشروعات الأمريكية وحدها من هذا المبلغ ٨٤٥ مليون دولار .

وبناء على هذه العلاقة بين الدول المتخلفة والدول الرأسمالية المتقدمة – وهى بالدقة علاقة اعتماد أحادى الطرف – أو تبعية من جانب واحد يقوم على الاستقطاب الغربى للعالم الثالث فى المجال الاقتصادى والتكنولوجى – وهو ما ينصرف أساسا إلى ممارسات المجموعة الرأسمالية المتقدمة (بلغة الاقتصاد) أو ممارسات الغرب أو المعسكر الغربى (بلغة السياسة) .

... فأين المفر .. ؟؟

إن هذه الصورة الكئيبة للواقع المرير الذى تعيشه دول العالم الثالث، كان لابد أن تستنفر قوى الباحثين والمخططين للتفكير فى طريق الخلاص . ولكن البعض مع الأسف الشديد أخطا التشخيص، ومن ثم فقد أخطأ العلاج !!

ولعل أكثر الحلول خطأ، ذلك الذى يذهب فيه أصحابه إلى أن المشكلة هى فى وجود فجوة فى مستويات المعيشة بين دول العالم الثالث ودول العالم المتقدم، ومن ثم يكون الحل هو العمل على سد هذه الفجوة ! بيد أن الالحاح على هذا الحل، من شأنه أن يصرف انتباه راسمى السياسة فى تلك الدول عن اتخاذ إجراءات قد تكون شديدة الفعالية فى رفع مستوى المعيشة دون أن تساهم على الإطلاق فى تضييق الفجوة[٥٢] . إن أبسط مثال على ذلك هو إجراءات توزيع الدخل التى من شأنها أن ترفع دخول أقل فئات السكان دخلا دون أن تنعكس على الإطلاق فى صورة ارتفاع فى متوسط الدخل . وقل مثل ذلك على مايمكن أن تطبقه دولة من دول العالم الثالث من تغيير فى مناهج التعليم مثلا تعديلا من شأنه أن يجعله أكثر تمشيا مع حاجتها الفعلية، ومع قيمها الخاصة وتقاليدها، ومن ثم أكثر تحقيقا للرفاهية الاجتماعية دون أن ينعكس هذا بالضرورة فى ارتفاع الناتج القومى أو متوسط الدخل، بل وقد يؤدى إلى زيادة الاختلاف بين نمط الحياة فى الدولة الفقيرة وبينه فى الدول الصناعية، فلنقارن هذا الإجراء لتغيير مناهج التعليم بإجراء آخر فى ميدان التعليم أيضا لاتزيد محصلته على مجرد مضاعفة عدد التلاميذ المقيدين بالمدارس مع استمرار مضمون التعليم على ماهو عليه من قلة ملاءمته لحاجات المجتمع الفعلية ومع تضاربه الصارخ مع القيم الاجتماعية السائدة . إن هذا التضاعف فى عدد التلاميذ سوف ينعكس على الفور فى ارتفاع الناتج القومى لما يتضمنه من زيادة فى الرواتب وتضخم عدد المبانى ، كما سينعكس بالضرورة فى ميل الفجوة المشئومة إلى التضاؤل، دون أن ينطوى ذلك بالضرورة على أى ارتفاع فى مستوى الرفاهية[٥٣] .

إن رفع هذا الشعار يؤدى دورا لا يمكن الاستهانة به فى ضم تلك البلاد التى لم يتم تغريبها بعد إلى فلك الحضارة الغربية ونمط الحياة فى العالم الصناعى، فكما أن تنمية روح

التنافس بين المستهلكين فى داخل المجتمعات الصناعية تلعب دورا فعالا فى جلب المزيد من الضحايا لقيم المجتمع الاستهلاكى، فإن رفع شعار اللحاق بالدول الصناعية من شأنه أيضا أن يغذى الشعور بالحرمان لدى دول العالم الثالث على نحو يسهل انقيادها لنمط الحياة الغربى . إن الذى لايقتفى أثر خطواتك ويرفض أن يستمر فى السير قد تفقد تبعيته إلى الأبد، وليس أكثر فعالية فى ضمان هذه التبعية من أن تحاول إقناعه باستمرار بأنه ليس هناك هدف أكثر جدارة من أن يحاول اللحاق بك[٥٤] !!

إن الخبرة التاريخية تشير إلى أن تجارب العلاقات الماضية التى نشأت بين البلاد المتقدمة والبلاد المتخلفة، والتى كانت تنطوى على نفس النمط الانفتاحى، تؤكد بما لايدع مجالا للشك عدم إمكان التقدم الاقتصادى من خلال علاقات التبعية والتبادل اللامتكافئ بين هاتين المجموعتين من الدول . وهنا لابد من أن نتذكر ماكتبته (روزا لوكسمبورج)، إذ كانت ترى فى امتداد الرأسمالية وسيطرتها على البيئات غير الرأسمالية (أى البلاد التى تسود فيها أنماط إنتاجية سابقة على ظهور الرأسمالية)، أحد العوامل الهامة فى استمرار تراكم رأس المال لرأسمالية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وأشارت إلى أن غزو الرأسمالية العالمية لهذه البيئات مايلبث أن يولد تناقضات خطيرة تعوق استمرار عمليات تراكم رأس المال وتحقيق التوازن فى عمليات الإنتاج وإعادة الإنتاج بالبلاد الرأسمالية، وهو الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى انهيار الرأسمالية على النطاق العالمى .

وقد بررت (روزا) إن إدماج البيئات غير الرأسمالية فى هيكل النظام الرأسمالى العالمى مايلبث أن يؤهل تلك البيئات (البلاد المتخلفة) بالتدريج لنشوء نمط الإنتاج الرأسمالى فيها حيث تنجح هذه البيئات فى البداية فى إقامة بعض الصناعات الاستهلاكية وتتكون فيها طبقة بورجوازية وطبقة عاملة، وتنمو فيها رويدا رويدا علاقات الإنتاج الرأسمالية على حساب تحلل وتفكك علاقات الإنتاج السابقة على الرأسمالية . وعبر الزمن تتزايد فيها قوى (الإنتاج) وعندما تتحرر هذه البيئات وتحصل على استقلالها السياسى وتسير فى خط النمو الرأسمالى، فإن الأزمات ماتلبث أن تظهر فيها وتحتاج بدورها إلى بيئات غير رأسمالية لتصريف فائض إنتاجها واستثمار فوائض رؤوس أموالها . ولكن إذا كانت كل أجزاء العالم قد أصبحت بيئات رأسمالية، فإن الانهيار الحتمى للرأسمالية يصبح أمرا متصورا من خلال اشتداد ضراوة المنافسة والصراع والحروب بين الدول الرأسمالية بعد أن تكون فرص التصريف الخارجى قد نضبت .

ورغم أن نبوءة روزا لم تتحقق بشأن نمو الرأسمالية فى البيئات غير الرأسمالية ومن ثم لم يتحقق الانهيار المتوقع، إلا أن أفكارها فى هذا الخصوص على درجة كبيرة من الأهمية فى تفسير العمليات الشرسة التى حرصت الدول الرأسمالية على تنفيذها بالبلاد المتخلفة (البيئات غير الرسمالية) لكى تتجنب الكارثة التى تنبأت بها روزا، وهذا مايفسر لنا لماذا لم يظهر فى تلك البلاد تجارب نمو رأسمالية أخرى مثلما حدث فى انجلترا أو فرنسا ودول القارة الأوربية وأمريكا واليابان[٥٥] .

وهكذا نستطيع أن نلخص الموقف فى أن الدول النامية تجد نفسها أمام ضرورة الاختيار بين طرق ثلاثة :

- الاستمرار فى الطريق الحالى : اقتصاد غير متوازن . جرعات مالية من الخارج تحدث له توازنه عاما بعام، وشهرا بشهر. تزايد فى العجز .. وتزايد فى الإقراض بشكل أصبحت المؤسسات الدولية ذاتها تتوقع أن يستمر طويلا .. وهو مايعنى أنه لا يدخل فى توقعاتها : إصلاح هيكلى سريع يعيد التوازن لاقتصاديات هذه الدول ويغنيها عن الاقتراض الخارجى .

وترد هذه التوقعات على رهان دخلته كثير من الدول النامية، وهو أنها بجرعات إضافية ستحل مشاكلها الجارية وتبنى مشروعات للتنمية . تسد القروض وأعباءها وتزيد معدلات النمو.

وقد أصبح واضحا أن الرهان خاسر، وأن معدل النمو فى إفريقيا على سبيل المثال لم يزد تقريبا عن معدل نمو السكان ٣٪ فى المتوسط خلال السنوات الأخيرة .. ذلك مع استمرار الاقتراض وتزايد المديونية وتزايد العجز[٥٦] .

- أما البديل الثانى : فيتعلق بأن يستمر السلوك الاقتصادى الحالى و أن تتغير القوة التفاوضية للدول النامية وتزيد القدرة التبادلية لسلعها ، بمعنى آخر، أن يصبح العالم الثالث قادرا على زيادة أسعار منتجاته بنفس المعدل الذى يزيد به العالم الصناعى أسعار ماينتجه . وقد حدث هذا فى مجال البترول، ولكن ذلك كانت له ملابساته التى تتعلق بندرة الطاقة ، وتكتل المنتجين، وقبول أكبر مستهلك للطاقة - وهو الولايات المتحدة الأمريكية - لأسعار أعلى لتضعف منافسيها فى اليابان وأوربا الغربية .. ويفسح السبل لبدائل الطاقة الأكثر تكلفة .

فهل يمكن أن يتكرر النموذج فى سلع أخرى ؟ واذا تكرر، فهل يحسم السباق المتكافئ بين الدول النامية والمتقدمة أم يسرع دوران ذلك السباق فترتفع الأسعار الصناعية بشكل مضطرد ويتزايد مع كل ارتفاع لأسعار الخامات .. الإنتاج الرئيسى للدول النامية ؟ إن هذا إذا حدث ، فإن المشكلة تظل قائمة دون حل !

أما إذا تزايدت أسعار الخامات - وبالتالى تزايد سعر العمل لانسان العالم الثالث - ولم تتزايد أسعار السلع الصناعية بنفس النسبة .. وبقول آخر .. إذا اقترب إنسان العالم الثالث .. وإنسان العالم الأول .. من حيث الجهد البشرى، فإن التحول يكون لصالح الدول النامية .. ولا نظن أن ذلك وارد وإن كان العمل من أجله أمر ضرورى[٥٧] !

- لايبقى غير طريق ثالث، وهو الاعتماد على الذات، ولايعنى ذلك مجرد مزيد من الجهد الوطنى فى مجال الإنتاج وتنظيم الاستهلاك، لكنه يعنى سلوكا آخر ونمطا آخر للحياة، إنه يعنى استراتيجية جديدة بالكامل، وقبل أن نشير إلى فلسفتها ومعناها لابد أولا أن نحدد منظورنا للتنمية الواجبة من خلال مايأتى[٥٨] :

- أن هدف التنمية يجب أن ينظر إليه على أنه هجوم انتقائى على أكثر أشكال الفقر سوءا، كما أن أغراض التنمية يجب تعريفها من زاوية الخفض المتصاعد والإلغاء الفعلى لسوء التغذية والمرض والأمية، والفقر المدقع، والبطالة، ومظاهر عدم المساواة . لقد تعلمنا أن نعتنى بناتجنا القومى الإجمالى باعتبار أن ذلك سيؤدى إلى العناية بالفقر، والآن فلنعتن بالفقر باعتبار أن ذلك سيؤدى إلى العناية بالناتج القومى الإجمالى . إن هذا يعنى أن نهتم بمضمون الناتج القومى أكثر من اهتمامنا معدل زيادته .

- يترتب على النتيجة الأولى أن البلاد النامية يجب عليها تعريف المستويات الدنيا للاستهلاك التى ينبغى أن تصل إليها فى غضون فترة معقولة، ولنقل عقدا من الزمان، ويجب على تخطيط الاستهلاك أن يتحرك إلى قلب المسرح، وعلى تخطيط الانتاج أن يتبعه ويجب ألا يكون تخطيط الاستهلاك فى صورة مالية، وإنما فى صورة مادية، فى صورة (سلة) دنيا من السلع والخدمات التى يجب توفيرها للرجل العادى من أجل القضاء على أكثر مظاهر الفقر سوءا : مثل المعايير الدنيا الغذائية والتعليمية والسكنية والصحية ، وتقوم هذه الاستراتيجية على فكرتين أساسيتين :

١ : أنه يجب علينا الإفلات من طغيان مفهوم الطلب، وأن نستبدل به مفهوم الاحتياجات الدنيا فى المراحل الأولى من التنمية، إذ أن قياس الاحتياجات الأساسية بالقدرة على الدفع يعتبر عملا شائنا فى مجتمع فقير، كما لن يؤدى إلا إلى تشويه نمطى الإنتاج والاستهلاك لصالح الأغنياء مثلما حدث فى مجتمعات كثيرة .

٢ : أن محاولة اللحاق بالمعايير ومستويات دخل الفرد الموجودة حاليا فى الغرب، والتى لايمكن بلوغها حتى فى غضون القرن التالى ، يجب أن يستبدل بها الدخل الأدنى الذى يحدده كل

مجتمع لنفسه والذى يمكن الوصول إليه فى فترة زمنية معقولة .

- يجب الجمع بين الحرص على زيادة الانتاج والحرص على تحقيق توزيع أفضل عند تعريف نمط التنمية، فكلاهما يجب توليده فى الوقت نفسه، كما أن الفصل بين هذا الحرص وذاك يجب أن يوضع حد له، وإذا ماوجه نمط الانتاج (والصادرات والواردات) نحو تلبية المتطلبات الاستهلاكية الدنيا، ونحو استخدام قوة العمل بأسرها، فإن الانتاج الأعلى سيؤدى فى حد ذاته إلى توزيع أفضل .

- وتلك نتيجة تتضمنها النتيجة الثالثة، وهى أن العمالة يجب أن تصبح هدفا أوليا للتخطيط كما يجب ألا تعامل بعد الآن بوصفها هدفا ثانويا .

لكن ذلك المنظور يجب ألا يخفى علينا البعد الاجتماعى للتنمية، الذى يجب أن يكون هو محور الاهتمام، ونقصد بالبعد الاجتماعى : «ذلك الاطار الاجتماعى الذى يضم جماعة من الأفراد (أو مجتمعا بأكمله) لها تركيب اجتماعى خاص (ينبثق عنه وضع طبقى متميز) وترتبط بمجموعة من الأنساق الاجتماعية (التى تتفرع إلى نظم) كما تفرز شبكة من العلاقات الاجتماعية والروابط (إيجابية كانت أو سلبية) »[٥٩] :

- فمن الضرورى لكى تنجح عملية التنمية أن نتدارس التركيب الاجتماعى للمجتمع، فنتعرف على حجم سكانه وتوزيعهم وكثافتهم، كما ينبغى لنا أن ندرس أوضاعهم الطبقية حتى يتسنى لنا القيام بتصور سليم للأهداف المجتمعية الشاملة، واضعين نصب أعيننا الأدوار التى يستطيع ممارستها أفراد كل طبقة من ناحية، والعوائد التى يجنيها هؤلاء من ناحية أخرى - كما سبق التوضيح - يرجع أساسا إلى جهلهم بالسمات النوعية للتركيب الاجتماعى لمجتمعهم.

-ومن الأهمية بمكان أيضا أن يدرس هؤلاء الأنساق الرئيسية التى يتكون منها البناء الاجتماعى، فالنسق الاقتصادى، والتربوى، والدينى، والقرابى .. وغيرها تؤثر بالضرورة على بناء نموذج تنموى محلى يعبر بصدق عن تركيب المجتمع الذى من أجله تقترح خطة التنمية .

- ومن الحتمى كذلك أن يتعرف القائمون على شبكة العلاقات الاجتماعية التى تصل بين أفراد المجتمع حيث يقع عليهم فى الحقيقة العبء الأكبر فى تنفيذ الخطة التنموية، إذ من الضرورى أن تراعى مثلا : مدى المسافة الاجتماعية بين الأفراد ودرجة التقارب أو التباعد بينهم، وتأثير ذلك كله على عملية التنمية،، فليست التنمية مجرد تغييرات هيكلية مادية (سواء كانت فيزيقية أو اقتصادية) وإنما هى تغييرات تحدث فى شبكة العلاقات الاجتماعية، وفى

أنساق القيم، وأساليب السلوك فى المجتمع .

وإذا كان الطريق المستقيم الذى يجب أن تسلكه التنمية فى دول العالم الثالث هو الاعتماد على الذات، فإنه يمكن التمييز بين مستويات ثلاثة تثور عندها فكرة الاعتماد على الذات(٦٠) :-

- فى داخل الاقتصاد القومى، على مستوى القاعدة المتمثلة فى السكان المشاركين فعلا أو احتمالا، فى عملية الإنتاج فى مختلف نواحى النشاط .
- على مستوى الاقتصاد القومى فى علاقته ببقية أجزاء العالم، أى من الناحية الدولية
- وعلى الصعيد الإقليمى فى إطار العلاقات بين مجموعة من الدول تشغل أحد الأقاليم التى يتكون منها المجتمع العالمى .

وجوهر الاعتماد على الذات واحد أيا كان المستوى الذى ينظر إليه عنده، ابتداء من الحاجات الاجتماعية للغالبية، تعبأ الجهود التطويرية الذاتية على نحو مستقل بقصد المساهمة فى نمط من العلاقات الدولية ينفى النمط القائم الذى أنتج التخلف وكرسه رغم جهود النمو منذ الحرب العالمية الثانية، وعليه تتمثل عناصر تحديد مفهوم الاعتماد على الذات فى :

- عنصر أول يرتبط بضرورة إدخال التحولات الهيكلية التى من خلالها يتوجه الإنتاج نحو إشباع الحاجات الاجتماعية الداخلية للغالبية العظمى من السكان . هذا الهدف نبرزه بالمقابلة مع : الانتاج كدالة للحاجات الخارجية والإنتاج كدالة للحاجات تحدد وفقا لنمط محاكاة معين يتضمن سيطرة نظام معين للقيم (يكون مستوردا بطبيعته السلعية) وكلاهما يتضمن التبعية. على هذا النحو يمثل إشباع الحاجات الاجتماعية من السكان الهدف الرئيسى لاستراتيجية التطوير، أى الهدف الذى تتحدد على أساسه بقية الأهداف .

- اذا كان العنصر الأول يرتبط بالأهداف، كان من الضرورى أن يتعلق العنصر الثانى بالوسائل ، ذلك لأنه لا يمكن فصل الوسائل عن الأهداف . هذا العنصر يجد جوهره فى دعوة إلى تعبئة إمكانياتنا : القوة الخلاقة للقوة العاملة وللموارد المادية الحالية والاحتمالية وهو مايستدعى :

x بعدا جماعيا لعملية التعبئة

x وعيا خاصا بالدور التاريخى للقوى الأجنبية متمثلة أساسا فى رأس المال الأجنبى فى تكوين التخلف وتكريسه فى المجتمع العربى

x وضرورة اتباع السبل (أو الوسائل) التى تتلاءم مع الوسط الانسانى والمادى، الذى هو نتاج تاريخ مجتمعاتنا .

الأمر يتعلق إذن بدعوة إلى تعبئة الموارد على هذا النحو بقصد اكتساب قدرات ذاتية فى جميع المجالات : الانتاج، التكنولوچيا، الإدارة، الثقافة، أنماط الاستهلاك ... الى آخره

. أما العنصر الثالث فيربط الاستراتيجية القومية بالاقتصاد العالمى فى محاولتنا لتحقيق أهداف الاستراتيجية . عن طريق هذه الكيفية فى تعبئة مواردنا تزداد القوة التفاوضية للمجتمع على المسرح العالمى، وهو مايمكن المجتمع من أن يحتل مع الوقت مكانا مختلفا كيفيا فى الاقتصاد العالمى(٦١) .

وفى نهاية المطاف ، فاننا تخرج بحقيقيتين أساسيتين :

أولاهما: أن رأس المال المادى إذا كان غير كاف، فإن تكوين المهارة والتنظيم يجب أن يحلا محل رأس المال فى الأمد القصير . وإذا ما انطلقنا من هدف العمالة الكاملة مع أداء الناس أى عمل مفيد، وحتى مع جرعات قليلة من رأس المال والتنظيم، فعندئذ فقط يمكن القضاء على بعض أكثر أشكال التخلف سوءاً . لنفرض أن قوة العمل بأسرها فى مجتمع ما قابلة للتخصيص، فإن هذا المجتمع يجب عليه أن يوزع موارده الرأسمالية المحدودة على هذه القوة . ودعونا نقلب التفكير الراهن القائل بأنه لما كان لايوجد غير مقدار ثابت من رأس المال الذى يمكن تخصيصه فى فترة بعينها، فإنه لايمكن أن يستخدم إلا جزءاً معينا من قوة العمل تاركا الجزء الباقى دون عمل كى يعيشوا على الآخرين كمعولين أو متسولين دون أى دخل شخصى، يعانون فى أغلب الأحوال من أسوأ أشكال سوء التغذية أو الفقر المدقع ، ودعونا بدلا من ذلك نعالج مجموع قوة العمل بوصفه أحد المعطيات، فعند أى وقت بعينه يجب التأليف بينه وبين رصيد رأس المال الموجود بصرف النظر عن مدى انخفاض إنتاجية العمل أو رأس المال(٦٢) .

ثانيهما : فى مواجهة ذلك، ولكى لاننزلق إلى أرضية تبعدنا عن القضية الأساسية وهى قضية تطوير المجتمع تطويرا يكون بداية ونهاية فى خدمة الغالبية من أفراد الأمة فإننا نتصور نقطة البدء لاستراتيجية التطوير متمثلة فى الحاجات الاجتماعية للغالبية ونقصد بها الحاجات التى يمكن إشباعها للغالبية من أفراد المجتمع عن طريق استخدام الموارد المتاحة استخداما رشيدا ، وذلك بالتقابل مع الحاجات الفردية التى يتمكن بعض فئات المجتمع من إشباعها لما يتمتعون به من وضع متميز على خريطة توزيع فى علاقاتهم بالفئات الاجتماعية الأخرى . بعبارة أخرى تتحدد الحاجات الاجتماعية بمحددين :

- أنها الحاجات التى يمكن إشباعها للغالبية من أفراد المجتمع

- عن طريق الإستخدام الرشيد لما تحت تصرف المجتمع من موارد عند المستوى القائم لتطور قواه الانتاجية[٦٢] .

لقد أبرزنا هاتين الحقيقتين لأننا اذ نكثف الضوء على قضية العمالة، فإننا بذلك نطرق أبواب التعليم، واذ ننبه إلى اجتماعية التنمية واجتماعية الحاجات وضرورة الاستخدام الرشيد للموارد، فانما نقف فى عقر دار التربية .

الهامـــش

١- أمين عباس عبد البديع : **اتجاهات السياسة الإنمائية فى دول العالم الثالث** . المجلة الاجتماعية القومية ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، العدد الأول، يناير ١٩٧٨ القاهرة، ص٦٥

٢- المرجع الاسبق . ص٦٦

٣- حسين ذو الفقار صبرى : **العالم الثالث؛ أبعاده واتجاهاته** ، مجلة الطليعة، القاهرة أبريل ١٩٦٦، ص٢٠

٤- المرجع السابق . ص٢١

٥- المرجع السابق . نفس الصفحة

٦- محمود الكردى : **التخلف ومشكلات المجتمع المصرى**، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٧٩، ص٤١

٧- محبوب الحق : **ستار الفقر، خيارات أمام العالم الثالث**، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٧٧، المقدمة التى كتبها اسماعيل صبرى عبدالله، ص ٤

٨- المرجع السابق . ص٥

٩- موسى الجندى : **الفقراء على مائدة الأثرياء فى أوتاوا**، عن : الفاينانشيال تايمز ٢٠ يوليه ١٩٨١، مجلة الأهرام الاقتصادى، القاهرة، العدد ٦٥٦، ١٠ أغسطس ١٩٨١، ص٥٣

١٠- نزيرة الأفندى: **هل تعود الحياة إلى حوار الأغنياء والفقراء**؟ الأهرام الاقتصادى، المرجع السابق . ص٥٤

١١- نزيرة الأفندى : **واشنطن فى مواجه الدول الفقيرة، العصا لمن عصى**، الأهـــرام الاقتصادى، العدد ٦٦٩ - ٩ نوفمبر ١٩٨١، ص٧٠

١٢- المرجع السابق . ص ٧١

١٣- فرانسيس مورلاييه وآخر : **صناعة الجوع (خرافة الندرة)**، ترجمة أحمد حسان، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل ١٩٨٣، ص ١٣٦

١٤- المرجع السابق . ص ١٣٧

١٥- رمزى زكى : مأزق النظام الرأسمالى، الحلقة السابعة عشر: **البلاد المتخلفة تحت وطأة الأزمة العالمية**، الأهرام الاقتصادى، العد ٧٣٤ - ٧ فبراير ١٩٨٣، ص ٤٣

١٦- المرجع الاسبق . ص ٤٥

١٧- رمزى زكى : مرجع سابق . الحلقة الثامنة عشر: **أيها النقديون ماذا تخبئون للعالم الثالث ؟** الأهرام الاقتصادى، العدد ٧٣٥ - ١٤ فبراير ١٩٨٣، ص٣٦

٨- رمزى زكى: مرجع سابق، الحلقة التاسعة عشر : **الطريق المسدود للتنمية من خلال النمط الانفتاحى بالبلاد المتخلفة** . الأهرام لاقتصادى، العدد ٧٣٦ - ٢١ فبراير ١٩٨٣، ص٤٧

١٩- رمزى زكى : مرجع سابق، الحلقة الحادية والعشرون : **مصيدة الديون الخارجية ودورها فى عمليات التكييف الدولية للبلاد المتخلفة** . الأهرام الاقتصادى، العدد ٧٣٨ - ٧ مارس ١٩٨٣، ص٤٤ .

٢٠- إبراهيم أحمد ابراهيم: **أزمة الديون الخارجية للدول النامية**، مجلة السياسة الولية، القاهرة العدد ٧٢ - أبريل ١٩٨٣، ص ١٧٧ .

٢١- أحمد فارس عبد المنعم : **أزمة الديون الخارجية فى الدول النامية**، مجلة السياسة الدولية القاهرة، العدد ٦٨ - ابريل ١٩٨٢، ص ٦٥

٢٢- المرجع السابق . ص٦٧

٢٣- محمد يونس : **ديون الفقراء وخياراتهم**، الأهرام ، العدد ٧٥٢ - ١٣ يونية ١٠٨٣، ص ٣٧

٢٤- عبد التواب سلمان : **استثمار الموارد المالية العربية فى افريقية ودول العالم الثالث**، مجلة مصر المعاصرة، الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع، القاهرة، اكتوبر ١٩٧٥ العدد ٣٦٢، ص ١٨٢

٢٥- صناعة الجوع، ص ٤٠٧

٢٦- المرجع السابق . ص ٤٠٨

٢٧- عبد التواب سلمان، مرجع سابق . ص ١٨٤

٢٨- الأهرام الاقتصادى، العدد ٦٧١ - ٢٣ نوفمبر ١٩٨١، ص ٦٠

٢٩- نزيرة الأفندى : **الاتجاهات الخاطئة للاستثمارات الدولية**، الأهرام الاقتصادى، لعدد ٦٢٧ - ١٩ يناير ١٩٨١، ص ٥٠

٣٠- الأهرام الاقتصادى، العدد ٦٣٢ - ٢٣ فبراير١٩٨١، ص ٥٨

٣١- جلال أمين : **تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية** . مطبوعات القاهرة، ١٩٨٣، ص١٧

٣٢- المرجع السابق . ص١٨

٣٣- المرجع السابق . ص٢٠

٣٤- ستار الفقر، ص٥٧

٣٥- المرجع السابق . ص ٦٥

٣٦- المرجع السابق . ص ٥٨-٥٩

٣٧- تنمية أم تبعية ؟ ص ٣١

٣٨- الأهرام الاقتصادى، العدد ٧٦٠ - ٨ أغسطس ١٩٨٣، ص٥١

٣٩- محمود عبد الفضيل: أزمة التنمية فى بلدان العالم الثالث فى ضوء كتابات راؤول بربيش، الأهرام الاقتصادى، العدد ٧٥٤-٢٧ يونية ١٩٨٣، ص٣٢

٤٠- المرجع السابق ص٣٢

٤١- سامى منصور : **لماذا يتعمق العالم الثالث** ؟ الأهرام الاقتصادى، العدد ٥٩٢ - ١٥ أبريل ١٩٨٠، ص٥٨

٤٢- المرجع السابق . ص ٥٩

٤٣- المرجع السابق . ص٦٠

٤٤- الأهرام الاقتصادى، العدد ٦٩٦-١٧ مايو ١٩٨٢، ص ٥٨

٤٥- الأهرام الاقتصادى، العدد ٧١٩-٢٥ أكتوبر ٩٨٢،ص٥٢

٤٦- مشيرة موسى: **الغذاء، مشكلة العالم المتفاقمة** . الاهرام الاقتصادى، العدد ٦٩١ - ١٢ أبريل ١٩٨٢، ص ٥٤

٤٧- الأهرام الاقتصادى : **من يطعم افريقيا** ؟ العدد ٧٦٧، ٢٦ سبتمبر ١٩٨٣، ص ٥٨

٤٨- نزيرة الأفندى : **طعام الفقراء على مائدة الصراع بين الأغنياء** . الأهرام الاقتصادى العدد ٧٢٩ - ٣ يناير ١٩٨٣، ص ٧٠

٤٩- الأهرام الاقتصادى : **العالم تتباعد أطرافه**، لعدد ٦٠٢ - ٢٨ يولية ١٩٨٠، ص ٥٢

٥٠- الأهرام الاقتصادى : **البحث عن مكان تحت الشمس**، العدد ٦٢٥-٥ يناير ١٩٨١، ص ٦٦

٥١- محمد عبد الشفيع عيسى : **أثر الغرب على التطور التكنولوجى**، مجلة السياسة الدولية، القاهرة العدد ٧٤ - اكتوبر ١٩٨٣، ص ٢٩-٣٠

٥٢- تنمية أم تبعية، ص ١٤

٥٣- المرجع السابق . ص ١٥

٥٤- المرجع السابق . ص ١٦

٥٥- رمزى زكى : الطريق المسدود للتنمية، مرجع سابق، ص ٤٨

٥٦- محمود المراغى : **مصر والمسألة الاقتصادية** . دراسات قومية ، العدد الخامس عشر، تصدر عن مركز النيل للاعلام . القاهرة، د.ت، ص ١١٢

٥٧- المرجع السابق . ص ١١٣

٥٨- ستار الفقر، ص ٦١

٥٩- الكردى، ص ٤٧٧

٦٠- محمد دويدار وآخرون : **استراتيجية الاعتماد على الذات**، منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٨٠، ص ١١١

٦١- المرجع السابق. ص١١٢

٦٢- ستار الفقر، ص٦٢

٦٣- استراتيجية الاعتماد على الذات، ص ١٠٩

هجوم عربى مبكر على الاشتراكية*

إسماعيل مظهر واحد من المفكرين المرموقين الذين شهدتهم الثقافة العربية منذ أوائل القرن الحالى، كان صاحب مجلة ثقافية تسمى (العصور) وهى من المجلات التى عنيت بصفة خاصة بنشر الثقافة الغربية الحديثة. ورأس «مظهر» تحرير مجلة المقتطف الشهيرة التى ظهرت عام ١٨٧٦، وكانت رئاسته هذه لها فى أواخر الأربعينات، هذا فضلاً عن كتاباته العديدة فى المقتطف وفى غيرها، وكلها تصب كذلك فى جهة الحضارة الغربية الحديثة .

ولعل وجهاً من وجوه هذا التوجه الفكرى لصاحبنا نجده فى عدد من الكتب التى قام بتأليفها أو ترجمتها، نذكر منها: أصل الأنواع لتشارلز دارون، والذى كان له دوى كبير فى الثقافة العربية وسبباً لقيام معارك متعددة بين أنصار الثقافة الغربية الحديثة وأصحاب الثقافة الإسلامية. ومن الكتب كذلك : (ملقى السبيل) وكان أيضا معنى بشرح وتفسير مذهب النشوء والارتقاء، وكتاب (نزعة الفكر الأوربى فى القرن التاسع عشر)، وكتاب (نهضة فرنسا العلمية فى القرن التاسع عشر) .

لم يكن الرجل إذن من أصحاب الفكر التقليدى، ومع ذلك فقد عنى فى وقت مبكر بتوجيه النقد الحاد إلى (الفكر الاشتراكى) بصفة عامة وفى صورته الماركسية بصفة خاصة، ويتضح هذا فى كتاب أصدره عام ١٩٢٧ بعنوان (الاشتراكية تعوق ارتقاء النوع الإنسانى)، وهو رسالة من سلسلة رسائل عنيت بنشرها مجلة العصور . «ومظهر» يحذر القراء أن يقعوا أسرى بريق الاشتراكية«دون الوقوف على حقائقها العلمية والاقتصادية، ومرتكزها الفلسفى، وآثارها الاجتماعية، من غير تفريق بين ما يرتكز منها على الحقائق الطبيعية، وبين ما هو خيال ووهم صرف » .

وفى مقدمة الأفكار الاشتراكية التى تأخذ نصيب الأسد من نقد مظهر، فكرة (المساواة)، ذلك أنها تأخذ بالروع وتستهوى الأنفس ، كما تستهويها كلمات الشرف والفضيلة، وما إليها من المثاليات التى لا يمكن أن ينكر العقل أنها حقائق كائنة . غير أن هنالك من الأشياء التى يعتقد الإنسان أنها حقائق كائنة، ما لا يمكن أن يصح لدى الواقع إذا طبقت تطبيقاً عملياً على حقائق الكون الطبيعية .

---

* مجلة (سطور) سبتمبر ١٩٩٧ .

وبحكم تشيعه الواضح لمذهب النشوء والارتقاء، راح مظهر يسوق الأمثلة من واقع حركة التطور التاريخى منذ أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر وخاصة فى فرنسا :

فالنظم المختلفة منذ أن تنشأ تمر بمراحل تطورية متعاقبة، تسعى من خلالها إلى الارتقاء والتقدم، والتغير الحادث تدريجياً، عندما يستمر، لا يقف عند حد الشكل والمظهر وإنما يتناول الجوهر و اللباب . وليس هذا شأن الظواهر والأنواع الطبيعية وحدها وإنما هو الشأن كذلك بالنسبة للنظم الأجتماعية . فإذا ماشهدنا (ثورة) ، فإنما يكون ذلك بسبب محاولة البعض، بقوة الاستبداد، الإمساك بخناق النظام فى محاولة صد تيار النشوء والارتقاء . لكن الثورة الناشئة بسبب هذا لا تلبث أن تهدأ حتى تعود راجعة إلى الحد الطبيعى الذى بلغته الجماعات من تطور وما وصلت إليه من نشوء . ص ٩

فإذا ما نظرنا، تطبيقاً لذلك، إلى حال الثورة الفرنسية، فسوف نجد أنها ثورة حاولت هدم ما كان قائماً من نظم . ولكنها فى الحقيقة ثورة قامت أصلاً ضد أشكال الحكم فى فرنسا. بيد أن حوادثها تغيرت سراعاً إلى مبادئ إنسانية عامة، فوضعت حقوق الإنسان موضع التنفيذ، حتى إذا هدأت عاصفة الثورة الشعورية، يستقر شكل الحكم ثانية على استبداد نابليون بالأمة التى ثارت بالأمس ضد الاستبداد الفردى ومساوئ الإستعباد الملكى الفرنسى السابق، حتى ينساها الناس أو كادوا ينسونها، فظهرت الأمة الفرنسية التى دعت إلى المساواة والحرية والإخاء إبان ثورتها، بأسوأ ماتظهر به الأمم القوية من مظاهر العسف فى حكم مستعمراتها .

لماذا قامت الثورة الفرنسية ؟ وماذا كانت بواعثها ؟ كان باعثها الجوهرى أن يد القوة المستبدة حاولت أن تقبض على خناق الطبيعة وأن تصد تيار النشوء والتطور الطبيعى . حاولت أن تصدها عن شئ محدود وهو تقرير سلطة الشعب . هنالك قفزت الطبيعة البشرية إلى هدم كل ما هو قائم من نظم . ولماذا نجح نابليون فى الاستئثار بالسلطة الفردية فى شعب ثار بالأمس ضد تلك السلطة ؟ لأن الثورة الفجائية لم تكن قائمة على أساس صحيح، بل كانت نتيجة لرد الفعل الذى أحدثته القوة المستبدة بمحاولتها القبض على خناق الطبيعة النشوئية المتطورة . ص ١١

ولا خلاف فى أن استبداد العسكرية البونابرتية وهزيمة ١٨٧٠، قد أتمتا فى نفسية الشعب الفرنسى ماتطاولت إليه الثورة فى ١٧٩٨ ، فكانت الجمهورية التى استمرت سنوات طويلة وهى على قدر من الرسوخ والثبات حيث توافقت إلى حد كبير مع نواميس الطبيعة .

فإذا ما أرجعنا النظر إلى جمهورية روسيا السوفيتية، فماذا وجدنا ؟ نجد أن محصل ما وقع ينحصر فى أنه قام فى روسيا حكم الاستبداد العسكرى الشيوعى مقام الحكم القيصرى المستبد تحت طلاء من المساواة المفروضة لا الواقعة بالفعل . ص ١٢

ورأى «مظهر» أن ثورة السوفيت الشيوعية إنما هى (ثورة فجائية) ماكان يمكن أن تستقر على حالة ثابتة قبل أن تلتهم بنيرانها المستعرة «جيلين على الأقل»، وماتلك الثورة فى الواقع إلا «نظير كل ثورة تماثلها وهى نتاج لما حاولت القوة المستبدة أن تخنق من نشوء الطبيعة، وتصد من قواعدها وسريان نواميسها، غير أنها انصرفت فى سبيل خاص هو سبيل تهديم النظام الرأسمالى تحت تأثير الدعوى ضد رأس المال التى قام بها كارل ماركس فى ألمانيا وشايعه فيها كتاب من مختلف أقاليم الأرض » . ص ١٣

إن الثورة الشيوعية وقعت لأن القوة المستبدة التى كانت قائمة حالت بين المجتمع وبين التطور الذى هو سنة من سنن الاجتماع البشرى، فإغفال حقوق العمال وعدم وضع نظام يكفل حسن العلاقة بين العامل وصاحب العمل قائماً بينهما بالقسط، عمل ضد سنة التطور والتقدم .

وتبديد قوى الإجتماع البشرى فى سبيل تحصيل اللذة المجردة عن النفع لبضعة أفراد «قبض على خناق الطبيعة»، وإخماد صوت المستضعفين فى الأمة بقوة الإستبداد لا بقوة الحق والعدل، صد لسريان قواعد الكون وتعطيل لأهم مظهر من مظاهر الحرية الصحيحة . ص ١٤

والمنطق الذى يناقش إسماعيل مظهر من خلاله فكرة رأس المال فى الفلسفة الماركسية هو المنطق ذاته الذى قامت على أساسه نظرية التطور، فإذا كانت الماركسية قد دعت إلى إلغاء رأس المال، كما فهم «مظهر» (وهو فهم غير دقيق، إذ لا يمكن إلغاؤه وإنما رفضت الماركسية أن يكون مملوكاً ملكية فردية)، فإن نظرات الباحثين فيه قد اختلفت، فنظر فيه بعضهم نظرة فلسفية، ونظر فيه آخرون نظرة اجتماعية، ومضى غيرهم فى بحث رأس المال على اعتبار أنه المال المنتج بغير عمل يقوم به صاحب المال . ص ١٨

لكن «مظهر» يلفت النظر إلى أنه مهما اختلفت نظرات الباحثين فى رأس المال من هذه الوجهة، فإنهم يتفقون على أن هنالك رأس مال لا يمكن أن تتناوله دعوتهم ولا يستطاع أن يلغى أو يفقد بمحض الإرادة البشرية، ذلك هو رأس المال الطبيعى، فالقوة البدنية والمواهب العقلية والكفاءات بأنواعها وضروبها كالجمال وحسن الصوت والخديعة والصبر على احتمال المكاره عامة ، هذه الأشياء وما إليها رأس مال طبيعى لا يستطيع القائمون ضد رأس المال أن يقتنصوه بدعوتهم، لأن الطبيعة لا تحاسب، فهى تعطى من تشاء وتمنع من تشاء بغير حساب،

فكيف تصح الدعوة ضد هذا؟ ذلك دليل على أن رأس المال غير مستطاع محوه، بل غاية مايستطاع هو إلغاء بعض وجوهه وتحوير البعض الآخر، إن دعت الطبيعة إليه، وكان إلغاؤه أو تحويره مسايراً لارتقاء الإنسانية ونظمها الاجتماعية .

إن الحرية، ذلك المبدأ الخالد المقدس، تقضى بأن كل امرئ عليه وزر مااكتسب وله فائدة ماكسب، فإذا تعطل هذا القانون، وهو أول حجر فى البناء الاجتماعى، فإن هذا البناء يصاب بشروخ عميقة قد تؤدى، على المدى، إلى تهدمه كلية، أما إذا سيطر هذا القانون الطبيعى على نظام الاجتماع البشرى، وذلك أمر طبيعى لا مرد له ولا ناقض له ، فإن كل فرد يجنى من الدنيا بقدر ما تؤهله به مواهبه . ص ١٩

ويؤكد «مظهر» أن التاريخ لم يرو أن نضال الجماعات البشرية فى سبيل الحرية الفردية قد أحدث من القلق وسوء النزعة ما أحدثته فكرة المساواة التى ارتكزت عليها الاشتراكية، ويرى أن السبب فى ذلك ظاهر، فإن ماتدعو إليه الإشتراكية من المساواة مناقض فى ذاته لسنن الكون الأولية، مضاد لحرية الفرد وتمتعه بمزاياه ومواهبه التى وهبته إياها الطبيعة، على العكس من المبادئ الأخرى التى تساير الطبيعة ولا تصد فيضها وسريانهاعلى قواعدها الخالدة، إذ أى أثر للمساواة الحقيقية فى العمل على التسوية بين الذين لم تسو بينهم الطبيعة فى المواهب والكفاءات العقلية والبدنية؟ وليس فى العالم من شئ أبعد عن العدل والحرية، وأكثر تناقضاً مع بديهة العقل من التسوية بين غير المتساوين «ومما لاريب فيه أن الاشتراكية، ووليدتها الشيوعية، لايستطاع أن يكون لهما قسط عملى فى نظام الاجتماع إلا إذا وفقتا بين ماتدعوان إليه، وبين سنن هذا الكون، ذلك شأن كل مبدأ وفكرة . وما الحقائق العلمية والمبادئ الاجتماعية التى ورثتها جماعات القرن العشرين عن القرون الأولى إلا نتاج ذلك الجهد الذى قام به أباؤنا فى سبيل الكشف عما يكافئ بين حاجاتهم وبين سنن الكون . أما ماناقض ذلك فكان نصيبه الزوال خضوعاً لحكم مقتضيات ونشوء (النظم) بحسب الحاجات إليها .

وتركز هجوم إسماعيل مظهر على الاشتراكية عامة والماركسية خاصة على فكرة التوريث، على أساس أن توريث المال لغير ذوى الكفاءات سيئة اجتماعية عظمى. بل إنه يرى أن نظام التوريث صورة من صور الاستبداد الاجتماعى ، خاصة إذا تم توارث المال المكسوب لغير ذوى الكفاءات من أعقاب الكاسب .

وتوريث المال لغير ذوى الكفاءات أمر لا نستطيع إدراك نتائجه السيئة فى بناء الجماعات ونظمها إلا إذا قارنا بينه وبين مايشابهه من الحالات الطبيعية . ص ٢١ .

إن الأجسام العضوية أشبه شئ ببناء الاجتماع البشرى، وحالاتها الحيوية أصح ما يتخذ دعامة للبحث الاجتماعى، فالميكروبات مثلاً لابد أن تحدث حولها وسطاً وبيئة تلائم حياتها ومطالب وجودها، فإذا لقحت كتلة من الجيلاتين بنوع من الميكروبات لا تلبث إلا قليلاً حتى تلحظ أن جزء من هذه الكتلة قد تغاير تغايراً كيميائياً خاصاً سببه فعل الميكروب نفسه، إذ يخلق من حوله بيئة تكافئ بين حاجات حياته وضرورات وجوده .

فإذا طبقت هذه الحالة على الاجتماع البشرى، ألفيت جماعات المدنية الحديثة لم تخرج عن حكم هذه القاعدة، فإن انقلاب الحالة الاجتماعية فى أوربا فى أواخر القرن الثامن عشر وابتداء عصر الصناعة الإنتاجية قد خلق بيئة جديدة مخالفة تماماً للبيئات التى شهدتها القرون الوسطى . وكذا تخلق الجماعات البيئة، حتى إذا استقرت البيئة على نظام ثابت أخذت البيئة ذاتها تؤثر فى الجماعات تأثيراً نجده فى كل الحالات رهناً على طبيعة البيئة ذاتها، فالميكروبات إن أحدثت فى المادة الجيلاتينية التى ذكرناها بادئ ذى بدء جواً وبيئة تلائمها، فإن تكاثر الميكروبات إلى حد كبير ينتج فى البيئة طبيعة تقضى على حياتها، وهنالك تموت غير مخلفة من ورائها شيئاً . وهذا هو السر فى قيام المدنيات واضمحلالها وسقوطها. فإذا قست حالات الاجتماع البشرى بحالات الحياة العضوية أمكنك أن تعرف إلى أى حد تذهب مساوئ المال الموروث لغير ذوى الكفاءات من الأثر السئ فى الكيان الأجتماعى .

ليست الطبقات الاجتماعية كلها على نسبة واحدة من القوة، فإن الطبقات تختلف اختلافاً كبيراً من حيث القدرة والكفاءة . ومما لا ريب فيه أن غير ذوى الكفاءات أو كما يقول الاجتماعيون – الفاسدون اجتماعيا – يحدثون من حولهم بيئة خاصة لا يستطيعون أن يعيشوا فى غيرها، لأنها تلائم طبائعهم وتوافق مشاربهم، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا أن البيئة التى يخلقها غير ذوى الكفاءات من حولهم عامل ذو شأن فى تبديد قوى العناصر العاملة المنتجة فى المجتمع . ومتى استقرت البيئة على شكل ثابت أخذت من ثم فى التأثير على كل من استشم ريحها واندمج فى طبيعتها فتصبح نظاماً ثابتاً، لا لأنه مفيد مساير لحاجات النوع، بل لأنه مرتكز على عنصر موجود يخلقه وجود المال فى يد الذين لا ينفقونه إلا فى سبيل يقوى من دعائم هذه البيئة . ص ٢٣

وهكذا ينتهى إسماعيل مظهر من تحليله هذا إلى أن الاشتراكية المطلقة القائمة على أساس المساواة التامة ليس لها إلا طريق واحد ينتج نتيجة واحدة هى بذاتها النتيجة التى يؤدى إليها توريث المال لغير ذوى الكفاءات : تطفل اجتماعى، وانحلال فى الأخلاق، واضمحلال فى التكوين .

إن طريقة الاشتراكية فى نظر صاحبنا محصورة فى أن يقتسم أفراد الجماعة بالتساوى نتيجة جهد الأمة، هنالك ينتج الأقوياء بنسبة قوتهم والضعفاء المنحطون بنسبة حالتهم الطبيعية . ولكن الضعفاء يتساوون والأقوياء فى النتيجة، وهنا يخلق جو التطفل أبشع صورة من الجو الأول وأفعل فى الحط من صفات الإنسانية ، لأن الأقوياء لا محالة يفقدون جزءاً عظيماً من نتاج جهودهم يعود إلى الضعفاء وغير ذوى الكفايات، وإذ ذاك تنحط صفات العناصر المنتجة وتكثر ضروب التطفل، هنالك تتدهور الإنسانية وتقتل روح المدنية ويفقد الإنسان أخص مايمتاز به عن السوائم من الصفات، صفات الحرية، وينقض حجر الزاوية من قانون الآداب المدنية .

ويستفيض إسماعيل مظهر فى مناقشة النظرية المادية فى التاريخ التى قامت عليها الماركسية، وبصفة خاصة التفسير الاقتصادى لحركة التطور التاريخى، فيسوق الأمثلة التاريخية التى يفسرها الماركسيون بأسباب اقتصادية ليفسرها هو بغير هذا وذاك من أسباب، وعلى سبيل المثال، هذه الحرب الطاحنة التى جرت رحاها بين ألمانيا وانجلترا ووصفت بأنها من أجل المنافسة التجارية، إذ يؤكد، بعد تحليل مفصل، أن المنافسة التى قامت بين الأمتين كان لها باعث جوهرى غريزى هو باعث التناحر على السيادة القومية، أما مظهر الحرب الاقتصادى فهو مظهر اتفاقى حادث .

كذلك يشير مظهر إلى أن الديانات كانت أقوى البواعث فى بقاء الإنسان تابعاً لجماعة بعينها من غير اختيار له فى ذلك، وقد لوحظ أن أشد العمال تطرفاً فى كثير من بقاع أوربا فى العشرينات، فى أرائهم الشيوعية كانوا يخصون الرأسمالى بأصواتهم لدى الانتخاب إذا اشتهر بتدينه وانتمائه إلى الكثلكة، ويضنون بها إلى الاشتراكى إذا عرف بالإلحاد والخروج عن الكنيسة . ص٢٧

ولا شك أن المتأمل فى نقود مظهر إذ يلاحظ صدورها من زاوية مذهب النشوء والارتقاء، لايخفى عليه ما وجه إلى هذا المذهب نفسه من انتقادات يضيق المقام عن الإشارة إليها، وأبرزها هو هذا التطابق الشديد الذى يقولون به بين عالم الإنسان وعالم الطبيعة، مما يجعل عالم الإنسان خاضعاً لميكانيكية غير واقعية، وحتمية تلغى الإرادة الإنسانية، وتحاصر الحرية البشرية التى هى مربط الفرس فى كثير من النقد الذى وجه إلى الاشتراكية .

٨٩ شهرا فى المنفى!*

فى الوقت الذى سقطت فيه (الأعلام الحمراء) إعلانا عن سقوط الأنظمة السياسية التى قامت علي أساس ماركسى، تكثر عمليات إسدال الستار وإهالة التراب وإطفاء الأنوار على كل الرموز التى كانت تبشر وتدعو إلى الماركسية .

لكننا اليوم نريد أن نخالف الاتجاه - القاعدة، لا عن رغبة فى المخالفة وفقا لقاعدة أخرى (خالف تعرف)، ولكن انطلاقا من مهمة (التأريخ) التى تحرص على أن تعطى كل ذى حق حقه، فما حدث قد حدث، ولا ينبغى لعواطفنا إذا توجهت توجها مضادا لما حدث، أن تزيفه أو أن تسدل عليه ستار النسيان .

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فنحن مولعون بشهر السكاكين على من (يسقطون)، حيث تكثر عرائض الاتهام وتزدحم الصفحات بأحكام الإدانة ويمتلئ الميدان - فجأة - بعدد من الشجعان وأشباه الشجعان !!

وهكذا إذا كنا قد شهدنا فى السنوات الأخيرة ظاهرة (التكفير) دينيا، أن لهذه الظاهرة صورة أخرى ألا وهى (التكفير السياسى) عن طريق (التخوين) و(التعميل) - الرمى بالعمالة - لمن يخالفنا فى الرأى هروبا منا من مشقة مقارعة الحجة بالحجة، ودفاعا غبيا عن وجودنا وكأنه لا يكتسب شرعية إلا بنفى الآخر !

لقد كشف السقوط الذى حدث لأنظمة الحكم الماركسى عن أخطاء جسيمة، ليست مهمتنا هنا عرضها فضلا عن مناقشتها لمعرفة ما إذا كانت هذه الأخطاء تعود إلى (التطبيق) أم إلى (النظرية) .

ومع اقتناع كاتب هذه السطور بصحة العديد من هذه الأخطاء، سواء فى النظرية أم فى التطبيق، إلا أن هذا لايبرر مطلقا الانطلاق إلى التكفير السياسى لمن ساروا على هذا الدرب فى التاريخ المصرى الحديث، فنحن لا نشك فى جدية كثيرين من هؤلاء وإخلاصهم ووطنيتهم ، لا بمجرد إحسان الظن وافتراض حسن النية، وإنما بدلالة ما تعرض له نفر من هؤلاء من تشريد واعتقال ونفى وسجن وتعذيب .

ولعلنا نقف اليوم أمام نموذج من هؤلاء، لم يكن ضحية مطاردة الاحتلال البريطانى والسلطة الحكومية المصرية فقط، وإنما طاردته كذلك شكوك ممن ساروا على دربه ..

---

* مجلة سطور، أغسطس ١٩٩٧ .

انه : محمود حسنى العرابى .

ففى التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٩٢١، نشرت جريدة الأهرام بيانا يعلن قيام (الحزب الاشتراكى المصرى) كان مما جاء فيه :

«فى تلك الآونة التى تعصف فيها النظم الرأسمالية الفردية بحياة بنى الإنسان وأرواحهم وعقولهم وجهودهم ، تبث النظم والمبادئ الاشتراكية فى الأفئدة المعذبة لإنجاد الإنسانية وإغاثتها من بطش القوى الظالمة وتحقيق غايات العدالة الطبيعية من تأييد عواطف التآخى والسلام فى المجتمع الانسانى والقضاء على افتيات المستعمرين المستغلين الذين سلبوا حرية الشعوب والأفراد وسعوا إلى تحقيق رفاهيتهم بالاضطهاد المريع للأمم والمجتمعات المستضعفة ..» (رفعت السعيد : تاريخ الحركة الأشتراكية فى مصر ١٩٠٠ - ١٩٢٥، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، د.ت ص١٨٤)

وكان الموقعون على هذا البيان أربعة : د. على العنانى - سلامة موسى - محمد عبد الله عنان، وكان الرابع هو : محمود حسنى العرابى

وصاحبنا كان ينتمى إلى أسرة ثرية، أتاحت له فرصة التجارة بالقطن و المضاربة فيه مما فتح الباب له لكسب الألوف المؤلفة من الجنيهات، ومع ذلك فقد آثر أن يترك هذا الطريق المغرى المفروش بالورود والرياحين ليسير فى طريق آخر امتلأ بالأشواك .. والجوع والفاقة والتشريد والاعتقال وسوء الظنون !!

ترجم كتابا عن الحركة الاشتراكية لرئيس الحكومة الأنجليزية (رامزى مكدونال)، فضلا عن عشرات المقالات فى العديد من الصحف والمجلات .

وبعد عام واحد من تأليف (الحزب الاشتراكى) كان العرابى على رأس حركة تحويل الحزب إلى «حزب شيوعى» ، مما أدى إلى حركة انشقاق ليس من مهمتنا تتبعها، ولكن ما يهمنا هنا هو سفر العرابى إلى موسكو حيث حضر المؤتمر الرابع للكومنترن طالبا الاعتراف بالحزب المصرى كعضو فى الدولية الثالثة (المرجع السابق، ص ٢١٨) .

وعندما شنت الحكومة المصرية هجوما عام ١٩٢٤ على كوادر الحزب، إذا بالعرابى - سكرتير الحزب - يغير موقفه بعد الإفراج عنه على أساس أن الإسم الأول (الاشتراكى) لم يكن مثيرا للسلطة الحاكمة بمطاردته، وبالتالى فليس من الضرورى التمسك باسم (الشيوعى) خاصة وأن قوانين البلاد لم تكن تسمح بذلك . لكن كوادر الحزب رفضت هذا وأصرت على التمسك بالإسم ولو أدى ذلك إلى النزول إلى العمل السرى، ووصف موقف العرابى بأنه ذا «مضمون انتهازى» !!

وعلى الرغم من انفصال الرجل عن (التنظيم الحزبى) إلا أنه واصل مسيرته عن طريق آخر هو طريق الدعوة الفكرية بالكتابة فى الصحف والمجلات، ذلك الطريق الذى لم يسلم الرجل فيه من (التشكيك) فى صدقه، فرفعت السعيد بعد أن يعدد المجلات والصحف التى كتب الرجل فيها يقول : «وربما كان إفساح المجال بهذه الصورة للعرابى كى يكتب فى كل هذه المجلات دفعة واحدة نوعا من المؤامرة المحبوكة التى استهدفت اصطياد العرابى بعيدا عن الحزب وتشجيعه على سياسته الانفصالية ومحاولة إيهامه بأن تحقيق فكرته أمر ممكن .. » (اليسار المصرى ١٩٢٥ - ١٩٤٠ بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٢، ص ١٩٤٣)

وفى رأينا أن هذا حكم ربما يكون مبالغاً فيه، فالكتابة عن (الاشتراكية) لم تكن ممنوعة مما يجعل الأبواب مفتوحة لمن يطرقها من هذا الباب كما رأينا بالنسبة لسلامة موسى ونيقولا حداد وغيرهما مما لايكون بالضرورة هذا نتيجة «مؤامرة محبوكة» ، وكم من مفكرين ناصروا المذهب دون رغبة فى الانخراط فى سلك (التنظيم) لأسباب لا داعى لذكرها .

ولعل الملاحقة التى استمرت بعد ذلك للعرابى قد أشعرت الرجل بأن الخناق مضيق عليه ، وإشتد ذلك عليه بصفة خاصة عام ١٩٣١ حيث رصدت الجواسيس أمام داره ليل نهار حيث كان يسكن فى ذلك الوقت فى حارة ضيقة فى حى (السكاكينى) فأثارت هذه المراقبة شكوك الجيران وشبه البوابين، فأخذوا ينظرون إليه شزرا ويتهامسون فيما بينهم كلما وقع نظرهم عليه.

بل لقد أرسلت السلطات الأمنية وراءه غلمانا تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين يلزمون خطواته لزوم الظل، لايتعففون عن الركوب وراءالعربات والقفز فى الترامويات من ناحية الشمال، ومطاردة السيارات على العجلات، وآخرين لمشاركته فى المائدة التى يجلس عليها فى مشارب القهوات يرهفون بشكل ملحوظ آذانهم لما يدور بينه وبين جلسائه بدون أن يشاركوا فى الحديث، فضج أصحابه ومعارفه من هذه الحال، وابتدأوا ينسحبون من حواليه واحدا بعد الآخر، وتعذر عليه العمل فى جريدة أو مكتب وأوشكت البقية الباقية من رأسماله الذى كان ينفق منه منذ سنين بدون إستثمار على النفاد كما كتب فى كتابه المعنون بنفس عنوان هذا المقال : ٨٩ شهرا فى المنفى (مطبعة المتوكل بالجماميز، ١٩٤٨) .

ومن هنا كان التفكير والعمل بالفعل على الهروب من مصر، حيث استقر ببرلين . وفى برلين تنقل الرجل بين أوضاع متعددة غلب عليه فيها البؤس والفاقة ، وزاد الطين بلة أن تلقى خبر مرسوم ملكى صدر بتجريده من الجنسية المصرية ليضيف إلى متاعبه كما آخر كتب معبرا

عن هذا الوضع : «ليس لغريب فى بلد كبير أن يطمع فى يد تجفف دموعه أو صوت رقيق يخفف عنه آلامه أو قلب يشاركه دقات قلبه . أنا غريب فى برلين ، غريب فى لغتى، غريب فى عاداتى، غريب فى ثقافتى، غريب فى دينى، ليس لدى أحد أستطيع أن أعتمد عليه ..» ص ٤٨

ثم استطاع بعد لأى أن يجد عملا كمدرس للغة العربية بكلية اللغات الشرقية بجامعة برلين، وأظهر العميد معرفته بالعرابى : «أنا أعرف اسمك منذ زمن بعيد، وكتابك كذا المترجم عن الإنجليزية فى مكتبتى وأظن أنى قرأت لك شيئا فى الصحف العربية . أنت بدون شك الأديب الذى كتب عنه المؤرخ الألمانى هانزكون فى كتابه (الاستعمار والشرق) ..» ص ٧٩

لكنه لم يهدأ طويلا بهذا العمل، فبعد الانقلاب النازى الشهير، وفى أواخر أبريل من عام ١٩٣٣ فوجئ بفصله من العمل دون إبداء الأسباب ودون تعويض، وحاول أن يعرف السبب فعبثا حاول فكتب مباشرة إلى (هتلر) يحكى فى خطابه أحواله وظروفه وكان مما ذكره عن دعوى الحكومة المصرية بأنه ينتسب للشيوعية والشيوعيين «فأحب أن أوكد لفخامتكم أنى انقطعت عن ذلك قبل حضورى إلى ألمانيا وأوراقى الموجودة فى رياسة البوليس وعند الجوستابو تؤيد هذا» ص ١٥٩ .

وأحال هتلر الخطاب إلى وزير الخارجية الألمانية (هرفون رات) حيث استطاع العرابى أن يقابله بالفعل ومع ذلك فإن النتيجة لم تكن إيجابية .

وقد استدعى مرة إلى مقر (الجوستابو) عام ١٩٣٤ حيث جرى حوار بينه وبين المسئول، يهمنا منه الجزء التالى :

- هل تعرف رجلا يهوديا اسمه (ر) يشتغل بالجواهر فى الاسكندرية ؟ . نعم
- هل اشتغل معك فى أول الحركة التى قمت بها فى ذلك الحين ثم حاربك فيما بعد ؟ . نعم
- هل تعرف يهوديا آخر اسمه ... كان معكم فى الحركة ووضعت عنده ١٠٠ جنيه أمانة دون إيصال، ولما أردت استردادها منه اعتذر بأنه تصرف فيها ثم قدم استقالته من الحركة وسافر الى فلسطين ؟

وظل يسأله على هذا النحو نحو عشرين دقيقة، ولاحظ أن المعلومات التى لديه كانت كلها صحيحة، وأن أسماء جميع اليهود الذين كانوا يعملون معه فى الحركة الشيوعية معروفة جميعا عنده . ولما سأله مسئول الجستابو :

- أين هؤلاء اليهود منك الآن ؟ وماذا صنعوا لك فى نكبتك هذه ؟ أجاب : . معذرة لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال بلا أو نعم . فابتسم الرجل معقبا :
- لا أريد جوابا على هذا السؤال، ولك أن تتبسط فى الإجابة بعد الآن إذا شئت .

وأخرج من الأوراق التى كانت معه صورة فوتوغرافية وقدمها إلى العرابى سائلا :

- أتعرف صاحب هذه الصورة ؟ فأخذت العرابى الدهشة عند تدقيقه فيها وفغر فاه تعجبا، فأعاد المسئول السؤال، فكان رد العرابى بالإيجاب .. لقد كانت له وهو فى الثالثة أو الرابعة عشرة وليس لديه منها صورة وكم تمنى لو حصل عليها . صـ ١٢١-١٢٢

وتمر السنون بالرجل وهو تارة يجد عملا متواضعا يستعين بدخله على المعيشة، وتارة يجد نفسه بلا عمل يكاد يتضور جوعا حتى انصرم عام ١٩٣٧ وهو يتطلع إلى العودة إلى مصر، وعندما يتذكر بعض الجهود التى يسعى إليها لتحقيق هذا الغرض يشعر وكأن كهرباء قد سرت من أطرافه إلى جسده «.. وفى المآقى دمعة تكافح للانسياب، وتأبى العين إلا حبسها، فبلعت ريقى عدة مرات على المر والحنظل الذى ملأ فمى . أية مساع تلك التى أثمرت ... وليس لى هناك والد ولا ولد، وعائلتى متنافرة متقاطعة، ولاصديق يرعى حرمة الصداقة، ولا أنا من ذوى الجاه أو السلطان فيطمع طامع إذا دار الفلك دورته وعاد إلىّ جاهى وسلطانى أن أرد إليه يده .. » صـ ٢٥١ .

وفى هذا العام ١٩٣٨ قادته المصادفة إلى عدد من الأخوة العرب يطلبون منه حضور الجمعية العمومية لجمعية النادى العربى التى كونها بعض العرب المقيمين فى برلين، حيث اعتبروا التبرعات التى كان يرسلها أوقات اليسر، اشتراكا فى النادى . وكانت المفاجأة ليست مجرد اشتراكه فى الانتخابات، بل وفوزه واختياره رئيسا للنادى مما جعله يعاود مرة أخرى صورة من صور النشاط السياسى لا فى النطاق المصرى وإنما فى نطاق القضايا العربية عامة مما كان له أثره - فيما نرجح - أن ترفع الحكومة المصرية الحظر عليه وتتيح له بعد ذلك فرصة العودة إلى مصر .

لقد كان الرجل قد حاول فى عام ١٩٣٤ أن يسعى لدى حسن نشأت (باشا) الذى كان وزيراً مفوضاً لمصر فى برلين فى تلك الفترة كى يعيده إلى مصر ولكن نشأت اعتذر عن عدم فعل هذا، وأثارت صحف فى مصر قضيته ومع ذلك لم تتحرك الحكومة .

لكن رئاسة العرابى للنادى العربى وضعته فى قلب القضايا العربية فى وقت كانت فيه نذر الحرب العالمية الثانية فى الأفق ، واتساع شقة الخلاف بين ألمانيا وإنجلترا صاحبة الأمر والنهى فى مصر فى ذلك الوقت . وإذا تذكرنا أن فلسطين كانت كذلك محتلة من قبل انجلترا ذلك الاحتلال الذى كان يسهل هجرة اليهود إلى هذا الوطن المنكوب، وفى نفس الوقت كانت جهود دالنازية المضادة لليهود واضحة، أدركنا كيف رأت السلطات الألمانية فى جهود العرابى

ونادیه سندا لها فی مواجهة الإنجلیز .

وكان العرابی قد شكل ضمن لجان النادی لجنة باسم «لجنة الدفاع عن فلسطین فی أوربا» حیث لاحظ فی البدایة أن صحف ألمانیا كانت مضربة عن نشر أنباء ثورة العرب فی فلسطین ضد الإنجلیز أو التعلیق علیها نظرا لحسابات ألمانیا السیاسیة الدولیة الخاصة قبل أن تستعر الخلافات، فكان لابد للعرابی من عمل شئ للفت نظر الصحف إلی هذه الثورة العربیة، وفشلت جهوده فی هذا الشأن عدة مرات، إلی أن تلاقت مصلحة الألمان مع المصلحة العربیة فی مناوأة الإنجلیز خاصة وقد أرسل العرابی برقیة إلی هتلر، ضمن عدید من البرقیات إلی عدد ممن الرؤساء والملوك والمسئولین، واستحث هتلر فی برقیته بمساعدة العرب فی محنتهم بفلسطین وحُدد له موعد لمقابلته ولكنه أناب عنه (ایرش) المستشار الأول حیث قال للعرابی أن «الفورر -هتلر- یعد العرب وعد رجل شریف أن یدافع عن قضیة فلسطین فی كل وقت وأن لا یترك مناسبة إلا ویرفع فیها صوت بالدفاع عن العرب» .

وإذا بالصحف والاذاعة الألمانیة تمتلئ بالهجوم العنیف علی بریطانیا مدافعة عن الحق العربی فی فلسطین .

وانتهز العرابی فرصة عودة حسن نشأت إلی مصر واستثار حملة وجهودا أخری فی مصر تطالب بالسماح للعرابی بالرجوع إلی مصر . وإذا كانت الجهود هذه المرة قد أثمرت ، فلم یكن ذلك بتأثیرها المباشر بقدر ماكان من مصلحة لبریطانیا فی ألا یستمر العرابی فی ألمانیا حیث یستثمره الألمان فی الدعایة ضدها .

ویستوقفنا تعلیقا علی هذا ماذكره د. محمد أنیس من أن العرابی قد انتهی به الأمر إلی أن یصبح «من دعاة النازیة» (رفعت السعید : الیسار المصری، ص ١٥١) ، ففی رأینا أن المسألة لیست بالضرورة كذلك، فقد شاع بین كثیرین من المصریین التشیع للألمان فی ذلك الوقت، لا حبا فی النازیة بقدر ما كان كراهیة فی المحتل الانجلیزی جریا علی قاعدة : عدو عدوی صدیقی، ونحن نذكر كیف كان مصطفی كامل وغیره من زعماء الحركة الوطنیة فی بدایة الاحتلال یتشیعون لفرنسا دون أن یعنی ذلك اتهامهم بالعمالة لها بقدر ماكانوا یستعینون بها لمناوأة الإنجلیز حیث كان التنافس شدیدا بین انجلترا وفرنسا، وهو نفس الأسلوب الذی اتبعه كثیرون وقت وجود الاتحاد السوفیتی كراهیة فی الهیمنة الأمریكیة دون أن یعنی ذلك عمالة للسوفیت وهكذا ..

القول الفصل فى سعادة الأمة*

سمة هامة مركزية نلاحظها دائما ضمن السمات التى تميز كبار المفكرين الذين يتركون علامة بارزة فى مسيرة الفكر، وهى انشغالهم بالدرجة الأولى بهموم الأمة التى ينتمون اليها : أمراضها ومشكلاتها، حاضرها ومستقبلها، أهدافها وسياستها .

من هنا نفهم هذا الحرص الدائم الذى يلمسه المستقرئ لكتابات واحد من أبرز مفكرى الأمة الاسلامية فى أوائل القرن الحالى، ألا وهو (محمد رشيد رضا) التلميذ الشهير لعملاق الإصلاح الشيخ محمد عبده، وذلك كما يتبدى لنا على صفحات المجلة التى كان يصدرها رشيد باسم (المنار) .

ولا شك أن الأمة الإسلامية عندما أصدر رشيد المنار عام ١٣١٥ هـ = ١٨٩٨م كانت تعانى من سئ الأوضاع ما أفزع رشيداً وغيره من المفكرين المهمومين بحال المسلمين، فقد كانت أرض الإسلام تقع واحدة تلو الأخرى فى أيدى الاستعمار، ومظاهر التخلف تتبدى فى كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية، وخرافات لا حصر لها تغزو الفكر الدينى، وجهل مطبق، وفقر مدقع، وأمراض شتى .

وفى فاتحة العدد الثانى من المنار الذى صدر يوم الثلاثاء ٢٩ شوال سنة ١٣١٥هـ كتب دراسة مستفيضة حول هذه القضية تخيل فيها أن واحدا من أصحاب الفكر الجاد والعقول النيرة قد نظر فى كتب التاريخ نظر التأمل والاعتبار، ووقف على شئ من أحوال الأمم فى أطوارها وأدوارها من بداوة وحضارة وهمجية ومدنية وقوة وضعف وصعود وهبوط وغلبة وانغلاب، ونحو هذا من الصفات المتقابلة والشؤون المختلفة، ثم بدا له أن يكمل الفهم بالضرب فى أرض الواقع لمشاهدة حركة الأمم والشعوب لاختبار ما انتهى إليه من جملة تأملاته فى الكتب والدراسات .

وراح صاحبنا يضرب فى الأرض شرقا وغربا ويخالط الأمم والشعوب على مختلف ألوانها وأشكالها، وخبر الأخلاق وشاهد العادات وتابع سير العلوم والفنون، ووقف على أمهات الصنائع والأعمال، وتأمل قوى العقول والأفكار، ثم شرع فى المقابلة والنظير، فانتهى إلى أن الأسس الفطرية والإستعدادات الطبيعية التى خلق الله عز وجل هذه الأمم بها واحدة، وأن

---

* مجلة سطور، عدد يناير ١٩٩٨ .

هذه الصور المتعددة من التفاوت الحضارى لم يأت من اختلاف المدارك والتفاوت فى الاستعدادات، وإن كان التفاوت الحضارى قد انتهى بأمم إلى أن تكون أقرب إلى العجماوات والخروج من دائرة النوع الإنسانى، ويرتقى بأمم أخرى إلى مصاف الملائكة . وكان لابد أن يكون هذا دافعا لمفكرنا أن يتأمل ويفكر بحثا عن أسباب هذا التفاوت وعوامله. وقد توصل بالفعل إلى مايريد .

عاد مفكرنا إلى قومه عاقدا العزم على أن يجعل من نفسه (طبيب أمة) عرف عللها وأوجاعها، ووصل إلى أسباب هذه الأوجاع والأمراض، ووضع يده على أدوية من شأنها أن تسير بأبناء الأمة إلى مرتبة الشفاء، ودرجة الصحة والعافية .

وعندما بدأ مفكرنا حديثه مع بعض أبناء الأمة فى مشكلاتها وأمراضها، فوجئ ببعضهم يقول أن الكلام فى هذا الموضوع يتعب البال ويزعج الخاطر، وأنه عبث لايفيد شيئا «فإن الأمر كله لله وليس لإرادة الناس أثر فى أعمالهم ولا لأعمالهم أثر فى منافعهم، بل ليس لهم إرادة أيضا، بل هم فى الحقيقة كالريش فى الفضاء تصرفه رياح الأقدار وتتلاعب به، ولا إرادة ولا اختيار ..» .

وكان لابد أن يفزع هذا مفكرنا، فمثل هذا الفكر الجبرى من شأنه أن يقعد عن العمل ويبعد عن النهوض ، بينما سبحانه وتعالى أمر المسلمين بالسعى فى مناكب الأرض والاستعداد بالقوة فى مختلف مظاهرها والمجاهدة التى لا تقف عند حد رفع السلاح فقط وإنما تمتد لتشمل مواجهة الصعاب والمشكلات والسعى لرفعه شأن الأمة الإسلامية والتمكين لدين الله فى مختلف بقاع الأرض .

واستمرارا على نهج السلبية كان صاحبنا إذا حدث (مصريا) فى أمر يتعلق بمصلحة وطنية يتوكأ على عكاز الجبر، ويقول : (هوه بيدنا إيه؟)، وإذا كلم (سوريا) فى مثل ذلك، يستند أيضا على هذه العصا ويقول : (شو طالع باليد؟) وربما أردفوها على سبيل الاحتجاج بهذا النص الشريف (ليس لها من دون الله كاشفة) .

إنها كلمة حق أريد بها باطل، ولعل أبرز دليل على ذلك أن واحدا من هؤلاء السلبيين الجبريين إذا ألمت بشؤونهم الخاصة ملمة تجده يجتهد لتلافيها بما يستطيع من الأسباب، بل ولربما تعدى الأسباب الطبيعية إلى ما ليس بسبب أصلا ويتخذ من الوسائل الوهمية التى يأباها الشرع وينبذها العقل كالإستعاذة بالعوالم غير المنظورة من الجن والشياطين والاستعانة بالأموات من العلماء والصلحاء، يخاطبون هؤلاء فى أضرحتهم مقدمين الهدايا، ويستخدمون

الأحجبة والعزائم والطلاسم وإحراق البخور. وهكذا يكون الواحد من هؤلاء جبريا بإزاء المصالح العامة، وغير ذلك بإزاء منافعه الخاصة !!

وبعد أن شرح مفكرنا لجلسائه واجب المسلم فى الكدّ والكدح والجهاد والنضال والوعى .

وحتى يسير النقاش مع الآخرين فى مسار يتسم بالوعى والاقتناع، رأى مفكرنا أن يطرح بعض التساؤلات المثيرة للتفكير، منها على سبيل المثال:

- أى شئ يمحو من نفوس أفراد الأمة الأثرة والاختصاص بالمنافع دون قومهم ويثبت فيها حب الوطنية والجامعة الجنسية بحيث يرى كل واحد أن منفعته فى منفعة أمته ومضرتها عين مضرته ؟ بل ماهى الروح التى تنفخ فى آحادها فتحيا بعد مماتها وتجتمع بعد شتاتها، وتكون جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء ؟ ذلك أن هذا الروح هو الطاقة المحركة لبعض الأمم، وكأنه فقد من أمتنا بالكلية، فانتثر عقد اجتماعهم، وانحل تركيب بنيتهم، وتفرقت كلمتهم ورزؤا بالتخاصم والتنازع والتباغض والتحاسد، وأصبحوا و «بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايفقهون » .

- إذا اعتقدت الأمة بأفرادها تدنى المدارك وضعف العقول والعجز عن الاحتذاء بالأمم الأخرى فيما جاءت به من عجائب الصناعات وما استنبطته من دقائق العلوم والفنون، فما السبيل إلى استثارة وإيقاظ ما أودع فيها من القوى الطبيعية والقدرات الموهوبة الكامنة فى نفوس الناس ؟

- إذا تمكن اليأس من النفوس، من التقدم والقنوط من النهضة ، لتوهم أن زمن تدارك مافات قد ولّى وأنه يستحيل على المتخلف اللحاق بمن سبقه على مدارج النهوض والتقدم، فغلت لذلك الأيدى عن العمل كأنما هى مشلولة، فكيف السبيل إلى كسر الأغلال، حتى نعيد الأمل إلى النفوس فيهجر أصحابها مقاعد القنوط والتفرج والسلبية نحو النهوض بالأمة ؟

- كيف تحافظ الأمم على أديانها ولغاتها وعاداتها النافعة إذا كانت مهددة من أمم أخرى بحكم سنة تنازع البقاء ؟ وكيف ظلت اللغة العبرانية محفوظة فى ألسنة الاسرائيليين مهما ابتلوا به من فقد السلطة والشتات فى الأقطار ؟ ولماذا فسدت مهارات اللغة العربية من ألسنة أربابها مع نمو عمرانهم وامتداد سلطانهم وتدفق الثروة عليهم ؟

- بماذا تحصل الثروة للأمم حيث نرى بعض الشعوب قد استولى عليها الفقر المدقع فلا يوجد فيها من الأغنياء إلا أفراد قلائل، والكثير منهم ما نال الثروة بطرق مشروعة وأعمال إنتاجية شريفة، والسؤال إنما هو عن ثروة الأمة من الطريقة المشروعة ؟

- كيف يسهل على نفر قليل الاستيلاء على شعب كبير يصرفونه فى مصالحهم ويستخدمون أفراده فى منافعهم ويستعملونه كما تستعمل الدواب والأنعام، وهو لايدرى علة هذه السلطة ولا وقوف الأفراده على حقيقة أسبابها، بل لعله لا يفكر فى ذلك وكأنه قد فقد كل إحساس وشعور ؟

... إلى غير ذلك من تساؤلات ...

فلما أتم مفكرنا طرح تساؤلاته وسكت ينتظر الإجابة، إذا بأحدهم يحصر الأمر كله فى السلطة السياسية بفروعها المتعددة، فذهب إلى أن (الأمراء والحكام) هم الأعمدة الحقيقية للأمم وهم الذين ينفخون فى روحها مايؤدى إلى الوحدة، وهم الذين يجرون جداول الثروة بما يمهدون من طرق الكسب ويحفرون من الترع ويبنون من المعامل والمصانع ويهيئون من الآلات والأدوات.. الخ

فما كان من مفكرنا إلا أن طرح تساؤلا آخر على نفس النهج الذى كان مشهورا عن الفيلسوف اليونانى الشهير عندما كان يريد أن يدحض فكرة يطرحها أحد المتناقشين، حيث كان لايبادر بالرفض، وإنما يطرح إشكالا يترتب على الأخذ بالفكرة المقولة، مما يضطر صاحبها إلى التخلى عنها .

كان السؤال المضاد هو أننا لو فرضنا أن الحاكم يستطيع أن يفعل كل ما أشار إليه المتحدث، لكن : هل يستطيع كذلك أن يقتلع من نفوس الأمة جراثيم الأخلاق الذميمة وينقى منها بذور العادات الرديئة التى تنجم عنها الأفعال المضرة، وتغرس فيها بذور الأخلاق والسجايا الفاضلة التى تثمر جليل الأعمال ؟!

إن الإجابة لابد أن تكون بالنفى، ومن ثم يتبين الخطأ الفاحش الذى يقع فيه من يلقى التبعة كلها على الحكام وحدهم .

إن أكثر الأمم النامية لايرون مع الأسف الشديد لهم وجودا إلا بالحكام، ويرون أن صلاح الأمة وفسادها وغيّها ورشادها وصحتها ومرضها وغناها وفقرها، بل ومحياها ومماتها، كل ذلك بيد الحاكم معفين أنفسهم من المسئولية، حتى كأن الحاكم بيده - نستغفر الله - ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه، وكأن هذا الوهم متسلسل فيهم بالإرث من عهد من قال «أنا أحيى وأميت» ، وعهد من قال «أنا ربكم الأعلى»، وجهلوا أن الحاكم ليس إلا رجلا من الأمة، وأن الحاكمية مازادت فى فضائله ولا منحته قوة فوق القوة البشرية . إن الصواب أن إصلاح الأمة لا يكون من الحاكم وحده . صحيح أن الحاكم عندما يسير على طريق الإصلاح، فإن

حركة النهوض تكون أسرع وأقرب إلى النجاح، لكن لابد من البحث عن طريق أدوم أثرا وأفعل عملا وأشمل جهدا .

ثم تتعدد إجابات الحاضرين وتتنوع، وما منها يجده مفكرنا مؤديا إلى المطلوب، وكان لابد أن تتجه الأنظار إلى رأيه هو، فإذا به يلخصة فى عبارة واحدة هى : **تعميم التربية والتعليم!!**

إن كاتب هذه السطور واحد من المشتغلين بالعلوم التربوية، مما قد يلقى على حديثه، إذا أشار إلى جوهرية التعليم فى نهوض الأمة شبهة التحيز المعروف عند أصحاب التخصص الأكاديمى، لكننى أدعو القارى إلى تأمل هذا النص التالى القصير لهذا المفكر الكبير : محمد رشيد رضا الذى لم يكن متخصصا مثلنا فى علوم التربية، ولكنه مهموم بمشكلات وأمراض الأمة الاسلامية، يكتب فى أواخر القرن التاسع عشر منبها إلى أن هذا اللفظ (تعميم التربية والتعليم) «تلوكه الألسنة كثيرا، إلا أن معناه لم يعط حقه من التبصر والتأمل . فإن كنتم فى ريب مما قلت فإننى مستعد لإقناعكم . وإن أذعنتم ولم توجهوا كل قواكم العقلية والمالية للحصول على هذه الرغبة فأنتم العاملون على ضياع أوطانكم وخائنون أمتكم وملتكم»

ويؤكد رشد رضا أن من ينظر فى تاريخ الأمم ويستقرئ شؤونها لابد له أن يلمس كيف أن القوة والمنعة والغنى وبسطة الملك وسائر سبل النهضة، إنما مناطها التربية والتعليم على الوجه الذى ينبغى . وهذا الأمر وإن كان بديهيا عند العارفين بالتاريخ، لأن مسيرة البشرية كلها شاهدة به ودليل عليه، إلا أن السواد الأعظم من أمتنا غافل عنه، لايرجع إليه طرفا ولا يصيخ له سمعا، والواعون بذلك أفراد قلائل يرددون الصيحات ولا ملبى ولا مجيب «كمثل الذى ينعق بها لايسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لايعقلون» .

ويناقش رشيد رضا فى فاتحة العدد الثالث من المنار الذى صدر فى ٧ ذى القعدة سنة ١٣١٥هـ = ١ مارس سنة ١٨٩٨م حجج بعض المعارضين لفاعلية التربية والتعليم فى النهوض بالأمة :

فبعضهم يشير إلى عدد ممن تخرجوا من معاهد التعليم العالية وتلقوا العلوم و الفنون وظهرت عليهم إمارات التوفيق والنجاح حتى صاروا قبلة الآمال ومنتهى رجاء أهلهم، حتى إذا تقلد أمور العمل، إذا بالواحد منهم ينفصل انفصالا شبكيا عن أصوله الاجتماعية وتقاليده الثقافية بحيث لايسعى إلا لمنفعة شخصه وتنمية ماله وان تلفت فى سبيله مصالح الناس .

ومن هؤلاء المتعلمين كذلك - يشير المعارضون - من كان عونا للأجنبى على امتلاك بلاده يمهد له الصعاب ويزيل من أمامه العثرات والعقبات، ويسهل احتمال جبروته على النفوس

الوطنية، بل منهم من باع للأجنبى بلاده بثمن بخس (وكل ثمن تباع به الأوطان فهو ثمن بخس)، أو وعد بأن ينيط به بعض الوظائف أو يكون مقربا من جنابه الرفيع، فما أغنت التربية عن أمثال هؤلاء وماذا أفادهم التعليم ؟هذا بالنسبة لمن تعلموا العلوم السياسية والقانونية، وأما من تعلموا العلوم الشرعية الاسلامية، فاننا رأينا الكثير منهم - زمن رشيد - أيضا قد اتخذها فخا لصيد الدنيا، يحتال ويعلم الناس الحيل لهضم حق الله وحقوق العباد، وإذا تبوأ منصبا (كقضاء أو إفتاء) أو صار محاميا يمكن أن يجعل الحق باطلا والباطل حقا ليشترى به ثمنا قليلا فويل لهم مما كسبت أيديهم «ويالليتهم لم يكونوا متعلمين» .

ولم يكن رد رشيد رضا على هذه الحجة عسيرا، فهذه الفئات التى أشير اليها، إذا كانت قد تعلمت فليست المسألة هى مجرد التعليم، وإنما هى (نوع) هذا التعليم وكيفيته وأهدافه وأساليبه، فمن الممكن أن يكون معلمو هؤلاء من الأجانب، أو من أشياعهم وحاملى لواء توجهاتهم وصنائعهم، وبالتالى فإنهم يعلمون المحتوى والنوع الذى من شأنه أن يصنع من المتعلمين أدوات صالحة لتحقيق أغراض تتنافى مع ماتصبوا إليه الأمة، ووفقا للتعبير المعاصر عن هذه المسألة، فإن التعلم هنا (يعيد إنتاج) فئات المتعلمين بحيث (تديم) حالة التخاذل والتأخر والضعف .

وإذا أردنا أن نسوق مثالا مما يمكن أن يعلم على هذا الطريق، نجد هذا الحرص على غرس الانبهار بما هو أجنبى على وجه العموم وماهو غربى على وجه الخصوص، بإبراز المحاسن ومظاهر القوة، وفى المقابل حرص على إضعاف الثقة بما هو وطنى وأنه لاسبيل لنا إلا بالاستعانة بالأجنبى، بل وأننا مهما فعلنا فلن نستطيع تجاوز المراتب المتأخرة فى مدارج التقدم والتحضر .

ومن الممكن كذلك أن نجد عزوفا عن تدريب المتعلمين على المناقشة وإبداء الرأى الآخر فيما يعرض لهم من مسائل وقضايا، وتربية هذا شأنها، فإن نتيجتها غاية فى السوء، إذ ستنتج للمجتمع شخصيات هزيلة تألف الجمود وترضى بماهو قائم وأن ليس فى الإمكان أبدع مما كان ... وهكذا .

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على مدى فاعلية التعليم وقوته فى (صناعة) الشخصية الإنسانية إن صح هذا التعبير، وأنه بالتالى السبيل الأساسى فى النهوض بالأمة شريطة أن يبرأ من الأهداف التى تتناقض ومصلحة الأمة، وأن ينهج الأساليب التى تجعل منه أداة بناء لا أداة هدم، وسبيل تجديد لاسبيل جمود، وأداة لتفجير طاقات الإبداع والإبتكار الكامنة فى نفوس أبناء هذه الأمة .

شئون الشرق الأوسط فى مؤتمر امريكى*

الاهتمام الغربى بصفة عامة والأمريكى بصفة خاصة بشئون الشرق الأوسط واضح للعيان منذ سنوات عديدة، لكنه زاد بصورة ملحوظة منذ اندلاع الثورة الخومينية فى إيران عام ١٩٧٩، فهناك مراكز الأبحاث والمعاهد والجمعيات والروابط والمجلات والدراسات والمؤتمرات والندوات وغير ذلك من قنوات الدراسة كل مايتصل بدول المنطقة من كل الجوانب .

ويمكن إرجاع بداية ذلك الاهتمام إلى حركة الاستشراق التى بدأت منذ عقود طويلة إنطلقت كلها من رغبة فى تكوين صورة دقيقة وشاملة للدول الإسلامية والعربية تمكن قوى الاستعمار الغربى من التعامل معها بهدف السيطرة والاستغلال والتوجيه إيمانا من هذه القوى بأن الاستعمار ليس حتما أن يكون فى صورة احتلال عسكرى سافر لكنه يمكن أن يكون فى أى صورة من الصور : غزو فكرى، سيطرة اقتصادية، تخلخل اجتماعى .. وهكذا .

أما الغرض المعلن فهو «العلم» و «البحث العلمى» و «التعاون لخير الإنسانية» وغير ذلك من شعارات قد يصدقها السذج، لكنها لاتعدو أن تكون ستارا شريفا يخفى ما هو عكس ذلك.

ومن الجمعيات التى تكونت خاصة بالشئون الشرق أو سطية «جمعية دراسات الشرق الأوسط بشمال أمريكا» MESA وهى إختصار للإسم الأصلى وهو :

The Middle East Studies Association oF North America وكان بدء ظهورها عام ١٩٦٦ على يد عدد من الباحثين من الولايات المتحدة الأمريكية وكندا .

وتتسع الدائرة الزمنية لاهتمامات الجمعية لتشمل الشرق الأوسط منذ ظهور الإسلام حتى الآن وخاصة من خلال «الإنسانيات» و «العلوم الاجتماعية» .

وعضوية الجمعية مفتوحة لكل من يرغب الانضمام إليها نظير رسم زهيد سنوى والمقر الرئيسى لها هو جامعة أريزونا، قسم الدراسات الشرقية .

وتعقد الجمعية مؤتمرا عاما كل عام فى إحدى الولايات لايرتبط بموضوع بعينه وإنما تترك المجال مفتوحا على مصراعيه، فلكل باحث أن يكتب فى الموضوع الذى يرغب الكتابة فيه بحيث تجئ الحصيلة متنوعة أشد مايكون التنوع، شاملة أدق مايكون الشمول من الجوانب السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والتاريخية والدينية ..

---

* الهلال فى مارس ١٩٨٥ .

والمؤتمر الذى عقد مؤخرا هو المؤتمر (الثامن عشر) وكان مكانه فى المدينة الأمريكية الساحرة (سان فرانسسكو) فى فندق (شيراتون بالاس) .

ولكى نتصور مدى ضخامة المؤتمر، فلابد أن نعلم أن عدد البحوث التى قدمت قد زادت على الأربعمائة (٤٠٠) تم عرضها كلها بلا استثناء . وقد يعجب القارئ بطبيعة الحال، كيف يعرض هذا العدد الضخم فى مدة لاتزيد عن ثلاثة أيام ؟ والإجابة هى أن الجمعية تنظم ماقد يصل إلى (٤٥) حلقة بحث فى اليوم الواحد، فى كل حلقة تعرض بحوث أربعة فى الغالب، وتدور كل حلقة حول محور معين .

وهكذا يجد المدعو أمامه فى كل ساعة قائمة طويلة بالبحوث المعروضة له أن يختار أيا منها وفقا لاهتماماته الخاصة .

وكنموذج للمحاور التى دارت حولها بعض الحلقات، نجد :

- أفغانستان، العام الخامس لحركة التحرير .
- أثر التغريب على المدن العثمانية فى القرن التاسع عشر .
- المشكلة اللبنانية .
- الأدب العربى المعاصر .
- النظريات الدينية والسياسية فى الشرق الأوسط .
- الانتخابات الأخيرة فى مصر وتركيا وإسرئيل .
- التطور السياسى والاقتصادى والصراعات في جمهورية إيران الإسلامية .
- الفكر الاقتصادى والسياسى الإسلامى الحديث .
- حدود السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط .
- دراسات مقارنة حول الأيديولوجيا والتعليم .
- نحو فهم لطبيعة الشريعة الإسلامية .
- الصهيونية .
- النساء والحركات السياسية فى الشرق الأوسط .
- الأكراد .
- إسرائيل، المجتمع والسياسة .
- السياسة فى مصر المعاصرة .

- دراسات أنثروبولوجية جغرافية عن الشرق الأوسط .
- النمو الحضرى فى العالم العربى .
- ليبيا المعاصرة .
- الثروة النفطية وتكوين الطبقة العاملة .
- موضوعات فى الفكر الشيعى الكلاسيكى .
... وهكذا

وقد دعى كاتب هذه السطور لحضور المؤتمر حيث قدمنا بحثا عن (نشأة المدرسة فى الإسلام)

ذلك أن المستقرئ لتاريخ التربية الإسلامية يلاحظ أن (المدرسة) كمؤسسة تعليمية لم تظهر إلا فى أواخر القرن الثالث الهجرى، وذلك لوجود مؤسستين أخريين وهما (المسجد والكُتاب) والسبب الرئيسى فى ذلك هو أن الثقافة الإسلامية ظلت فى عهدها الأول تدور حول القرآن الكريم والسنة النبوية مما كان داعيا لظهور عدد غير قليل من العلوم والدراسات الدينية كعلوم التفسير والحديث والقراءات والفقه وأصوله وأسباب النزول .. وما إلى ذلك . وكان هذا أمرا طبيعيا ، فالدين الجديد كان بحاجة إلى تفسير نصوصه واستخراج الأحكام منها، وكان بحاجة إلى وضع المعايير التى تضبط البحث فيه . وكانت جماهير الناس بحاجة إلى العلم به وفهمه، وكان هو بحاجة إلى التسلح بعدد من الأدلة والبراهين المنطقية والعقلية التى يجابه بها المنكرين له .

ولا شك أن مثل هذه الدراسات كان يناسبها جيدا أن تتم داخل المسجد فضلا عن الكتاب لتعليم القراءة والكتابة أولا وحفظ القرآن وبعض المعلومات الأساسية بحيث لم يقتصر المسجد - كما هو معروف - على أن يكون مكانا لأداء شعائر الدين الإسلامى فحسب، بل امتدت وظيفته لتشمل كذلك الوظيفة التربوية والمهام التعليمية وخاصة المساجد الكبرى مثل الأزهر والزيتونة والقيروان وقرطبة والمسجد الحرام والمسجد النبوى، حتى لقد مثلت هذه المساجد دور الجامعات تمثيلا جيدا .

فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية واحتك المسلمون بغيرهم من الشعوب الأخرى وخاصة أصحاب الحضارات القديمة مثل اليونانيين والرومان والمصريين والفرس والهنود، ونظرا للتقدم والتطور الحادثين فى شئون الحياة والثقافة لدى العرب، كان لابد أن تظهر علوم أخرى

ودراسات متعددة خارج نطاق الدائرة الدينية، مثل الطب والكيمياء والفيزياء والفلسفة والجغرافيا والرياضيات وغير ذلك من العلوم التى يسميها المؤرخون بـ (العلوم الدنيوية) . وعلوم مثل هذه ليس مكان تعليمها وتعلمها هو المسجد أو الكتاب، نظرا لطبيعتها التى تدعو إلى استخدام آلات وأجهزة وتجارب أو مناقشات عنيفة، ومن هنا كان لابد من ظهور موسسة تربوية أخرى، فكانت تلك المؤسسة هى (المدرسة) .

وكانت هناك عوامل أخرى ساعدت علي ظهور المدرسة فى العالم الإسلامى نذكر منها على سبيل المثال :

الصراعات المذهبية بين الشيعة والسنة، فمن المعروف أن الدولة البويهية التى كانت بالعراق، كانت دولة شيعية، فأرادت أن تمكن للمذهب الشيعى فى نفوس الناس، وتحقيق مثل هذا الهدف لا يتم بقوة السلاح ولا بالقانون وفرضه، وإنما بالفهم والإقناع والدعوة والحوار والنقاش، ولما كان المسجد «بيتا لله» يؤمه المسلمون بمختلف طوائفهم ، كان من الصعب أن تحقق الدعوة للمذهب فيه وخاصة أن هذه الدعوة تقتضى نقدا لآراء أهل السنة وهم الجمهرة الكبرى من المسلمين، فكان البويهيون من أوائل من أسسوا المدرسة لتساعدهم فى تحقيق هذا الغرض .

فلما قامت الدولة السلجوقية على أنقاض الدولة البويهية، كان لابد من التسلح بنفس السلاح لاقتلاع جذور المذهب الشيعى حيث أن الدولة الجديدة كانت دولة سنية، وتم ذلك على يد وزير هذه الدولة المشهور (نظام الملك)الذى أنشأ أشهر مدرسة فى تاريخ التربية الإسلامية وهى (نظامية بغداد) حتى أن البعض ليرجع بتاريخ المدرسة الإسلامية إليها وحدها .

وكذلك عندما قامت دولة الأيوبيين السنية فى مصر على أنقاض دولة الفاطميين الشيعية، حرص صلاح الدين – ولأول مرة فى تاريخ مصر الأسلامية – على إنشاء المدارس للتقليل من نفوذ الأزهر باعتباره – فى نشأته الأولى – مؤسسة الشيعة الأولى وصرف انتباه طلاب العلم إلى غيره، وقد تابعه فى ذلك من جاء بعده من الحكام .

– وإذا كنا نلمس اشتداد المد المدرسى فى عصر سلاطين المماليك بالذات فإن ذلك يمكن تفسيره بأن هؤلاء السلاطين كانوا يشعرون فى قرارة أنفسهم بقدر من (الدونية) إزاء العرب حيث أنهم «عبيد» اشتراهم أصحابهم من مختلف أنحاء العالم الإسلامى، والعرب – على الرغم من حرص الإسلام على نفى هذا الاتجاه – ظل الميل والتفاخر بالأنساب والأعراق اتجاها قويا

لديهم ومن ثم فإن نشر المدارس والإنفاق عليها بسخاء يثبت للمماليك فضلا دينيا هاما فقد كانوا بذلك ينشرون العلوم والدراسات الدينية، وطلب العلم والسعى إليه بنص كلمات الرسول صلى الله عليه وسلم « فريضة على كل مسلم» .

وبالإضافة إلى دراسة العوامل والظروف التى أدت إلى ظهور المدرسة فى العالم الإسلامى، فقد ناقشنا فى هذا البحث مختلف الروايات التى حاولت أن تثبت تاريخا معينا لهذه النشأة وأظهرنا بطلان تلك «الإشاعات التاريخية» التى راجت بين كتب تاريخ التربية فى إرجاع ظهور المدرسة إلى جهود الوزير السجوقى (نظام الملك) بإنشائه (المدرسة النظامية) ببغداد مما يضيق المقام بذكر تفاصيله حاليا .

وفى رأيى أن من أهم البحوث التى قدمت ذلك البحث الذى قدمه (الباحث المصرى الألمعى) «بهجت قرنى» الذى يعمل بجامعة مونتريال ، بكندا عن اتفاقيات كامب ديفيد باعتبارها محصلة لمسيرة السياسة المصرية فى فترة السبعينيات نحو التنمية غير المعتمدة على الذات .

وقد بدأ الباحث بحثه بالإشارة إلى ماحدث فى السادس والعشرين من فبراير ١٩٨٠ عندما استيقظ سكان الدقى على صرخات عدد من الطالبات العرب عندما شهدن - ولأول مرة فى تاريخ المنطقة العربية - علم إسرائيل يرتفع على السفارة الإسرائيلية بالقاهرة إيذانا بالوضع الجديد .

ثم سار البحث وفقا لأقسام ثلاثة :

القسم الأول، حلل فيه الباحث بعض الأحداث والوقائع التى تمت خلال الثلاثة عشر يوما التى استغرقتها مباحثات كامب دايفيد بين الرؤساء الثلاثة كارتر وبيجين والسادات على الرغم من أن تقدير كارتر لهذه المباحثات أن تستغرق ثلاثة أيام، مع الاستعداد للاستمرار لمدة أسبوع إذا كان هناك أمل فى إتمام الاتفاق . وكان حماس كارتر شديدا وإلحاحه واضحا، ذلك أن موعد الدورة الثانية لانتخابات الرئاسة الأمريكية كان قد اقترب ولابد من إحراز «خبطة» دبلوماسية تخطف الأبصار وتعلى من شأنه فى السباق الانتخابى . وتم لكارتر ماأراد فى مارس ١٩٧٩، وإن لم يمكنه الخمينى . بالإضافة إلى ظروف أخرى - من الفوز بالرئاسة للمرة الثانية !!

القسم الثانى . تحليل إحصائى للاتفاقيات التى تمت بين كل من مصر والكتلتين الرئيسيتين (الكتلة الشرقية والكتلة الغربية)، حيث أشارت الإحصاءات إلى تزايد الاتفاقيات مع الكتلة الغربية وعلى العكس من ذلك انخفاضها الملحوظ مع الكتلة الشرقية فى الفترة من ١٩٧١

- ١٩٨١، وذلك كما يتضح لنا من الجدول التالى من خلال أربع فئات من الأتفاقيات :

نوع الإتفاقية / المنطقة	دبلوماسية	عسكرية	ثقافية	اقتصادية	الجملة
الولايات المتحدة وجمهرة البلدان الغربية	٤	٢٣	٢	٤٠	٦٩
الإتحاد السوفيتى وجمهرة البلدان الإشتراكية	-	٣	-	٧	١٠
الجملة بالنسبة لكل نوع	٤	٢٦	٢	٤٧	٧٩

وبالنسبة للزيارات المتبادلة نجد أنه بينما تمت بين مصر ودول الكتلة الشرقية (١٠) زيارات، وصلت إلى (٤٢) بالنسبة للغرب أما الزيارات التى جاءت إلى مصر، فقد بلغت من الشرق (١١) زيارة، أما من الغرب فقد بلغت (٣٦) .

وبالنسبة للواردات فى الفترة من ١٩٧٨/٧٤، فقد سارت على النحو الذى يبينه الجدول التالى (بالمليون من الدولارات الأمريكية) :

السنة / الدولة	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨
الإتحاد السوفيتى	٢٠٩	٢٣٢	١٩١ر٣	٢٧٠ر٨	٢٧٩ر٩
الولايات المتحدة	٢٨٩	٥٨١	٦٢٤ر٢	٦٨٨ر١	١ر٢٤٧ر٦

أما القسم الثالث، فقد حاول الباحث من خلاله أن يجيب على تساؤل رئيسى : وهو لماذا اتجهت السياسة الخارجية المصرية هذا الاتجاه ؟ وهو من أجل هذا كان لابد أن يغوص فى

حركة دول العالم الثالث وسط النظام العالمى الذى تسيطر عليه وتحكمه قوى لا حيلة لهذه الدول إزاءها وذلك بحكم المناخ العام الذى يسود كل دولة منها بكل مافيه من متغيرات تميل فى الأغلب إلى اعتقاله فى سجن التبعية .

هذا فضلا عما هو ملاحظ دائما فى مثل هذه الدول من حصر سلطة اتخاذ القرار فى يد (فرد) بعينه مع مايتيحه هذا من فرص للبعض للإحاطة به وحجب الحقائق الهامة عنه ودفعه إلى إتخاذ مايأملونه هم من قرارات تكون غالبا مضادة للمصالح الشعبية العامة . وتعقد قوى الاستعمار جسور إتصال دائم مع هذه المتغيرات بحيث لاتوجه السياسة الخارجية إلا لما يخدم مصالحها هى !!

ومن البحوث الأخرى التى قدمت بحث يتعلق بموقف الجامعة المصرية من حركات التجديد التى كان يدعو إليها بعض اساتذتها وحاول البحث أن يدلل على أن الجامعة فى الوقت الذى يجب فيه أن تمثل قناة اتصال لبث الأفكار الجديدة والنظريات المستحدثة وهو ماكان يتم فعلاً فى بعض المجالات، إلا أنها - فى مجالات أخرى - وقفت ضد عدد من أبنائها ومثل الباحث لذلك بموقف الجامعة من طه حسين فى كتابه الشعر الجاهلى ١٩٢٦ . والحق أن الباحث قد جانبه الصواب فى ذلك (المثال) فالحرب التى لقيها طه حسين كانت من خارج الجامعة، بينما آزر الطلاب أستاذهم، وقدم مدير الجامعة أحمد لطفى السيد استقالته عندما نقل طه حسين إلى وزارة المعارف فى حكومة إسماعيل صدقى .

وكذلك أشار إلى موقف الجامعة من منصور فهمى وماحدث أيضا بالنسبة لرسالة الدكتور محمد خلف الله عن الفن القصصى فى القرآن وما أثارته من زوبعة شغلت الرأى العام الجامعى فترة من الوقت .

وتناول موقف رجال ثورة يوليو منها وكيف بذلوا جهداً كبيرا فى «تسييسها» حتى تلين قناتها من حيث المواقف النقدية وذلك بالترغيب والترهيب ... الترغيب بتعيين بعض الأساتذة كوزراء وتولى مناصب أخرى كبيرة، والترهيب بفصل المناوئين والمعارضين باسم التطهير .

كذلك تناول باحث آخر الجهود البحثية فى منطقة الشرق الأوسط وكان التركيز - كالعادة -على مصر، وهذا شئ لفت نظرى كثيرا، فالبحث قد يكون موضوعه هو الشرق الأوسط عموما، ومع ذلك فقضايا مصر وهمومها واتجاهاتها هى التى تستاثر بالاهتمام . وقد نوه هذا الباحث بالكثرة الملحوظة لمؤسسات البحث العلمى وأيضا بهذا الكم الكبير من الطلب على الكليات العلمية حتى أضحى عدد الأفراد العلميين كبيرا بالنسبة إلى السكان .

لكن النقد الأساسى الذى وجهه هو أن النشاط العلمى لم يلتحم بحياة الناس وأفكارهم وقيمهم، فالكثيرون هم مجرد حملة «شهادات» فى الكيمياء والصيدلة والهندسة والزراعة وما إلى ذلك، لكن أفكارهم واتجاهاتهم تتوجه بقيم لاتفترق كثيرا عن هؤلاء الذين لم يتخصصوا فى مثل هذه التخصصات العلمية العملية، فكأن العلميين يحصرون عمليات التفكير العلمى داخل المؤسسات التعليمية أو تلك التى يعملون بها، فإذا ماخرجوا إلى المجتمع لممارسة حياتهم فلا بأس من إستخدام أساليب التفكير الخرافى والاعتقاد فى بعض الخزعبلات بل واللجوء إلى قارئ الكف وكاتب الأحجبة والاعتماد على «البخت» وأن «قيراط من الحظ خير من فدان من الشطارة» !!

واستأثرت الحركات الإسلامية باهتمام كبير من عدد من الباحثين الذين لاحظوا مدا إسلاميا واضحا لا فى البلاد الإسلامية وحدها، بل داخل البلدان الغربية نفسها سواء في أوربا أو الولايات المتحدة وتسجيل أن هناك سمات أساسية تميز معظم هذه الحركات، أولها إلحاحها على «الحل الاسلامى» الذى يتمثل فى ضرورة العودة إلى (الأصول)، والأصول يعنى بها هنا التمسك بكتاب الله وسنة رسوله والسلف الصالح . وعلى الرغم من الاتفاق على هذا، إلا أنه يبقى بعد ذلك مالايقل أهمية، وهو «تفسير النصوص القرآنية، والنبوية، ومن هم الذين يمثلون السلف الصالح ؟»

السمة الثانية فى هذه الحركات هي توسلها بالعنف أحيانا وبالسرية أحيانا أخرى وأن ذلك مرجعه إلى أن هذه الحركات تضرب دائما سواء من داخل بلادها أو من خارجها، بل أن ماتتلقاه من ضربات من داخل بلادها أكثر وأشد ضراوة مما تلاقية من القوى الخارجية .

السمة الثالثة هى العداء الشديد للقوتين الأعظم سواء الولايات المتحدة الأمريكية أم الإتحاد السوفيتى .

كذلك حظيت الانتخابات المصرية بدراسات غير قليلة رغم قصر الفترة التى تفصل بين هذه الانتخابات وبين انعقاد المؤتمر، تراوحت هذه الدراسات بين المقارنة بينها وبين سابقتها عام ٧٦، ٧٩ وماقبل ذلك أو بين المقارنة بينها وبين الانتخابات فى بعض بلدان الشرق الأوسط الأخرى وخاصة اسرائيل وتركيا .

وقد أشار البعض إلى أن تلك الانتخابات - مقارنة بماسبق - هى أكثر حيدة، وإن أشار بعض أخر إلى أساليب التأثير الواضحة التى لجأت إليها بعض الأجهزة الإعلامية كتكثيف عرض الأفلام التى تتعرض لفترة ماقبل الثورة، هذا فضلا عن عدم تعود رجال الإدارة المحلية

فى الأقاليم على الحياد الحقيقى حتى ولو لم تطلب منهم الدولة التدخل . كذلك سجل البعض خلو البرلمان من (قوى اليسار) ، وإن ظلت قنواتها عبر الصحف والمجلات الخاصة بها .

وقد لفت آخر الأنظار إلى «التركيب الاجتماعى» لكل حزب من الأحزاب المصرية القائمة مسجلا أن أغلبيتها لا تظلل القوى العاملة من الفلاحين والعمال، حتى بالنسبة لحزب التجمع، فقد أشير إلى أنه «تجمع مثقفين» أكثر منه تجمع «بروليتاريا» حقيقية كما توحى بذلك برامجه وفلسفته .

كذلك أشار باحث إلى أنه إذا كان حزب الوفد قديما قد ضم قوى الرأسمالية الزراعية والتجارية، وطعم صفوفه بعدد غير قليل من الكتاب اليساريين، إلا أنه فى وضعه الجديد قد افتقد ذلك بحيث يكاد المعيار الأساسى للالتفاف حوله هو مقدار الضرر الذى أصيب به العضو من ثورة يوليه أو مايحمله نحوها من كراهية .

لقد كان حقا (مجمع) مؤتمرات لا مؤتمراً واحدا، ومع الأسف الشديد لا تعنى الجمعية المنظمة له بطبع البحوث المقدمة فى كتاب وإنما فقط للقارئ أن يرسل فى طلب بحث معين يهمه أو أكثر نظير رسم تحدده، فترسله إليه .

وكم كنت أود أن يتسع المقام للإشارة إلى موضوعات أخرى عديدة حفلت بها حلقات المناقشة، ولكن ذلك صعب عسير، فهى كما قلت تربو على الأربعمائة بحث، ويحكم الفترة القصيرة التى تخللها المؤتمر لم تتح لى فرصة حضور بحوث أخرى إلا مايزيد على أصابع اليدين قليلا .

للمـــؤلـف

---

١ – الفلسفة ، للصف الثالث الثانوى , وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٢ – المجتمع المصرى فى عهد الاحتلال البريطانى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٣ – دراسات فى التربية والفلسفة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٤ – تدريس المواد الفلسفية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

٥ – قضايا التعليم فى عهد الاحتلال ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

٦ – الأزهر على مسرح السياسة المصرية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤ .
(صدر فى طبعة أخرى ، مع حذف الفصل الأول ، وزيادة فصل فى آخره ، فى سلسلة كتاب الهلال ، دار الهلال ١٩٨٦ بعنوان " دور الأزهر فى السياسة المصرية ") .

٧ – التربية اليهودية الصهيونية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

٨ – أصول التربية الإسلامية ، دار نشر الثقافة ، ١٩٧٦ .ثم أعيد طبعه ، مع بعض التغييرات ، فى دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

٩ – التصور النبوى للشخصية السوية ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٠ – أوضاع المربين العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١١ – التعليم الثانوى ، الواقع والمستقبل ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٢ – نشأة التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

١٣ – دراسات عن التعليم فى المملكة العربية السعودية (تحرير) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

١٤ – دراسات فى اجتماعيات التربية (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

١٥ – دراسات فى فلسفة التربية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ .

١٦ – المدخل إلى العلوم التربوية (بالاشتراك) ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨١ .

١٧ – دراسات فى التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢ .

١٨ – ديموقراطية التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٢ (صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٤ فى دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة).

١٩ – تجربة ثورة ٢٣ يوليو فى التعليم (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٢٠ – تطور إعداد معلم المرحلة الأولى (بالاشتراك) ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٢١ – الأصول السياسية للتربية (بالاشتراك) ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٨٣

٢٢ – النبات والفلاحة والرى عند العرب ، دار نشر الثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٢٣ – محنة التعليم فى مصر ، حزب التجمع ، كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٢٤ – تاريخ التربية والتعليم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

٢٥ – معاهد التربية الإسلامية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٥ (وكانت الطبعة الأولى قد

صدرت عن دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة عام ١٩٧٨).

٢٦ - إنهم يخربون التعليم ، حزب التجمع ، كتاب الأهالى ، القاهرة ، ١٩٨٦ .

٢٧ - الفكر التربوى العربى الحديث ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والفنون ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، ١٩٨٧ .

٢٨ - بحوث فى التربية الإسلامية ، مركز تنمية الموارد البشرية ، القاهرة ، ١٩٨٧ .

٢٩ -تاريخ الفكر التبوى فى مصر الحديثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة تاريخ المصريين ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٣٠ - الأمن التربوى العربى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٣١ - هموم التعليم المصرى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٨٩ .

٣٢ - هوامش فى السياسة المصرية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٩٠ .

٣٣ - اتجاهات الفكر التربوى الإسلامى ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩١ .

٣٤ - تعميم التعليم الابتدائى فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى البلاد العربية ، عمان ، ١٩٩١ .

٣٥ - محو الأمية وتعليم الكبار فى الوطن العربى (تحرير) ، مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى الوطن العربى ، عمان ، ١٩٩١ .

٣٦ - الأصول الإسلامية للتربية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

٣٧ - دراسات فلسفية (بالاشتراك) ، للصف الثالث الثانوى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

٣٨ - مستقبل التعليم فى الوطن العربى فى القرن الحادى والعشرين - التقرير النهائى ، (بالاشتراك) ، منتدى الفكر العربى ، عمان ، ١٩٩٢ .

٣٩ - نظرات فى الفكر التربوى ، دار سعاد الصباح ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

٤٠ - رؤية إسلامية لقضايا تربوية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٩٣ .

٤١ - التربية والحضارة فى بلاد الشرق القديم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

٤٢ - مقدمة فى التأريخ للتربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

٤٣ - التربية فى الحضارة اليونانية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

٤٤ - سقوط تربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٥ .

٤٥ - فلسفات تربوية معاصرة ، المجلس الوطنى للثقافة والعلوم والآداب ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، يونية ١٩٩٥ .

٤٦ - التربية علم له أصول ، دار أخبار اليوم ، سلسلة كتاب اليوم الطبى ، القاهرة ،١٩٩٥ .

٤٧ - التعليم فى مصر ، دار الهلال ، سلسلة كتاب الهلال ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٩٥ .

٤٨ - التربية فى الحضارة المصرية القديمة ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

٤٩ - سياسة التعليم فى مصر ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

٥٠ - التربية العربية فى العصر الجاهلى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٦ .(الطبعة الأولى كانت بعنوان " تمهيد لتاريخ التربية الإسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩)

٥١ -التعليم والخصخصة ، كتاب الأهرام الاقتصادى ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

٥٢ - التربية عند بنى إسرائيل ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

٥٣ - التربية التحليلية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

٥٤ - الأصول السياسية للتربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٧ .

٥٥ - البناء القيمى فى المجتمع الكويتى (بالاشتراك) ، الديوان الأميرى ، مكتب الإنماء الاجتماعى ، الكويت ، ١٩٩٧ .

٥٦- استراتيجية تعليم الكبار فى الوطن العربى ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس ، ١٩٩٨ .

٥٧ - التربية (بالاشتراك) ، لمعلمى التعليم الفنى ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

٥٨ - التعليم على أبواب القرن الحادى والعشرين ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٩٨ .

رقم الإيـداع بدار الكتب ٢٤٢٣ لسنة ١٩٩٩
الترقيم الدولى I. S. B. N. 977-232-173-4

مطبعة
أبناء وهبه حسان
٢٤١ (أ) ش الجيش – القاهرة
٥٩٢٥٥٤٠ ☎